الدكتور عمر بن قينة
معهد الأدب العربي - جامعة الجزائر

صوت الجزائر في الفكر العربي الحديث

(أعلام .. وقضايا .. ومواقف)



ديوان المطبوعات الجامعية

الدكتور عمر بن قينة

معهد الأدب العربي - جامعة الجزائر

صوت الجزائر في الفكر العربي الحديث

(أعلام .. وقضايا .. ومواقف)



ديوان المطبوعات الجامعية

الساحة المركزية - بن عكنون - الجزائر

رقم النشر: 3742 · 09 · 4

بسم آلله الرحمن الرحيم

مــقــدمــة

هذا العمل الذي يسعدني أن أقدمه للقارىء الكريم هو حصيلة جهد أسهمت بمعظمه ضمن ما كان محور عمل في فرقة للبحث العلمي، في معهد الأدب العربي، بجامعة الجزائر (المركزية) حيث كان حرصنا شديدا على التعريف الضروري برجال كلمة: أدباء ومفكرين، أعطوا الوطن جهدهم وحبهم، فتفانوا في سبيله: رسل علم ومعرفة، ورجال فكر وإبداع وإصلاح، ودعاة يقظة ونهوض، وجنودا في سبيل الدفاع عن الانتماء الحضاري للوطن، ناضلوا من دون أن ينتظروا جزاء من أحد ولا شكورا من غيره.

كان هذا الجهد قطرة من الاهتمام الضروري الذي أملاه الواجب تجاه من أعطوا كثيرا لأمتهم العربية خاصة في مغربها العربي، وكانوا صوتا متميزا في فكرنا وأدبنا العربي بالجزائر بخلفيته الحضارية: تاريخا ودينا ولغة.

قدّمت مع التعريف بكل شخصية وأعمالها عموما ثلاثة نماذج غالبا، يمكن أن تكمل فكرة أو توضّح رأيا عن اتجاهها، أو تساعد في فهم مواقفها ومنطلقاتها الفكرية، أو نهجها الأدبي أو الاصلاحي أو غير ذلك، مما نتمنى أن يكون خدمة جادة نقدّمها لطلبتنا في معاهد الأدب العربي بخاصة، والعلوم الانسانية بعامة، وللباحثين والمهتمين بالحركة الثقافية المعاصرة وللقراء بعامّة، سواء في الجزائر أو في الوطن العربي أو خارجه.

وآلله وليّ التوفيق

عمر بن قينة

معهد الأدب العربي ـــ جامعة الجزائر 1990/10/15

حمدان بن عثمان خوجة

1187 ــ 1255 هـ

(1773 ــ 1840م)

حمدان بن عثمان خوجة

1187 ـ 1255 هـ

(1773 ـ 1840م)

يعتبر (حمدان خوجة) من أوائل السياسيين الجزائريين الذين تصدّوا للاحتلال الفرنسي في سنة 1830، فعمل لانشاء أول حزب سياسي جزائري، انضمّ اليه بعض الجزائريين «الذين كانوا على وعي بدورهم السياسي والوطني»[1] يؤيدهم الشعب المقاوم، فكان هذا الحزب «أول حركة ضدّ فرنسا»[2] ضمّ إلى جانب (حمدان خوجة): (أحمد بوضربة) و (حمدان آغا) و (اسماعيل بن مصطفى) و (ابن عمر).

ولد (حمدان بن عثمان خوجة) في الجزائر سنة 1187 ـ (1773م) من أسرة ذات أملاك في منطقة (متّيجة) بضواحي العاصمة. تلقّى تعليمه على أبيه بما في ذلك دراسته القانونية، فهو جزائري المولد والنشأة والانتماء، صحب عمّه الى (اسطنبول) سنة: 1784م وغيرها من بعض مدن الشرق الأدنى، كما مكث في أوروبا نحو سبع عشرة سنة، قضى بعضها في فرنسا حيث تعرّف على جوانب من الحياة السياسية والثقافية والاجتماعية فيها،

---

(1) الحركة الوطنية الجزائرية، د. أبو القاسم سعد الله، ج: 2، ص: 28، ط: 2، معهد البحوث والدراسات العربية، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم (جامعة الدول العربية) 1977م.
(2) المرجع السابق، ص: 29.

وقد هيأته هذه التجربة لدوره السياسي حين اجتاحت جحافل الاحتلال الفرنسي الجزائر، فانطلق يطالب النظام الفرنسي باحترام المواثيق والعهود التي أعطوها في الاتفاق الذي استسلم بمقتضاه داي الجزائر في جويلية 1830م.

لكن الحكم الاستعماري كانت يده أسرع الى النهب والتدمير وخرق العهود والاتفاقيات، وبه صمم يحول دون نداء الحرية وصوت الحق، ممّا أدّى إلى مواجهة سافرة بين الاحتلال و (حمدان خوجة) وبعض زملائه، أسفرت عن طرده من الجزائر سنة 1833م الى (باريس) حيث تابع هناك نضاله السياسي لاسماع صوت وطنه ومواطنيه، وانتهى هناك من تحرير كتابه (المرآة) قصد مخاطبة الرأي العام باتهامات «مباشرة ضدّ الفرنسيين في الجزائر، كما احتوى على برنامج وآمال الجزائريين في ذلك الوقت» وعمل للفت نظر الشخصيات الرّسمية في (باريس) الى الوضعية المزرية التي انتهت اليها حال الجزائر.

انجز (حمدان خوجة) نهائيا كتابه (المرآة)[1] في صائفة 1833 من أجل «اطلاع الري العام الأوروبي — ولا سيما الفرنسي — على الأحداث الجارية في الجزائر، وعلى أوضاع سكان هذا القطر المنكوب، واطلاعهم أيضا على بعض مراحل تاريخه وعوائد أهله وأخلاقهم وطباعهم التي تأبى الخضوع لمن يخالفهم في الجنس والدّين»[2].

---

(1) أنجز (حمدان بن عثمان خوجة) كتابه (المرآة) في باريس، جويلية 1833 باللغة العربية، وقام بترجمته الى الفرنسية صديقه الليبي (حسونة دغيس) حيث تمّ نشره في (باريس) وبقي الأصل بالعربية مجهولا حتى الآن، ترجم (المرآة) عن الفرنسية حديثا (الدكتور محمد العربي الزبيري) ونشرته الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، كما ترجمه (الدكتور محمد بن عبد الكريم) وصدر عن منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت (لبنان) 1972م، وهي الترجمة الأولى التي بين أيدينا فاعتمدناها. أنظر، عن المترجم (حسونة دغيس) ص: 6، من الكتاب.

(2) المرآة، حمدان بن عثمان خوجة، ت. محمد بن عبدالكريم، ص: 11 من التقديم.

قسّم (حمدان خوجة) كتابه الى ثلاثة أقسام: الكتاب الأول، والثاني، وقسم الوثائق، ضمّ كل واحد منها فصولا عديدة، ضمّ الكتاب الأول: ثلاثة عشر فصلا، سبعة منها عن الجزائر والجزائريين: أخلاقا وعادات وتقاليد، وتاريخا قبل ذلك، وستة فصول عن الحكم العثماني في الجزائر: نظاما ونمطا في التجنيد واعداد الجيش، وتركّز بعضها عن آخر دايات الجزائر، وظروف الأمن وعلاقة السلطة بالمواطن، فيقول (سي حمدان) مثلا: أنّ «أكبر المظالم التي حدثت بالجزائر قد نجمت عن اسناد مناصب البايات الى أشخاص ليسوا ذوى جدارة ولا كفاءة»[1] في حين أثبت (بايات) آخرون جدارتهم بالمنصب والمسؤولية مثل (الحاج أحمد باي) في (قسنطينة) الذي برهن أيضا «على ذلك انه عرف كيف يثبت في حكمه حتى بعد سقوط الحكومة التركية»[2] كما أثنى (حمدان خوجة) على الدّاي (حسين باشا) آخر دايات الجزائر ثناء طيبا، شديد الاحترام لشخصه والتقدير للظروف التي أجبرته على الاستسلام لفرنسا.

أما القسم الثاني من المرآة فقد ضمّ اثني عشر فصلا، عن الحرب وأسبابها، وما جرى من حوادث أثناء دخول (بورمون) الجزائر، ثم الاحتلال العسكري وما صحبه من ظلم، وماله صلة بهذا، كما تحدّث في الفصل الحادي عشر عن الأوقاف الجزائرية وما تعرضت له من نهب خاصة على أيام (كلوزيل) الخصم العنيد لحمدان خوجة، أما الفصل الأخير من هذا القسم فكان عبارة عن «ايضاحات عن ممتلكات الأوروبيين بالجزائر».

نرى (حمدان خوجة) فيما يخص الأوقاف مثلا يقول: «أظنني قد توصلت الى اكتشاف الأسرار التي دفعت بمسؤولي فرنسا أن يزينّوا الى حكومتهم عمل الاستيلاء على هذه المؤسسات الدينية، فالسرّ الأول هو

(1) المصدر السابق، ص: 139.
(2) المصدر السابق، ص: 143.

الحصول على الوسيلة التي يصبحون بها أغنياء في أقرب وقت ممكن،، ولو أدّى ذلك الى ضرر الانسانية، وخسارة شرف الدولة الفرنسية، ثم اغراؤهم فرنسا ودفعهم برغبتها الى التّمسّك بايالة الجزائر والاحتفاظ بها... أيها الفرنسيون أنتم الذين تعطون اليونانيين والبولونيين الملايين من الفرنكات، أنتم الذين تساعدون هذه الشعوب بأموال الجزائريين... أن من الأحسن أن تمسك فرنسا مثل هذه الادعاءات لأنها أصبحت سببها في آلام أبناء وطني وتعاستهم... ان أغلاط القرن السادس عشر وأخطاء المستبدّين قد تجدّدت في أيّامنا، فلماذا؟ لأن الناس قد احتفظوا بأهوائهم الخسيسة وشهواتهم الدنيئة التي قد ورثوها عن أسلافهم».

وبعد أن يذكّر (حمدان خوجة) بمختلف الممارسات لافقار الشعب الجزائري واستئصاله يؤكد استحالة النجاح الكلّي لقادة الاحتلال، الأمر الذي تبقى معه «الجزائر غير قابلة للاستعمار»[1].

أما القسم الثالث من كتاب (المرآة) فهو خاص بالوثائق التي بلغت ست عشرة وثيقة: عرائض احتجاج، ومناشير، ورسائل، معظمها من (حمدان خوجة) في مواجهة سياسة الاحتلال، منها الرسالة التي وجّهها الى رئيس الوزراء ووزير الحرب في 3 جوان 1833 لفضح الانتهاكات التي تمارسها السلطة العسكرية الفرنسية في الجزائر، كمصادرة أموال الأوقاف، والاستيلاء على الزوايا وتهديم المساجد وتحويل بعضها كنائس (مثل كتشاوة).

أعطى (حمدان خوجة) صورة عن وضع الجزائر خاصة عن معاناتها في المواجهة الصعبة مع الغزو الصليبي، فكان لحمدان خوجة موقفه الواضح واستماتته السياسية في الدفاع عن مصالح وطنه ومواطنيه.

---

(1) المصدر السابق، ص: 143.

مواقفه الوطنية جعلته ينفي من (الجزائر) الى (باريس) فحمل همه الوطني معه ليخاطب الحكم والرأي العام هناك، حتى اضطر في النهاية الى ترك (باريس) يائسا من الوصول الى اصلاح ما تفسده يد الاحتلال وممارساته البربرية الش‍ ‍ـمة، خاصة ــ ربما ــ بعدما أدرك أن (لغة السياسة) و (الحوار) تبقى بدون جدوى في مواجهة الآلة العسكرية والغطرسة الصليبية، فسافر الى (الاستانة) وقرّبه السلطان العثماني محمود الثاني، وتوفي حوالي سنة 1255 هـ ــ 1840 في (اسطنبول).

وقد خلّف (حمدان خوجة) بالاضافة الى عمله الرائد (المرآة) أعمالا أخرى من دون شك، مثل (اتحاف المنصفين والأدباء(٭)) الذي أهداه الى السلطان (محمود الثاني). ينبغي أن نذكر منها مذكرته سنة 1833 الى (اللجنة الافريقية) الخاصة بالتحقيق في جرائم الجيش الفرنسي الغازي، وهي لجنة فرنسية «أعلنت عن استعدادها لجمع كل الوثائق الضرورية التي تمكّنها من ابداء حكم صائب في مستوى الأمة الفرنسية مطابق لضميرها، وفي حدود مبادىء الشرف والعدالة. وان السبيل الوحيد لأداء مهمتها بأمانة هو أن تضع مبادىء حقيقية ومتداولة تؤدي الى معرفة الأحداث المجهولة واستخلاص النتائج وفقا لما يتطلبه المنطق»(1).

غير أن (المرآة) يبقى الجهد الأكبر والصورة الأشمل، لما شغل (حمدان) وما عبّر عنه، كما يبقى الكتاب مرجعا هاما متعدّد الجوانب، أو كما قال مترجمه الى العربية «... نبراس للمؤرخ، رائد للسياسي، مزود للمشرّع، مرشد للقانوني، مفيد جدا لعالم الاجتماع»(2).

(٭) حققه محمد بن عبد الكريم، نشرته الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، سلسلة (ذخائر المغرب العربي) الجزائر، 1968.

(1) مذكرات أحمد باي وحمدان خوجة وبوضربة، ترجمة: محمد العربي الزبيري، ص: 147، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1973م.

(2) المرآة، ص: 3.

لقد كان (حمدان خوجة) صوتا جزائريا وطنيا معبّرا عن آلام أمته بحسّ عربي اسلامي، فكان: «أول جزائري عربي مسلم آمن بالمفهوم الحديث للقومية، ونادى باقامة فكرة قومية للأمة العربية ــ الاسلامية. ذلك أن هذه الفكرة الأوروبية للقومية لم تظهر في العالمين العربي والاسلامي الاّ في آخر القرن التاسع عشر. وقد كان خوجة أيضا أول عربيّ مسلم تطرده من بلاده دولة أوروبية من أجل قضية قومية»[1].

وهو لكل ما سبق وغيره شخصية جزائرية متميّزة لما لعبه من دور في احياء أمته، كما تبقى مواقفه في جبهة المقاومة السياسة الضارية صورة مشرقة من صور الرفض للاحتلال وكل ما انجرّ عنه، كما عبّر فكره عن أصالة الانسان الجزائري الوطني بطبعه ذي الارتباط الوثيق بانتمائه الحضاري عربيا واسلاميا.

(1) الحركة الوطنية الجزائرية، ص: 81.

نماذج من كتابات (حمدان خوجة)

1 ـــ قال (حمدان خوجة) عن (حسين باشا) آخر دايات الجزائر:

«ينتمي هذا الرجل الأمين الصدوق الى عائلة نبيلة، وأنه يتمتع بمعارف واسعة، وقد خدم الايالة أكثر من ثلاثين سنة، كما تقلّب في مختلف مناصب الحكومة، ولما كنت أعرف الناس بأصله وبأخلاقه يمكن لي أن أقول بأنه من أطيب أرومة الأتراك القدامى، أي أنه شهم، عالي الهمّة، ومحسن، فلا أظن أحدا يستطيع أن يتّهمه بالشراهة أو الجشع، فوفاؤه بعهوده واخلاصه لوعوده شيء معروف جدا بأوروبا. ولا يمكن لأية دولة أن تتّهم حسينا باشا بنقض العهود المبرمة سواء مع القوية منها أو الضعيفة.

وبناء على هذا الاعتبار فأنا مقتنع ومتيقّن بأنه سيعترف له بحقه الذي يستحقّه، أما ما يخص هذه الحرب المشؤومة التي أجبرته على ترك الحكم والتخلّي عن السلطة فسوف نرى ـــ عند ذكر التفاصيل ـــ أن الحظّ قد خانه بسبب الخطإ الذي ارتكبه أعضاء حاشيته وجنوده، فقد كان ضمن الشخصيات الذين يشكّلون ديوانه عدد منهم، لا أخلاق لهم ولا خبرة ولا شجاعة. وقد كان ينوي ابان حكمه أن يعيد نظام الحكومة الى نصابه، لأنه عندما استلم السلطة قد وجد في أجهزة الحكومة فوضى تفوق الوصف، وليس في إمكانه أن يتوصل الى استئصال جذور الدّاء في حكومة الايالة الا بمساعدة القدر على امداد سلطته أكثر مما قدّر لها أن تدوم». (المرآة) ص: 143.

بورمون) يدّعي أنه أتى الى بلادنا ليزيل حكم الظلم والاستبداد، ويحصلّ مكان ذلك قوانين مبنية على أساس العدل والانصاف. ولو أن هذه الزّلاّت ارتكبت من طرف شخص آخر، غير السيد (بورمون) لكان في امكاننا أن نتجاوز عنها. وهذا دفع بكل منا أن يقول: إذن فأين هؤلاء الفرنسيون المفتخر بهم.» (المرآة) ص: 189 ــ 190.

3 ــ من مذكرة (حمدان خوجة) الى اللجنة الافريقية (الجزائرية) سنة 1833:

«... لكي نبرهن أيضا على أن البدو والقبائل هم القاعدة المؤسسة لثروات هذه الايالة، ينبغي التذكير هنا بأن الجزائر قبل الغزو كانت معروفة لدى الجميع بأنها مخزن أوروبا، وأن أصل هذه الحرب البغيضة يرجع الى تزويد فرنسا بالحبوب، أما الآن فعلى العكس، أن العيش في الجزائر لا يقل غلاء عمّا هو عليه في فرنسا، والسبب في ذلك أن وسائل الاتصال بسكّان الدّاخل مقطوعة. وهكذا إذن فانّ الايالة واطمئنانها وازدهارها موقوف على هؤلاء السكان. ومن الأكيد أنه لا يمكن الحصول كما كان مفروضا على الفوائد الجمة التي تنتظرها فرنسا لا من مدينة الجزائر ولا من سهول متيجة.

وبقطع النظر عن العواقب الوخيمة التي تنتج عن الأسباب الثلاثة عشر المذكورة أعلاه، فان هذا الشعب لا يمكن أن تكون له فكرة طيبة عن الفرنسيين عندما يرى أن وجودهم أشعل حربا مؤذية أكثر منها نفعية، وأن فلاحته قد أهملت تقريبا وتجارته مع الشعوب الأخرى قد انقطعت، وان راحته قد تشوشت. ان ثلاث سنوات ونصف من الاحتلال قد جعلت السكان بصيرين بما يعملون، واغتاظ السّكان لهذه الاهانة الى درجة انهم صاروا ينفون كل شعور بالقرابة نحو أفراد أسرهم الذين يزوّدون الجيش الفرنسي بالمؤن، لا يهمّهم في ذلك الحجّة التي قد يتذرّعون بها» (مذكرات: أحمد باي وحمدان خوجة وأحمد بوضربة) ص: 164 ــ 165.

مصادر ومراجع

(1) المرآة (لمحة تاريخية واحصائية على ايالة الجزائر) حمدان بن عثمان خوجة الجزائري، ترجمة الدكتور محمد بن عبد الكريم، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت (لبنان) 1972م.
(2) الحركة الوطنية الجزائرية، الدكتور أبو القاسم سعد ٱلله، ج. 2، ط : 2، معهد البحوث والدراسات العربية ــ المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم (جامعة الدول العربية) 1977م.
(3) مذكّرات أحمد باي وحمدان خوجة وبوضربة، ترجمة: محمد العربي الزبيري، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1973م.
(4) اتحاف المنصفين والأدباء في الاحتراس عن الوباء، حمدان خوجة، تقديم وتحقيق محمد ابن عبد الكريم، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1968م.

محمد بن العنابي

1189 ــ 1267 هـ

(1775 ــ 1851م)

محمد بن العنابي

1189 ـ 1267 هـ

(1775 ـ 1851م)

هو (محمد بن محمود بن محمد بن حسين) الذي اشتهر بابن العنابي و (العنّابي) عاش عصرا حافلا بالاضطراب السياسي من جهة على المستوى العام وعمرا حافلا بالنشاط والانتاج العلمي على المستوى الشخصي من جهة أخرى، وقد عاش نحو ثمان وسبعين سنة، عاصر الثورة الفرنسية وما نتج عنها من أحداث مختلفة محلية وخارجية كما عاصر في بلاده (الجزائر) حروبا خارجية بالخصوص في مواجهة أنكلترا وأميريكا وفرنسا في النهاية، وقد كانت مواجهة المصير حيث الحقد الصليبي الناهض لكسر شوكة القوة الجزائرية خاصة في البحر الأبيض المتوسط.

ولد (محمد بن العنابي) سنة 1189 هـ ـ 1775م من أسرة جزائرية كان لها اعتبارها الدّيني والفكري، تولّى بعض أفرادها مناصب دينية سياسية وفكرية، فقد تولّى جدّه الأعلى (حسين بن محمد) الافتاء الحنفي، واشتهر جدّه الأدنى (محمد بن حسين) بالعلم وحظي بالتقدير الكبير، ممّا رشّح بعد ذلك (ابن العنابي) للوظائف معززا بامكاناته الفكرية والأدبية التي أهّلته للاحترام والتقدير. فقد «ثقّف ابن العنابي ثقافة واسعة بمفهوم عصره»[1] وكان من الأوائل الذين تلقّى عنهم العلم في وطنه جدّه ثم والده فالمفتي المالكي (علي بن عبد القادر ابن الأمين) المتوفّى سنة 1820م.

---

(1) المفتي الجزائري ابن العنابي رائد التجديد الاسلامي، دكتور أبو القاسم سعد ٱلله، ص: 19، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1977.

وكان تمكّن (ابن العنابي) في العلوم الشرعية أقوى مع تفتّح واع على مشاكل العصر، وتفاعل معها، وجاءت ثقافته من اهتمامه الشخصي «بالدرجة الأولى ومن تقاليد أسرته بالدرجة الثانية»[1] فتلقّى علومه على عدد من كبار الأساتذة يومئذ، كما أمدّته تقاليد أسرته بتراث غزير إفادة كبيرة بدون شك.

أما وظائفه فكان أولها منصب القضاء الحنفي سنة 1208هـ وعمره دون تسع عشرة سنة ممّا جعله يستقيل، لكنه عاد الى المنصب في: 1210هـ حيث مكث فيه نحو ثلاث سنوات، كما تولّى الافتاء الحنفي من سنة 1213هـ حتى سنة 1236هـ. وقد كلف (ابن العنابي) الى جانب ذلك في هذه الفترة بالكتابة الى (باي تونس) لرغبة (أحمد باشا: 1220 ــ 1222هـ ــ 1805 ــ 1808م)، كما ورد في مذكرات (الحاج أحمد الشريف الزّهّار) الذي ذكر أن الباشا قد أمر «الفقيه محمد بن العنابي قاضي الحنفية أن يكتب كتابا الى حمودة باشا، فكتب الكتاب وبعثوا به...»[2] كما كلف في (عهد عمر باشا) بسفارة للمغرب الأقصى، وبذلك «يتضح أن ابن العنابي لم يكن مجرّد عالم بالفقه وما اليه من العلوم الشرعية، بل كان أيضا ديبلوماسيا ناجحا، وخبيرا بشؤون الدّول»[3].

وقد أدّى (ابن العنابي) في سنة 1236 فريضة الحج، لكنه اختار في أثناء العودة ــ فيما يبدو ــ الاقامة في (مصر) لسوء تفاهم بينه وبين النظام في الجزائر[4] أيام (حسين باشا) حيث تولّى التّدريس في جامع الأزهر

---

(1) المفتي الجزائري ابن العنابي، رائد التجديد الاسلامي، دكتور أبو القاسم سعد الله، ص: 23، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1977.

(2) مذكّرات الحاج أحمد الشريف الزّهار. سلسلة ذخائر المغرب العربي، تحقيق أحمد توفيق المدني، ص: 97. الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر 1980م.

(3) المفتي الجزائري ابن العنابي، ص: 27.

(4) أنظر: حوليات جامعة الجزائر، رقم1، 86 ــ 1987م. ديوان المطبوعات الجامعية. الجزائر. 1987م.

نحو تسع سنوات، أي حتى سنة 1245، وهي السنة نفسها التي طلبه فيها (حسين باشا) من الجزائر بودّ وحفاوة، ورحّب بقدومه، وولّاه الافتاء الحنفي، وعندما داهمت جيوش الاحتلال الفرنسي الجزائر سنة (1246هـ ــ 1830م) ولّاه (حسين باشا) الى جانب (الآغا ابراهيم) في قيادة الجيش الجزائري المقاوم، وذلك «لثقة حسين باشا في ابن العنابي، وكان تعيينه لرفع الرّوح المعنوية بالدعوة الى الجهاد وليس كفاءته العسكرية، فهو قبل كل شيء رجل دين وفكر لارجل حرب ومناورات عسكرية، وكان الأولى بحسين باشا الاستماع الى آراء ابن العنّابي في التجديد والنهضة والعمل بها قبل ذلك... الأوان، أما القائد الفعلي للجيش الجزائري عند الحرب مع الفرنسيين فهو (الآغا ابراهيم) الذي أثبتت كل المصادر عدم كفاءته العسكرية، وكان مؤهّله الوحيد هو مصاهرته الباشا»(1).

وعندما سقطت الجزائر في أيدي المحتلّين الفرنسيّين في 5 جويلية 1830 كان الأمل فيما يبدو باقيا في نفس (ابن العنابي) لجلاء المحتلّين الفرنسيّين أو اجلائهم بالمقاومة الشعبية، مما ضاعف من شكوك القائد العام الفرنسي (كلوزيل Clozel) في نيّاته حسبما يذكر (حمدان خوجة) في كتابه (المرآة) فقرّر طرده من الجزائر، يقول (حمدان خوجة): «كان المفتي سيّدي محمد العنابي رجل عدل وانصاف مملوءا عفة وفضيلة، وذنبه الوحيد أنه كان يكتب دائما الى القائد كلوزيل فينتقد أعماله التي تبدو مخالفة لشروط معاهدة التسليم وقوانين الفرنسيّين، وحقوق الانسان، ولكنّ القائد أبى أن يسمع شيئا، بل أمر رجال الدّرك أن يقبضوا على المفتي ويضعوه في السّجن، وحتى عائلته لم تنج من جميع أنواع الاعنات والتنكيد والاغاضة التي لا نظير لها، بحجّة أنها قد دسّت على الفرنسيين وتآمرت عليهم»(2).

---

(1) المرجع السابق، ص: 50 ــ 51.

(2) المرآة (لمحة تاريخية واحصائية على ايالة الجزائر) حمدان بن عثمان خوجة الجزائري، ترجمة: محمد بن عبدالكريم، ص: 222، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت (لبنان) 1972م.

ثم يضيف (حمدان خوجة) انه «عندما أحيط المفتي علما بقرار نفيه وبابعاده عن وطنه تقدّمت من جديد الى القائد العام (كلوزيل) لألتمس منه على الأقل أن يعطيه مهلة يتمكّن خلالها من تنظيم شؤونه وبيع أرزاقه من أثاث وعقار، وهلمّ جرا... وبعد صعوبات شديدة فزت بموافقته له على مهلة لا تتجاوز عشرين يوما شريطة أن يبقى تحت ضمانتي، وبعد انتهاء أجل المهلة التي نظّم خلالها أموره غادر الجزائر متوجّها صوب الأسكندرية»[1]. وهناك تولّى (ابن العنابي) في عهد (محمد علي) الافتاء الحنفي حتى سنة 1266هـ حيث عزله والي مصر الجديد (عباس باشا) حفيد (محمد علي) لمؤامرة دبّرها له بعض من مرضى النفوس الذين ملأت الغيرة والحقد قلوبهم من بعض المشائخ الذين يرتزقون بالدّين والشّعارات الكاذبة لتحقيق المآرب كسائر النّماذج المريضة الفاشلة في مهامها الأساسية في كلّ محيط، فطعنوا في شخصه وأفكاره خاصة في كتابه «صيانة الرياسة ببيان القضاء والسياسة» الذي كان قد أنجزه لرغبة (محمد علي).

وهكذا لاذ (ابن العنابي) بالصمت حتى لقي ربّه بعد ذلك بنحو سنة، وذلك في ربيع الأول من سنة 1267هـ تاركا وراءه ذكرا طيّبا، وجهدا كبيرا: في التدريس والافتاء والاجتهاد، وما تخرّج عليه من طلبة، وما ترك من أثار فكرية. فقد التفّ حوله تلاميذ وعلماء خصوصا في الأزهر بعد أن تصدّر لتدريس الحديث والفقه، فأجاز كثيرين من تلاميذ في مصر وتونس وغيرهما، كما كانت له مراسلات كثيرة لأغراض مختلفة، وقد اتّسمت شخصيته بالرّوح الدينية والفكر السياسي والاقتصادي، فكان له دوره الديني والسياسي، لعب دوره الأول «وهو يباشر وظيفة الافتاء ويتصدّر للتدّريس ويمنح الاجازات لتلاميذه والمعجبين بعمله، أما الدور السياسي فيتمثّل في صلته بدايات الجزائر، وفي موقفه من الاحتلال الفرنسي لبلاده»

(1) المصدر السابق: ص: 224.

وهو الاحتلال الذي طرده فمات بعيدا عن وطنه، تاركا بالاضافة الى ما سبق آثارا مكتوبة مختلفة، يأتي في مقدمتها:

1 — «السعي المحمود في نظام الجنود» الذي كان محور كتاب الدكتور أبي القاسم سعد آلله عنه، حيث تحدث عن نسخ الكتاب، وظروفه ودوافع (ابن العنابي) في تأليفه، حيث رأى أن الأوروبيين «قد نظموا جنودهم ليضرّوا بالاسلام وأهله، وأمام هذا الخطر الدّاهم أصبح من المحتّم على المسلمين أن يتعلّموا منهم ما اخترعوه من صنائع ونظم»[1]، فالموضوع يتعلق بنظم الجيش والأخذ بأسباب الحضارة، فجاءت فصول الكتاب الأربعة عشر حول هذا الموضوع، يعرض الأستاذ (سعد آلله) هذه الفصول محلّلا مستنتجا، فيرى من بين ما يرى أن شخصية (ابن العنابي) «تظهر تدريجيا في كتابه وخاصة في حديثه عن التدريب على الأعمال الحربية وعن الحصون والخنادق والأسلحة»[2]. كما دخل (ابن العنابي) حقا عصره «في تناوله رحمة الضعفاء، واجراء العدل، وبذل الحقوق لمستحقّيها» وباقتراح من (محمد علي) والي مصر يومئذ اختصر تلميذ لابن العنابي هذا الكتاب تحت عنوان «بلوغ المقصود: مختصر السعي المحمود». وقد بدا (ابن العنابي في كتابه كمجدّد اسلامي في ميادين سبق فيها أمثال (الطهطاوي) و (الأفغاني) و (محمد عبده).

2 — الكتاب الثاني لابن العنابي، وربّما حتى من حيث الأهمية[3] هو «صيانة الرياسة ببيان القضاء والسياسة» عن المذاهب الأربعة لطلب من (محمد علي).

---

(1) المفتي الجزائري ابن العنابي، ص: 67.
(2) المصدر السابق، ص: 71.
(3) أنظر حوليات جامعة الجزائر السالفة الذكر التي أورد فيها الدكتور (أبو القاسم سعد آلله) مقتطفات من ترجمة (عبدالحميد بك) لابن العنابي، ص: 47.

3 ـــ شرح كتاب الدّرر المختار، في الفقه الحنفي.

4 ـــ كتاب في البلاغة والأدب (التحقيقات الاعجازية بشرح نظم العلاقات المجازية).

5 ـــ العقد الفريد في التجويد.

6 ـــ لمعان البيان في بيان أخذ الآخرة عن القرآن.

7 ـــ ثماني عشرة رسالة، في وقف العقار.

8 ـــ الفتح القيومي بجواب اسئلة الرومي، مجموعة فتاوي.

9 ـــ أشعار ونصوص أدبية، له.

10 ـــ ثبت الجزائري، حصر فيه شيوخه ومروياته.

11 ـــ مجموعة ما أجاز به غيره.

12 ـــ المقتطف من الحديث النبوي.

13 ـــ المنتقى، في الحديث الشريف أيضا.

14 ـــ رسالة في المرأة، عن الحجاب.

15 ـــ خاتمة في التوحيد.

16 ـــ شرح متن البركوي، وهو آخر عمل لم يكمله.

هذه القائمة تبرز المجال الخاص باهتمامات هذا المفكر الجزائري الذي «جاء في وقته، ففهمه البعض واستفادوا من فكرة وتجاربه وعلمه، و لم

يفهمه آخرون فرأوا فيه نشازا يقلق راحتهم، فسخطوا عليه، فكان مصيره النفي من بلاده أولا والعزل من وظيفته ثانيا»[1].

أورد (الأستاذ سعد آلله) هذه الملاحظة في التعقيب على ترجمة (عبد الحميد بك) الخاصة بابن العنابي، ليقول بعد ذلك في خاتمة مركزة دالّة: أنّ (ابن العنّابي) «عاش في لحظات حرجة من تاريخ الجزائر، وتاريخ المشرق الاسلامي، وهو النصف الأول من القرن الثالث عشر (19م) وها قد رأيناه يتنقّل بين أجزاء العالم الاسلامي (المريض) يحاول ايجاد الدّواء، كما يتنقل الطبيب بين مرضاه... فكان ينصح الحكّام فينتصح له البعض، ويشيح عنه آخرون، حتى إذا أدركهم الغرق (مثل حسين باشا) استنجدوا به وولّوه قيادة جيش مهزوم، وأعطوه سيفا مفلولا ليحارب به أقوى جيش في العالم عندئذ. ياللسخرية برجال الفكر والدّين وبمصائر الشعوب.

ترى مَن مِنَ العلماء المسلمين عندئذ جاهد بقلمه ولسانه وسيفه جهاد (ابن العنابي)؟ اننا لن نجيب على هذا السؤال، وحسبك أيها القارىء أن تستعرض أسماء المصلحين من علماء المسلمين لتعرف أنّ ادّعاءنا الرّيادة لابن العنابي ليس محض خيال»[2] فقد كان عالم دين مصلحا مستنيرا، ورجل سياسة ذا وعي بالحاضر والمستقبل، كما كان رجل فكر مهموما بحاضر أمته الاسلامية عموما ومستقبلها، كما شهدت على ذلك حياته التي رأينا جوانب مهمة منها، وتراثه الذي يأتي في مقدّمته كتابه «السّعي المحمود في نظام الجنود» الذي يعبّر عن وعي (ابن العنابي) بما كان يدبّره الغرب الصليبي الحاقد للعالم الاسلامي عموما، وللجزائر خصوصا.

هي نظرة عامة عن شخصية (محمد بن العنابي) وفكره ونضاله في التأليف والتدريس والسياسة، لابراز طبيعة اسهامه من بين أعلامنا

---

(1) حوليات جامعة الجزائر، ص: 47.
(2) المرجع السابق، ص: 55.

الذين أحبّوا وطنهم وأمّتهم، وكان العطاء بقدر ما سمحت به امكاناتهم ضمن ظروفهم الصعبة التي كثيرا ما اتّسمت بالعنت والقهر ممّا حال دون الاستفادة من كلّ امكاناتهم.

نماذج من إنتاج (ابن العنابي)

1 ـــ من مقدمة كتاب (السّعي المحمود):

«المقصود الأول في الأمور الحربية ونعني بها كل ما أنتج قوة محسوسة أو معقولة على دفاع الأعداء وارهابهم واغاظة نفوسهم وإتعابهم. فكل هذه المعاني أمور شرعية، لأن فيها إذلال الكفر وعزّ الاسلام وعلوّ كلمته، وأنه المقصود الأعظم من شرعية الجهاد باشارة قوله تعالى **﴿وجعل كلمة الذين كفروا السّفلى وكلمة آلله هي العليا﴾**، وقوله ﷺ فيما روى البخاري ومسلم عن أبي موسى رضي آلله عنه: «من قاتل لتكون كلمة آلله هي العليا فهو في سبيل آلله» فكل ما يفيد منفعة لها تعلّق باعزاز الدّين ورفعة شأنه ممّا اشتمل عليه النظام المستجدّ للفكرة من ترتيب العساكر وتصنيفهم وحصر أعدادهم وتعديد قواتهم وعرفائهم، وتسويم أصنافهم وكبرائهم بخصوص لباس أو علامة، وتضييق ملابسهم وتقصيرها وتعيين مواقفهم وعملهم، وتخصيص كل فريق براية أو لواء، ثمّ تدريبهم على عمل الحرب بتعليم كيفية الرّمى والطّعن والضّرب وغير ذلك مما يقتضيه أمر الحرب من تصفيف واغارة واجتماع وافتراق واقدام واحجام وكرّ وفرّ، وركوب ونزول وظهور وكمون، وتحريض وتثبيت ورفع صوت وخفضه، وردّ منهزم وحراسة، وغير ذلك مما قد تدعو اليه الحاجة، فهو أمر مشروع بالنظر لأصله لما ذكرناه، ولا ندرجه في عموم قوله تعالى واعدّوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدّو آلله وعدوّكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم آلله يعلمهم على ما نبّينه».

2 ـــ عن اجازة من (ابن العنابي) لمحمد بيرم الرابع:

«أما بعد، يقول الفقير الى آلله سبحانه محمد بن محمود بن محمد بن حسين الجزائري الحنفي الشهير بابن العنابي، غفر آلله ذنوبه، وستر عيوبه، انه وقعت لي رواية صحيح البخاري من طرق عديدة، لكن طريق سماعي وقراءتي انما هي على والدى...

أمّا سندي في الفقه فانّي تِلقيته عن والدي وهو عن والده محمد بن حسين...

وقد أجزت بهذا وبكلّ ما أجازني به مشائخي، الشاب الفاضل اللّوذعي الكامل أبا عبد آلله محمد بن شيخ الاسلام محمد الشهير بيرم حفظه آلله اجازة عامة، بشرطها المعلوم لأهله. وأوصية وايّادي بتقوى آلله العظيم في السرّ والعلن، والاخلاص فيما ظهر وبطن، وأن يعاملني بصالح دعوته في أوقات مناجاته، ونسأله سبحانه وتعالى أن يختم لنا بخير ويجعل عواقب أمورنا الى خير، انه برّ كريم جواد رحيم، ﷺ على سيدنا محمد وآله».

3 ـــ من شعره في تحية آل بيرم بتونس:

بني بيرم زان البسيطة ذكرهم ... فمـالهم في المشرقين نـظير
هم أحرزوا فضل المعارف والتّقى ... ولا سيما صدر إليـه أشير
جميل المحيّا زاهر الوجه حجّة ... يبين الهدى للمهتدي ويـنير
فبلّغهم أسنى السلام وخصّه ... فانّي على نهج الـوداد أسير(*)

(*) النّماذج الثلاثة عن (المفتي الجزائري: ابن العنابي) لسعد آلله، ص: 109 ـــ 110، ثم 115 ـــ 117، ثم: 123.

المصادر والمراجع

(1) المفتي ابن العنّابي الجزائري: رائد التجديد الأسلامي، الدكتور أبو القاسم سعد آلله، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1977م.
(2) المرآة (لمحة تاريخية واحصائية على ايالة الجزائر) حمدان بن عثمان خوجة الجزائري، ترجمة: الدكتور محمد بن عبد الكريم، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت (لبنان) 1972م.
(3) مذكّرات الحاج أحمد الشريف الزّهار، سلسلة ذخائر المغرب العربي، تحقيق أحمد توفيق المدني، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1980م.
(4) حوليات جامعة الجزائر، رقم 1، سنة 1986 ــ 1987م ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر 1987م.

قدور بن رويله

(1272 هـ ـــ 1855م)

قدور بن رويله

(ت: 1272هـ ــ 1855م)

في الجزائر العاصمة التي كانت تزخر بالعلماء ودور الثقافة قبل الاحتلال الفرنسي للجزائر في 1830م، ولد (قدّور بن محمد بن رويلة) حيث كان أبوه (محمد) قيّما على ضريح الشيخ (عبد الرحمن الثعالبي). نشأ في العاصمة الجزائرية في محيط ثقافي نشيط بمساجده ومعاهده وزواياه، وقد برز في ذلك علماء الدّين بشكل مؤثّر[1] رغم تنوّع الاهتمامات الأخرى لبعضهم، وقد تلقّى معارفه العلمية على بعض من علماء عصره من أمثال (حمودة الجزائري المعروف بالمقايسي)[2] كما مارس بدوره التعليم، فكان ممّن درسوا عنه (أحمد الشريف الزهار) (1196هـ ــ 1289) (1781م ــ 1872).

وقد دفعته عقيدته لمقاومة الاحتلال ورفض السكون تحت حكمه، لذا فرّ بعد سقوط العاصمة الى خارجها لمواصلة المقاومة والكفاح، كما فعل كثير من علماء المدينة ورجالها الفارّين والمنفيين من أمثال تلميذه (الحاج

---

(1) أنظر، مثلا: صفحات في تاريخ مدينة الجزائر من أقدم عصورها الى انتهاء العهد التركي، نورالدين عبدالقادر، نشر كلية الآداب الجزائرية، رقم 2، مطبعة البعث (قسنطينة ــ الجزائر) 1965م.

(2) معجم أعلام الجزائر، عادل نويهض، ص: 132 منشورات المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت (لبنان) 1971م.

أحمد الشريف الزهار) نفسه وقد التحقا كلاهما في النهاية (بالأمير عبدالقادر) قائد المقاومة في غرب الوطن[1].

التحق (قدور بن رويلة) أولا بخليفة (الأمير عبدالقادر) على (مليانة) وعمل كاتبا له، ثم تولّى الكتابة للأمير (عبدالقادر) الذي اتّخذه مستشارا له حتى سنة (1259هـ ــ 1843م) حين وقع أسيرا في يد (الدرق دومال) بن ملك فرنسا في معركة (طاقين) بالجنوب الجزائري، عند مهاجمة عاصمة الأمير المتنقلة (الزمالة) ففي الوقت الذي كان (الأمير عبد القادر) في مواجهة عسكرية ضارية مع الجنرال (لامور يسيير) في (تاقدامت) و (سرسو) كان (الدوق دومال) يترصّد (الزمالة) في الجنوب، لأنه علم «أن قوة الأمير المالية قد جعلها فيها[2]» فجنّد لذلك العملاء والخونة من بينهم «المتنصّر عمر العيادي» من أجل الفت في ساعد المقاومة والنيل من معنويات قائدها (الأمير عبدالقادر) نفسه. فكانت (الزمالة) هدفا للملاحقة حين نزلت في (طاقين) وقتئذ «في نهار السادس عشر من ربيع الثاني، سنة تسع وخمسين ومئتين وألف 1259 والخامس من مايو (أيار) سنة ثلاث وأربعين وثمانمئة وألف 1843 صبّحها فاكتسحها واستفّ ما فيها، و لم يكن ــ وقتئذ من حاميتها سوى خمس مئة جندى... وقد اغترّوا بالمكيدة العظيمة التي أجراها ابن الملك باشارة عم العيادي، المرتدّ»[3] وكان ثمن المباغتة ــ على المقاومة ــ

---

(1) أنظر الظروف الخاصة بالتحاق الزهار بالمقاومة الجزائرية تحت لواء (أحمد باي) في (قسنطينة) ثم (بالأمير عبدالقادر) بعد سقوطها في (1837) في كتاب الشيخ: أحمد توفيق المدني: (مذكرات الحاج أحمد الشريف الزّهار نقيب أشراف الجزائر) الشركة الوطنية للنشر والتوزيع. طبعة 2، الجزائر، 1980م.

(2) تحفة الزائر في تاريخ الجزائر والأمير عبدالقادر، الأمير محمد بن عبدالقادر الجزائري، ط: 2. ج1، ص: 428، دار اليقظة العربية، لبنان (1384 ــ 1964).

(3) المرجع السابق، نفس الصفحة.

باهضا جدا في النهب والتشتيت والأسر وغيرها[1]، وممّن أسروا السيد (محمد بن علال) والسيد (محمد الخرّوبي) والسيد (قدور بن رويلة). و م يعد الاتصال بين (الأمير عبدالقادر) و (قدور بن رويلة) الاّ حين أطلق سراح هذا الأخير مبعدا الى المدينة المنورة، هنا تجدّد الاتصال بين الرجلين، وان كنا نجهل السبل التي سلكتها تلك الاتصالات، فان الشعر المتبادل بين (الأمير عبدالقادر) و (قدور بن رويلة) يبرز قدسية الجهاد واعتباره أولى العبادات عند (الأمير عبدالقادر) حين أصابه في معركة ضابط فرنسي برصاصة في أذنه فكان هدفا لسيف الأمير كما يبرز شوق (ابن رويلة) الى (الأمير) وتوقه الى الجهاد في مقارعة الأعداء، ففي مقطوعة لأبن المبارك المروزي أرسلها الأمير (لابن رويلة) في ذيل رسالة له نقرا:

يا عابد الحرمين! لو أبصرتنا	لعلمت انّك في العبادة تلعب
من كان يخضب خدّه بدموعه	فنحورنا بدمائنا تتخضّب
أو كان يتعب خيله في باطل	فخيولنا يوم الصبيحة تتعب
ريح العبير لكم، ونحن عبيرنا	رهج السنابك والغبار الأطيب[2]

---

(1) في كتاب (حياة الأمير عبدالقادر) لـ (شارل هنري تشرشل) ورد وصف لذلك منه: «وصل فرسان دومال الزمالة، وانتشروا وجاسوا خلال ذلك البحر من الخيام، وبسرعة شرّدوا أهلها الحيارى الخائفين، شيوخا وأطفالا ونساء. وأطلق الحرس الذي كان تعداده: 500 جندي نظامي فقط النار دفعة واحدة وفرّ. وحاول فريق من بني هاشم بشجاعة وقف التيار لكنّ الفرنسيين اكتسحوهم. وكان النصر حليف الفرنسيين في أقل من ساعة.

ان مناظر الفوضى واليأس التي جرت خلال تلك الفترة القصيرة ــ كالمحاولات الجنونية للهروب، ويأس المقاوم وبؤس المتروك، وهرج ومرج عدد ضخم من الابل والخيول والبغال والثيران والأغنام، وهي تقفز هنا وهناك كأنها أمواج بحر هائج ــ قد خلّدها الفنان العبقري هوارس فيرني Horace Vernet، ان فن الرسام وحده هو الذي يستطيع أن ينصف ذلك المنظر الهائج الذي ليس له مثال، والذي لا يمكن تقريبا تصوّره» (ص: 213) تـ :سعد آلله. الدار التونسية للنشر ــ الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1974م.

(2) ديوان الأمير عبدالقادر الجزائري، ص: 96، ط 2، المطبعة التعاونية اللبنانية، 1964م.

وفي نفس (ابن رويله) حسرة وتحفز وحنين عكس ذلك قوله يخاطب (الأمير):

بأبي وأمي افتديك من الرّدى وبأحمد وبأخته أتقرّب
واحسرتي! واضيعتي! واخيبتي ان لم أكن بفداكم أتلقّب
وحياتكم، فلأنني بفراقكم لعلى لظى، وحجارها أتقلّب
هل من قطا ـــ يوما ـــ يعير جناحه صبّا، غدا بفراقكم يتعذّب
حتى أراني في حماكم واهبا روحي فداكم، في رضاكم أرغب(1)

لكنّ (الأمير) لم يفته أن يهنّيء كاتبه السابق بخروجه من الأسر، ووجوده في البقاع المقدّسة:

قد طاب في (طيبة) الغرّامقامكم جوار مَحْبُوبنا، من كنت ترقبه

وعندما أفرج عن (الأمير عبدالقادر) ووصل الأستانة (1269هـ ـــ 1853م) أقبل عليه بعض من ولاّته القدامي، وكتّابه، كان من بينهم (قدور بن رويلة) الذي قصده في (بروسة) حين حلّ بها، وأقام الى جانبه، ثم رافقه في رحلة الانتقال يوم 5 ربيع الثاني سنة 1272 من (بروسة) الى (دمشق) للاقامة فيها، غير أن (قدور بن رويلة) لقي ربه في الطريق حين كانوا في بيروت (لبنان) (1272هـ).

ان شخصية (قدور بن رويلة) السياسية ـــ العسكرية ارتبطت الى حدّ بعيد بشخصيته الفكرية، فهو شاعر كما هو كاتب (للأمير عبدالقادر) مجاهد في الدفاع عن وطنه، يدعو الى رفض التعايش مع الاحتلال أوتحت حكمه، رائده في ذلك كلّه عقيدته الدينية وقيمها العليا، فعلى مدارها يكون التآزر أو التنافر، قال مخاطبا (مصطفى بن الكبابطي): «حضرة الفقيه السيد

---

(1) المصدر السابق، ص: 97.

مصطفى بن الكبابطي مفتي الجزائر في زمان استيلاء الكفّار عليها ــ ردّها آلله للاسلام ــ السلام عليكم ورحمة آلله.

وبعد: فانّا تحابينا في آلله، اجتمعنا عليه، وافترقنا عليه»[1] وهو ذو ثقافة دينية تنحو نحوا أدبيا تاريخيا اصلاحيا كأرضية واضحة في حسّه السياسي الذي حدّد موقفه العدائي من الاحتلال الأوروبي، وجعله يتشوّف الى واقع ينهض فيه الانسان الجزائري خاصة والعربي والمسلم عامة من التخلف والتبعية للأجنبي.

ولعلّ أهمّ آثار (قدور بن رويلة) هي أشعاره في مدح (الأمير عبدالقدار) ورسالته التشريعية المعنونة بـ«وشاح الكتائب وزينة الجيش المحمّي الغالب»[2] وهي عبارة عن (قانون عسكري) مستوحى من الشريعة الاسلامية، ينظّم المراتب في الجيش الجزائري تحت قيادة (الأمير عبدالقادر) ويحدّد المسؤوليات، ويوضّح العقوبات والمكافآت، كما يعيّن الأجور والعدّة والعتاد، الى آخره ما هنالك من بنود.

وقد سنّه (الأمير عبدالقادر) وحرّره (ابن رويولة)[3].

وكتب (ابن رويلة) تمهيدا لهذا القانون الذي يشتمل على مقدمة من ثماني مسائل وأربع وعشرين مادة وحكم شرعيّ يحدّد بعض الأحكام،

---

(1) وشاح الكتائب وزينة الجيش المحمّدي الغالب، قدور بن رويلة، تقديم وتحقيق الأستاذ محمد بن عبدالكريم، ص: 19، سلسلة ذخائر المغرب العربي، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع. الجزائر، 1968م.

(2) أنظر مادةهذا الكتاب أيضا في كتاب (تحفة الزائر) ج: 1، ابتداء من صفحة: 191.

(3) نلاحظ بعض الاختلافات في مواد هذا القانون ترتيبا وتعبيرا بين النص كما هو منشور في (تحفة الزائر) وفي النص الصادر عن الشركة الوطنية للنشر والتوزيع. بتحقيق الأستاذ محمد بن عبدالكريم.

وخاتمة خصّ بها (قدور بن رويلة) صفات (الأمير عبدالقادر) في سياق هذا القانون «ولا يدخل بطنه الشريف ولابيته الطاهر المنيف شيء من متاع بيت المال»[1] لاعتباره القدوة والمثل في العفة عن أموال الدولة والانضباط في العمل.

---

(1) وشاح الكتائب، ص : 74.

نماذج من انتاج (قدور بن رويلة)

1 ـــ التمهيد الذي كتبه (ابن رويلة) في أول كتابه (وشاح الكتائب)(*):

«حمدا لمن أعزّ كلمة نبيّه سيدنا (محمد) ــ ﷺ ــ وأعلاها، ومكّن شريعته على أساس التقوى وبناها، وصلاة وسلاما على النبي الملاحم الثابت في المبادىء التي تفرّ دونها الابطال، المؤسس ترتيب الصفوف، وكأنها الموج المتلاطم وكان يتقي به أكابر أصحابه من العوالي والنبل رضي ٱلله عنهم وأرضاهم وجعلنا ممن اقتدى بهم ووالاهم. وبعد.

فإنه لما كان للجيش قوانين تخصه وعلامات تكفه وتخصه، وكان من ولاّه ٱلله أمر عبيده، وجعله ٱلله نصرة لدينه مولانا أمير المؤمنين، ناصر الملّة والدين سيدنا الحاج (عبدالقادر) ــ نصره ٱلله ــ عارفا بتلك القوانين واختراعها وأسسها بأتمّ تبين وابتداعها، جعل ــ نصره ٱلله ــ لكل من عسكره المحمّدي وجيشه الأحمدي قوانين تخصه على حسب تفاوتهم في المراتب، وسبقهم للمزايا والمناقب، وأمر ــ نصره ٱلله ــ بكتابتها على وجه مخصوص فجاءت ــ بحمد ٱلله ــ مطرّزة بيواقيت كلامه جواهر وفصوصا، مقتبسة من ضياء فكره السليم منبسطة من نبراس علمه المحكوم القويم، أدام ٱلله دوامه للاسلام وجعله قذى في عيون أعدائه بالنبي محمد عليه وعلى آله الصلاة والسلام. وسمّيتها «وشاح الكتائب وزينة الجيش المحمّدي الغالب» ورتبتها على مقدمة وأربعة وعشرين قانونا، وحكم شرعي وخاتمة»(**).

(*) آثرت الاعتماد هنا (النماذج) على تحقيق الأستاذ محمد بن عبدالكريم، ولا أنقل الحواشي.
(**) وشاح الكتائب، ص: 37 ــ 39.

2 ــ جزء من (خاتمة) الوشاح:

«أذكر فيها بعض خصال أمير المؤمنين سيدنا الحاج عبدالقادر ــ نصره آللہ ــ ليقتدى به في أقواله وأفعاله الأحمدية، ويهتدي بسيرته المحمدية، ويرتاض بأخلاقه العمرية ويتخلق باقداماته العلوية، وماذا عسى أن يكون وفضائله تتلى وأنّى لي أن أحصي محسانه وهي لا تستقصى؟

....

وأعدّ للكفّار ما استطاع من القوة، وأجهد في اصلاح الأمة المحمدية غاية الجهد، وأنفق نفيس عمره في ذلك بلا حدّ، وقاتل في سبيل آللہ

....

ومع هذه السطوة العظيمة فإنه ــ نصره آللہ ــ في غاية الزهد والورع والعفاف والصيام، والقيام، والتواضع لله، ولعباده: الشريف والوضيع، فمن تعففه ــ نصره آللہ ــ أن لا يدخل بطنه الشريف ولا بيته الطاهر المنيف شيء من متاع بيت المال، قلّ أو جلّ، ومن هذه أن الهدية التي يخص بها فلا يعبأ بها، وانما يصرفها في مصارفها ببيت المال، ومن ورعه ــ نصره آللہ ــ أنه لا يأكل ولا يشرب ولا يلبس الا ما خلص من الشبه، ومن عدله أنه إذا جلس ــ نصره آللہ ــ لفصل الخصومات يخفض جناحه وينصت للشاكي وهو مبسوط الوجه، ويؤنس وحشة الشاكي، إذا دهش من جلاله، ويحكم له أو عليه بالنصّ ولو كان قريبه، فلا يغضب، ولا يحبّ ولا يكره الا لله»(٥).

3 ــ «ومما قلت(٥٥) فيه [الأمير عبدالقادر] ــ نصره آللہ ــ متغزّلا:

حين ختم «أمّ البراهين» (السنوسية) بالمدية وحضره جهابذة علماء غرّيس ولم ينكروا عليه تأدية ولا فهما ولا تفهيما وكان لذلك اليوم مهرجان عظيم، قلت ــ (خفيف):

---

(٥) وشاح الكتائب، ص: 72 ــ 75.

(٥٥) وشاح، ص: 87 ــ 92، انتقيت أبياتا متجاوزا أخرى، ارتباطا بما يمكن أن يدلّ على الفكرة والموقف ويشي بالصورة.

أشموس الضّحى تجلّت بسعد وأيام المنى بسعد الطلـوع
وثغور الأقاح بالزهر تبـدو بـــاسمات ببـــارق ولموع
وعيون البنفسج الغضّ ترنو ساهرات فلا تذوق طعم هجوع
وذيـول المنـى تجرّ فخـــارا وعمـوم الهنـا لكـل البقـاع
وأسود غرّيس في الدرس جمع فأقـــرّوا لها بـــغير نـــزاع
أم شموس الهدى بقلب تجلّت بشعاع السنوسي أي شعاع
سيدي عبدالقادر البدر تاج ولواء يهدى بـه كل ساع
ان تصدّر في العلوم همام أو توجّه للحروب شجـاع
أبق ربّي أميرنـا في عيـاذ واكف ربّي أميرنا كل روع

مصادر ومراجع

(1) تحفة الزائر في تاريخ الجزائر والأمير عبدالقادر، الأمير محمد بن عبدالقادر الجزائري، ط: 2، دار اليقضة العربية، لبنان، 1384 ـ 1964م.

(2) حياة الأمير عبدالقادر، شارل هنري تشرشل، ترجمة: الدكتور أبو القاسم سعد الله. الدار التونسية للنشر ـ الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ـ الجزائر، 1974م.

(3) ديوان الأمير عبدالقادر الجزائري، ط: 2، المطبعة التعاونية البنانية، 1964م.

(4) معجم أعلام الجزائر، عادل نويهض، منشورات المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت (لبنان) 1971م.

(5) مذكرات الحاج أحمد الشريف الزهار نقيب أشراف الجزائر، ط: 2 الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1980م.

(6) صفحات في تاريخ مدينة الجزائر من أقدم عصورها الى انتهاء العهد التركي، نور الدين عبدالقادر، نشر كلية الآداب الجزائرية، رقم: 2، مطبعة البعث (قسنطينة ـ الجزائر) 1965م.

(7) وشاح الكتائب وزينة الجيش المحمدي الغالب، قدور بن رويلة، تقديم وتحقيق: محمد ابن عبدالكريم، سلسلة (ذخائر المغرب العربي) الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر. 1968م.

الشاذلي القسنطيني

1807 — 1877

الشاذلي القسنطيني

(1807 — 1877

عاش الشّاذلي آخر أيام العهد العثماني في الجزائر، وشهد سقوط الجزائر في 5 جويلية (يوليو) 1830 تحت الاحتلال الفرنسي، كما عاش الظروف الصعبة التي قاوم فيها أبناء (قسنطينة) حتى سقطت مدينتهم سنة 1837 في أيدي المحتلّين الفرنسيين، كما عاش ظروف التدمير والاضطهاد ونهب الممتلكات ومصادرة الأراضي بما فيها أرضه هو نفسه في (سطيف) فشهد بذلك ما لحق الوطن من هزّات كثيرة، منها الهزّات النفسية التي تعرّض لها الأفراد والجماعات مما انعكس عليه هو نفسه، لما اعتراه من اضطراب في المواقف والقيم، وضيق بالحياة، موزّع العاطفة والفكر في ظروف مختلفة في الجزائر وخارجها.

انتقلت أسرة (الشاذلي) في ظروف صعبة من منطقة (طولقة) إلى (قسنطينة) قبل الاحتلال الفرنسي، حيث ولد (محمد بن الحاج محمد بن ابراهيم بن أحمد) سنة (1222هـ — 1807م) وصار يعرف باسم (محمد الشّاذلي القسنطيني).

نشأ (الشاذلي) في (قسنطينة) التي كانت بيئة علم وثقافة بفضل المساجد والمكتبات والزوايا التي كانت «تكاد تنافس الجامع الزيتوني بتونس أو جامع القرويّين بفاس من حيث مقدرة الأساتذة ومستوى التلامذة»[1]

---

(1) النهضة العربية بالجزائر، في النصف الأول من القرن الرابع عشر للهجري، ص: 38، سعد الدين بن أبي شنب، مجلة كلية الآداب، جامعة الجزائر، عدد: 1، السنة الأولى، 1964م.

كما يقول (سعد الدين بن أبي شنب رحمه آلله) «ناهيك ببلد شهد عصر صالح باي (1171 ـــ 1792) الذي وفّر الاستقرار وشجّع العلماء»[1] كما يؤكد الدكتور سعد آلله، وهو الذي أسّس المدرسة (الكتّانية) سنة (1193هـ ـــ 1779م) التي نالت شهرة كبيرة، فرمّمتها إدارة الاحتلال الفرنسي، واعتبرتها مدرسة حكومية سنة 1850م لاعداد اطارات للادارة الفرنسية في القضاء الاسلامي والترجمة «وتدريس بعض العلوم العربية للمتخصّصين في اللغة العربية والدراسات الاسلامية».

في هذه المدينة تلقّى (الشاذلي) المعارف العلمية التي كانت معروفة في عصره أساسها: العلوم الفقهية واللغوية والأدبية على أشهر علماء المدينة[2]، فتمكّنت من نفسه ميول المثقّف الطُّلَعة وموهبة الأديب الشاعر «كثير الاطلاع، حاد الفكر قويّ العارضة، له أشعار رقيقة»[3].

وحين اشتدّت هجومات الاحتلال على قسنطينة سنة 1836 حتى سقطت في 1887م فرّ (الشاذلي) الى منطقة (وادي الذهب) قرب (سطيف) التي لم تسقط بعد في أيدي المحتلّين، ومن هناك تاق الى لقاء (الأمير عبدالقادر) فكتب اليه قصيدته لنجدة (قسنطينة) قائلا فيها:

أيا ذاهبا نحو الخليفة بلّغن سلاما يفوق الندى عرفا يجدّد
وبلّغ له شكوى قسنطينة بها يسوء ذوي الأحلام وآلله يشهد

---

(1) القاضي الأديب: الشاذلي القسنطيني، د. أبو القاسم سعد آلله، ص: 32، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1985.

(2) أنظر:

ـــ تعريف الخلف برجال السلف، أبوالقاسم الحفناوي، ج: 2، ص: 394.

ـــ النهضة العربية بالجزائر، سعد الدين بن أبي شنب، ص: 36.

ـــ القاضي الأديب، الشاذلي القسنطيني، سعد آلله، ص: 33.

(3) تعريف الخلف برجال السلف، أبو القاسم الحفناوي، ج: 2، ص: 394. مؤسسة الرسالة ـــ المكتبة العتيقة، ط 2، تونس، (1405هـ ـــ 1985م).

لكن الظروف الشخصية والعامة انتهت (بالشاذلي) أخيرا الى القبول بالأمر الواقع تحت نير الاحتلال، حيث بادر في 1843م الى طلب وظيفة حكومية من حاكم اقليم قسنطينة يومئذ (الدوق دومال) بن ملك فرنسا، فسعى له في ذلك مسؤول المكتب العربي في قسنطينة الضابط (بواسوني BOISSONNET) وتمّ تعيينه في منصب القضاء المالكي في قسنطينة.

بهذا أصبح (الشاذلي) من موظفي الدولة، والأعيان في المجتمع، فكان ضمن الوفد الذي سافر الى (فرنسا) خريف 1844 برعاية فرنسا في اطار الاشتهار لحضارتها وقوّتها، كما ذهب في رحلة ثانية سنة 1847 حيث التقي في (باريس) (بواسوني) الذي انتقل الى (أمبواز Amboise) قائما على شؤون (الأمير عبدالقادر) فرافقه للاستقبالات والحفلات كما أصطحبه في زيارة لأكاديميةالفنون والآداب.

كما زار (الشاذلي) في هذه الفترة (بلجيكا) و (انكلترا) وان لم تختلف (بلجيكا) عن (فرنسا) كما رأى فان الانطباع كان سلبيا بالنسبة (لأنكلترا) ممّا استغلّته الصحافة الفرنسية عندئذ للتأثير على الجزائريين، لكون (الشاذلي)، لم يجد في (انكلترا) ما وجد في فرنسا «الكرم الذي ينسجم مع الحياة الشرقية... والأصدقاء الذين يعترفون بفضله ومواهبه... واللّطف والرشاقة في مدينة باريس»[1].

وعلى أثر رجوع (الشاذلي) الى (قسنطينة) شرع في مراسلة (بواسوني) عملا للرجوع الى (باريس) لذا وقع الاختيار عليه حين جرى التفكير في واحد من علماء (الجزائر) يصلح لمؤانسة (الأمير عبدالقادر) الذي اشتدّ استياؤه من الأسر في قصر (أمبواز) وسخطه على الغدر الفرنسي، فسافر الى (باريس) في مطلع خريف 1849 ثم «دخل بأمبواز، فلما

---

(1) القاضي الأديب: الشاذلي القسنطيني، د. سعدالله، ص: 44.

وصلها أكرم الأمير وفادته وأجزل حرمته، نظرا لعلمه، فأنتج حسن السلوك بينهما مودّة استحكمت نواحيها وشدّت أو اخيها»[1].

وقد رحّب الأمير (بالشاذلي) في قصيدة قالْ فيها:

أهلا وسهلا بالحبيب القـادم هذا النّهار ــ لدىَّ ــ خير مواسم
طالت مساءلتي الركاب تشوّقا لجمال رؤية وجهك المتعاظـم
كانت على سمعي تغار نوا ظري حتـى رأتك، أنت، مكـالمي[2]

وكان ردّ (الشاذلي) بقصيدة عسكت تقديره واجلاله للأمير، كما عكست أشياء أخرى، منها ما يشي بأنه كان يطمح الى لقائه وهو يحارب الاستعمار، ومنها ما يعبّر عن سعادته باللقاء، بعد شوق رغم تأثره بوضع (الأمير) في حالة أسر، يقول (الشاذلي):

سلام عليكم طال شوقي اليكم وقلبي سواكم في البرية ما أحبّ
أتيتكم عبدا لقصد زيـارة لعلّى أؤدّى ما عليّ لقد وجب
وكان مرادي أن ألا قيكم على بساط عزيز والحرب في نشب
وما كان في ظنّي أرى سيدي كما رأيت، ألا لله ما تصنع النوب[3]

وفي هذه الفترة كان (الشاذلي): «محلّ فضول أعيان الفرنسيين الذين كانوا يوجهون اليه الدعوات لزيارتهم بواسطة بواسوني» ورغم

---

(1) تحفة الزائر، في تاريخ الجزائر والأمير عبدالقادر، الأمير محمد بن عبدالقادر الجزائري، ج: 2، ص: 531، دار اليقظة العربية، ط :2، لبنان، بيروت (1384 هـ ــ 1964).
(2) ديوان الأمير عبدالقادر الجزائري، ص: 98 ــ 99، المطبعة التعاونية اللبنانية، ط 3، 1964:
ــ تحفة الزائر، ج: 2، ص: 533.
ــ القاضي الأديب، ص: 118.
لاحظ الاختلاف في بعض الكلمات بين هذه المصادر الثلاث.
(3) ديوان الأمير عبدالقادر، ص: 100.
ــ تحفة الزائر، ص: 533.
ــ القاضي الأديب، ص: 119.

اغتباطه بمحيطه الجديد مع (الأمير) بعض الوقت ومع الفرنسيين أو متجولا في (باريس) في أوقات أخرى، فقد كان عرضة لتجارب مختلفة، منها تجربة عاطفية مع فتاة فرنسية في السّابعة عشرة من عمرها، رغب في اتّخاذها زوجة أخرى تخفّف عنه في (باريس) فوجد عندها الرضى للزواج به أمام (الأمير عبدالقادر) لكنه لقي معارضة شديدة لمشروعه من أصدقائه الفرنسيين خوفا على مكانته بين مواطنيه (في الجزائر) من نسب الفتاة المجهول، وهكذا أجهض المشروع لكنّ التجربة العاطفية أثرت في (الشاذلي) فعكسها شعره العاطفي بوضوح تامّ، كما أسهمت هذه التجربة نفسها في الطلاوة والرقة التي طبعت شعره في هذا الموضوع. وان انتهت التجربة العاطفية بسلام على مستوى العلاقة المادية، فانّ آثارها النفسية بقيت ماثلة في أكثر من موضع، في سلوك (الشاذلي) وفي (شعره) هو القائل في ردّ الفعل لنظرة مؤثّرة أو حركة ساحرة:

ياسرّ الروح وذا الوجه الحسن أذهبت عنّي النوم حتى الوسن
فثغرك الدّرّ وخدّاك لظى ولحظك الرمح لقلبي طعن
وقدّك البان وأنت الذي حسن كل الخلق فيك سكن[1]

بقي أثر التجربة العاطفية في نفس (الشاذلي) ربما حتى بعد عودته الى قسنطينة في أوائل صيف 1850، وهو الفراق الذي كان التأثّر فيه مشتركا أيضا بينه وبين (الأمير عبدالقادر) وقد: «نعق في أفقيهما غراب البين، وعاد ما كانا عليه أثرا بعد عين»[2] وقد سجّل (الأمير عبدالقادر) نفسه احساسه تجاه (الشاذلي) في تلك الفترة بقول: «كان لنا خير أنيس وأحسن جليس، نفّس من همومنا بلطائفه وطرائفه مالا تنفّسه الصّبا وأجلى من أحزاننا مالا تجليه الصهباء»[3].

---

(1) القاضي الأديب، ص: 140.
(2) تحفة الزائر، ص: 532.
(3) المصدر السابق، الصفحة نفسها.

لقد عاد (الشاذلي) الى (قسنطينة) فأسندت اليه ادارة المدرسة الكتّانية التي دشّنها الفرنسيون سنة 1850 بعد ترميمها، غير أن (الشاذلي) لم يلبث حتى تاقت نفسه الى العودة الى (فرنسا) مصحوبة بالرغبة الشديدة في الخروج من قسنطينة الى فرنسا أو الى الشرق العربي للحجّ رفقة (الأمير عبدالقادر) الذي كانت فرنسا تستعدّ للافراج عنه سنة 1852 أو بمفرده، لكن محاولات (الشاذلي) انتهت الى فشل، للرفض الفرنسي الذي لم يلبث حتى ضاعف الاحساس به في نفس الشاذلي مصادرة الفرنسيين لأراضيه في (وادي الذهب) بسطيف، زيادة على الممارسات القمعية التي انتهجها الاحتلال في المنطقة خاصة وفي الوطن عامة، لذا لاذ (الشّاذلي القسنطيني) بالصّمت كضرب من الاحتجاج، في منصبه بادارة المدرسة (الكتانية) حتى وفاته سنة 1877م و لم يلق (الأمير عبدالقادر) مرّة ثانية، و لم يزر (باريس) ولا حجّ كما كان يريد.

و (الشاذلي) خلال حياته، لم يمنعه منصبه في القضاء أو نشاطه في غيره من كتابة الشعر في عدة أغراض، بما فيها الأغراض السياسية والعاطفية، كما ترك رسائل عديدة في أمور مختلفة ذات طابع شخصي عموما[1].

وإذا كان احساس (الشاذلي) في شعره السياسي الخاص بمدح رجال من ضباط الاحتلال ألصق بالنفاق السياسي والاجتماعي والفكري الممقوت فانه في إخوانياته خاصة مع (الأمير عبدالقادر) شديد الصدق في مودته، كما هو شديد الصدق في عواطفه المشبوبة نحو المرأة.

الصدق نلمسه أيضا في التعبير عن أمور عامة كالحديث عن الوضع الذي كانت عليه (قسنطينه) في أيام عزّها قبل الاحتلال، وما آل اليه ذلك الوضع تحت الاحتلال من تخلّف وجهل ترتّب بعضه عن هجرة العلماء

(1) وهو ما تقصاه الدكتور أبو القاسم سعد ٱلله، في كتابه عن الشاذلي القسنطيني.

أو موتهم أ انزوائهم، كما اهتزت القيم التي عبثت بها سياسة المحتل، وهو ما تصوره قصيدته عن (قسنطينة) التي قالها في حدود 1846 ــ 1847 متشوفا لبديل عن واقع متردّ على المستوى الشخصي والوطني بدون شك.

ومهما يكن من شيء فان شخصية (الشاذلي) تتعدّد جوانبها، ومهما كانت مواقفه من الاحتلال فان اسهامه يبدو واضحا في الابقاء على الحرف العربي وضّاء في هذا الوطن، لذا فان عطاءه للجزائر لم يكن «في الوظائف التي تقلّدها.... بل في أدبه وتدريسه وتخريجه أفواجا من التلاميذ في الأدب العربي في وقت كان فيه هذا الأدب يشوّه أفظع تشويه[1]» وكان من بين المتخرجين عنه أساتذة (لابن باديس) نفسه الذي قال بدوره بعد ذلك «شغلني تأليف الرجال عن تأليف الكتب».

(1) القاضي الأديب، ص: 13.

نماذج من إنتاج (الشاذلي القسنطيني)

1 — رسالة(٭) من (الشاذلي) الى بواسوني (Boissonnet) وهو في (باريس) سنة 1850 متنقّلا بينها وبين (أمبواز Amboise) مع ملاحظة لشيوع التعبير العامي في الرسالة:

الحمد لله، ولا حول، ولا قوّة الا بالله.

وعلى الحبيب الأديب الأقرب النا من كل قريب، صفينا وخالص ودّنا السيد القبطان بواسني صانه آلله ورعاه، ومن كل بلاء حماه، آمين، السلام ولطائف التحيات والاكرام يعمكم ومن شملته حضرتكم.

وبعد فان كلّ يوم أذهب الى محبّ الجميع السيد اسماعيل(٭٭) وأسأله الرجوع اليكم وهو يقول لي: ترجع ولكن حين يدفع لك الوزير المصروف في مجيئك الى الكومسيون، والاذن لم يخرج، ونخبرك أيها الحبيب أن أمر المدرسة(٭٭٭) جاء من الجزائر والسيد اسماعيل قال لي: الرّاتب قليل وذلك أربعون دوريا في كلّ شهر، وأما مدخول دار القاضيَ أكثر من هذا، وتحيّرت في ذلك، فالمطلوب منكم أن تشيروا علينا بذلك.

وإذا أمكنكم أن ترسلوا لي كواغط الدراهم تجعلها مثل البرية وترسلها الي.

كتبها محبّكم الشاذلي في 12 مارس 1850م

(٭) انظر: القاضي الأديب الشاذلي القسنطيني، ص: 97 — 98، سعد آلله، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1985.

(٭٭) اسماعيل عربان، مستعرب اعتنق الاسلام، وتزوج مصرية، مترجم في الادارة الفرنسية وذو دور متميز في الشؤون الخاصة بالجزائر، انظر مثلا: ص: 48 — 53، من المصدر السابق، انظر أيضا، هامش: 6، من صفحة 48 من المصدر نفسه.

(٭٭٭) المدرسة الكتانية التي دشنت يومئذ و (الشاذلي) المرشح لها في (باريس).

2 ـــ قصيدته في (قسنطينة)(٭):

قسنطينـة الغـرّاء فـزت ببهجــة　　وعـزّ على كل البـلاد ورفعــة
كأنك فوق الكهف سلطان قد علا　　سرير عزيز الملك وهو ذو سطرة
هـواؤك ياتـاج البـلاد وعزّهــا　　دواء ذوي الأسقام من كل علّة
كأنّك أمّ للغريبِ فكـلّ مــن　　أتى لك منهم نال أكملِ عزّة
وكم عالم قد حلّ فيك وعلمه　　علا كل نجم بل غلا كلّ درّة
يدرّس في كلّ العلوم موضّحا　　لكلّ عويص من مسايل حكمة
وكم صالح يبكي المريد بوعظه　　ويشفي من الأسقام في كل لحظة
صؤوم قؤوم ذو بكاء لخوفـه　　من الله ذو ذكر له كل ساعة
كأن لم يكن فيها دروس لدرسها　　ولم يجلس للتدريس كلّ ذكي فطنة
رماهم صرف الدرهم لم يخط سهمه　　وماتت بهم كل العلوم بسرعة
وذي سنة في الخلق حكمة ربّنا　　قضى كلّ شيء كائن بمشيئـة
حييت بماء سلسبيل وقد غـدا　　بنوك به في ريّ من بعد غلة
وصرت له كوزا لمن شاء يرتضع　　وسوف يعمّ النفع كل الأزقـة
ستحيي باحياء العلوم ودرسهــا　　وجعـل محلّ للـدروس العظيمــة
ويحصل كل العزّ للنّاس والهنـا　　وفخرك ياحسنا على كل بلدة
على يد من ولاّه أمرك ربّنـا　　وأعطـاه تـدبيرا لكـل مهمــة
يحبّ صلاح الناس دون فسادهم　　ويأمرهم بـالخير في كل بقعـة
ليهنـاك العام الجديد ومـا غبر　　وتأتيك بالأفراح من كل وجهة

٭ ٭ ٭

(٭) القاضي الأديب الشاذلي القسنطيني، ص: 115.

3 ـ قصيدة (عاطفية) كتبها الشاذلي وعرضها على الأمير عبدالقادر الذي ردّ عليها، على نفس الروي. قال (الشاذلي)[1]:

أيا أهل فنّ الطب بالله خبّروا	أيوجد لـلصبّ النحيـل دوراء
نهكت سقاما، لم أجد لي شافيا	وقلبي من غير الخليـل هـواء
كلفت بها، وهي الفريدة، والتي	تجمّع فيها الحسن وهي ضيـاء
ولا عيب فهيا غير فرط دلالها	وفي القـلب منها للتباعـد داء
أريد وصالا، وهي تقصد ضدّه	أيمكـن للضّديـن ثم لقـاء
وأسأل من ربّي اللقـاء فإنـه	قدير، ولي في ذل الجلال رجاء

(1) هي بعنوان (هل للمحب دواء) ورَدّ عنها (الأمير) بمقطوعة (ليس للمحب دواء) انظرهما في ديوان (الأمير) ص 77 ـ 78.

مراجع مصادر عن (الشاذلي القسنطيني)

(1) النهضة العربية في الجزائر، سعد الدين بن أبي شنب، مجلة كلية الآداب، جامعة الجزائر، العدد: الأول، السنة الأولى: 1964م.

(2) القاضي الأديب الشاذلي القسنطيني، الدكتور أبو القاسم سعدآلله، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر سنة 1985م. طبع هذا الكتاب طبعة أولى بعنوان (محمد الشاذلي القسنطيني) الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر 1974.

(3) تعريف الخلف برجال السلف، أبو القاسم الحفناوي، مؤسسة الرسالة ــ المكتبة العتيقة، ط: 2، تونس، 1985.

(4) تحفة الزائر في تاريخ الجزائر والأمير عبدالقادر، الأمير محمد بن عبدالقادر الجزائري، دار اليقظة العربية، ط 2، لبنان ــ بيروت (1384 ه ــ 1964م).

(5) ديوان الأمير عبدالقادر الجزائري، المطبعة التعاونية اللبنانية، ط: 3، 1964.

(6) شخصيات جزائرية، د. عمر بن قينة مطبعة (البعث) قسنطينة، ط: 1، سنة (1403هـ ــ 1983م).

محمد بن الأمير عبدالقادر الجزائري

(1256 ــ 1331 هـ)

(1840 ــ 1913 م)

محمد بن الأمير عبدالقادر

(1256 ـ 1331 هـ)

(1840 ـ 1913 م)

محمد بن الأمير عبدالقادر) واحد من آلاف أجبرتهم ظروف الاحتلال الفرنسي في الجزائر بعد 1830 على الهجرة، وما انقطعت أشواقهم وأسبابها الى مسقط الرأس: أرضا وهواء وتاريخا وقيما مما يعبّر عن شرف وإباء، وسلامة فكر وسموّ روح وأصالة انتماء وحبّ.

وقد سجّل (محمد بن الأمير عبدالقادر) جانبا من هذا الاحساس وهو في (دمشق) مع والده حين قال: «ومع ما أنا فيه من السرور وكمال العزّ والحبور، كان يغلب عليّ في أغلب الأحيان تذكّر الأهل والأوطان، فتتحرّك منّي السواكن وتنبعث منها الأشواق الكوامن، لا سيّما إذا مررت بمنظر يروق وأومضت من ناحية المغرب بروق..........

وما عسى أن أذكر في اقليم وقع على فضله الاتفاق، وحاز قصب السبق على غيره بالاستحقاق، فهيهات أن تنقطع له منّي المدائح ولو قطعت تغريدها الحمائم الصّوادح، فان شوقي اليه شوق البلبل الى الورد، وامرىء القيس الى الأبلق الفرد:

لا الجزع يسليني ولا وادي الغضا عنها ولا نجد ولا الدّهنـــاء
لا رامة رومي ولا خروى، ولا وادي النقا، والخيف والخلصاء

كيف لا، وهي كما قيل:

بلاد بها ميطت عليّ تمائمي وأوّل أرض مسّ جلدي ترابها[1]

---

(1) تحفة الزائر، في تاريخ الجزائر والأمير عبدالقادر، محمد بن عبدالقادر الجزائري، ص: 605، دار اليقظة العربية، بيروت ـ لبنان ـ 1384 هـ ـ 1964م.

ولد (محمد الأمير عبدالقادر بن محي الدين الحسني الجزائري) في خضم المعارك بالجزائر بين الفرنسيين وجيوش الأمير عبدالقادر، سنة 1840م في الجهة الغربية من الوطن، فانطبعت بذلك في ذهنه صورة البلد الجميل والشعب المكافح، وصورة الاحتلال والهمجية الغربية تدمّر القرى وتحرق الأرض والبشر.

شهد السنوات الأخيرة من مقاومة أبيه، كما شهد النوائب التي احدقت به وأفضت الى نهاية المقاومة واستسلام (الأمير عبدالقادر) في (ديسمبر 1847) وصحبه في الباخرة الحربية التي أقلتهم الى فرنسا حيث رست في أحد موانئها (طولون) في فاتح يناير 1848م فقضى لذلك الى جانب أبيه السنوات الخمس في (أمبواز) القصر ــ السجن.

بعد خمس سنوات من الأسر مع أبيه في (فرنسا) غادروها الى (اسطمبول) «مع الصحب الأول» حتى «سلك آلله بنا للنجاة منهجا، وجعل لنا من أمرنا فرجا ومخرجا، ومنّ علينا بالانطلاق من ذلك الاعتقال»(1) فقضوا فيها نحو سبعة أيام، ثم اتجهوا الى (بروسة) فأقاموا فيها عامين ونصفا، تركوها بعد زلزال شهدته المدينة الى (دمشق) وهم محل رعاية واحترام في كل مرة من الدولة العثمانية.

في (دمشق) يقول (محمد بن الأمير عبدالقادر): «نزلنا بالديار الدمشقية، وألقينا فيها عصا الترحال فائزين بكمال التبجيل والاحترام»(2) بعد طول اضطراب فـ «لم يعرف الأمير محمد الاستقرار لا في الجزائر ولا في فرنسا ولا في بروسة. لقد فتح عينيه على الحرب والخوف بالجزائر وعلى الأسر والغربة بفرنسا وعلى الزلزال في بروسة، فلم يتلق تعليما منتظما

---

(1) المصدر السابق، ص: 4.
(2) المصدر نفسه، ص: 5.

ولم يعرف حياة اجتماعية هادئة ولا أصدقاء ثابتين... قد عوض في دمشق ما فقده في موطنه ومهاجره الأخرى فاختلف الى مدارسها وتمكّن من دروس علمائها، ونهل من مكتباتها».

في كنف الطمأنينة والشوق الى الوطن انجز كتابه عن أبيه، وهو أهمّ أعماله، اعطاء عنوان «تحفة الزائر» يعكس جانبا من ثقافته وأسلوبه وتفكيره.

مـؤلـفـاتـه

1 ــ «عقد الأجياد في الصافنات الجياد» وهو كتاب مطبوع، خص به الخيل وما قيل عنها، اختصره في آخر على طريقة ذلك العهد في كتاب آخر بعنوان «نخبة عقد الأجياد».

2 ــ مجموع ثلاث رسائل مطبوعة.
. **أولها** ــ بعنوان «ذكرى ذوي الفضل في مطابقة أركان الاسلام للعقل».
ثانيها ــ «كشف النقاب عن أسرار الاحتجاب».
ثالثها ــ «الفاروق والترياق في تعدد الزوجات والطلاق».

3 ــ «تحفة الزائر: في تاريخ الجزائر والأمير عبدالقادر» وهو أهمّ عمل له لما يعبّر عنه من جهد، وللمعلومات القيمة التي سجّلها المؤلف عن والده في الحرب والمنفى والهجرة. ولهذا السبب نتوقف قليلا عند هذا الكتاب.

يتألف الكتاب من جزأين اثنين في سيرة (الأمير عبدالقادر) ضمن مجلد واحد «أحدهما سيرته السيفية، في حروبه مع الفرنسيين، والثاني سيرته العلمية»[1] وهذا تعبير المؤلف نفسه في المقدمة، وهو تعبير غير دقيق تماما وان صحّ من النظرة الخارجية العامّة.

فالجزء الأول لم يتضمّن الحديث عن جهاد الأمير عبدالقادر في مقاومة الاحتلال الفرنسي فقط، بل تضمّن أيضا حديثا عن جغرافية

---

(1) أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، ج: 2، الدكتور أبو القاسم سعد آلله، ص: 119، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1986م.

الجزائر والمغرب العربي عموما منذ ما قبل الاسلام مرورا بما عرفه (المغرب العربي) من دويلات مشتّتة، وكذا محاولات التوحيد في العهد المرابطي والموحدي وانتهاء بالعهد العثماني، فاستغرق ذلك (136 صفحة) ليصل الى الاحتلال الفرنسي فيتمهّل للحديث عن المواقع الحربية للأمير عبدالقادر وجيوشه مع الجيوش الفرنسية وجنرالاتها وما كان له معهم أيضا من مواقف ومراسلات ومفاوضات ومعاهدات استغرق ذلك أكثر من أربع مئة وستين صفحة.

أما الجزء الثاني فلم يقتصر على حياة الأمير (عبدالقادر) العلمية، بل اتّسع الى جوانب مختلفة من حياته العامة، فتحدّث المؤلف فيه عن سجن الأمير في (فرنسا) فعرض لعلاقاته هناك كما عرض للحكم الفرنسي والسياسة الفرنسية ثم تحدّث عن سفره الى القسنطينية فدمشق التي كانت نهاية المطاف، فانطلق منها بعد ذلك في عدة رحلات الى الحجاز وفلسطين ومصر وفرنسا ولندن والقسطنطينية[1].

أما الجانب البارز من حياته العلمية في الكتاب فهو علاقاته بالحياة الثقافية وبعض علماء عصره، يناقشهم، كما يعطي رأيه في مسائل عصره ذات الطابع الديني بشكل خاص.

وهكذا يبدو والدّافع في تأليف كتاب (تحفة الزائر) ذاتيا وطنيا، تعريفا بالجزائر تاريخا وجهادا، وتخليدا لمآثر (الأمير عبدالقادر) رجل حرب وسياسة، وعلم وثقافة.

وقد حرّر المؤلف كتابه المطبوع حاليا للمرة الثانية[2] بعد أن سرقت منه النسخة الأولى التي لم تر النور لهدف بقي

---

(1) الأعلام، خير الدين الزركلي، م: 7، ص: 213، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، 1980.
(2) طبع الكتاب أول مرة سنة 1903 في مصر، وطبع مرة ثانية في لبنان سنة 1964 بعناية الدكتور (ممدوح حقي) وهي الطبعة التي اعتمدناها هنا.

مجهولا[1]، وهو ما عبّر عنه المؤلف بقوله: «سطت عليه يد من لا بارك آلله بأصله ونسله وسرقته عمدا من حرز مثله، جزاه آلله على ما أبداه من حسده، في نفسه وماله، ثم شمّرت عن ساعد الاجتهاد لجمع ما تفرّق من المواد بعد أن فقد منها الأكثر وبقي من المسودة مالا يذكر فجاء مطابقا للأصل، وخاب من الحاسد ـــ والمنة لله ـــ الأمل»[2].

ورغم ذلك فكلّ من خبر الكتابة وظروفها يدرك جيدا ما يمكن أن يكون هناك من فروق كبيرة، وربما هامة جدا بين العمل الأول المفقود والثاني المعروف لاختلاف ظروف الكتابة ومواد البحث، وحتى الجانب النفسي في ذلك.

وسيرى القارىء من دون شك ما هنالك من فروق بين النسخة المطبوعة المتداولة والنسخة الأولى المخطوطة المسروقة التي عثر عليها الدكتور (أبو القاسم سعد آلله) مخطوطة في (تركيا) عندما يتيسّر نشرها.

أما أسلوب المؤلف فان الطابع الأدبي يبدو جليا فيه، مع ميل واضح الى السجع، لكنه سجع لا يبدو عليه التكلف؛ فيه طلاوة في التعبير ورشاقة في الكلمة والجملة، وهو حكم ينسحب على أوصافه بشكل خاص، بينما يتسم أسلوبه في الشرح والتقرير بشيء من الثقل، وهذا لا يلغي عنصر التشويق في مواقع كثيرة.

---

(1) عثر الدكتور أبو القاسم سعد آلله على نسخة مخطوطة في (السطمبول) يعتقد أنها النسخة المسروقة من (تحفة الزائر) وهو يملك صورة عنها، كما يملك الدكتور عبد الجليل التميمي صورة عنها أيضا حسبما ذكر (سعد آلله). أنظر (أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، ج: 2، ص: 117.

(2) تحفة الزائر، ص: 9.

نماذج من أسلوب «محمد بن عبدالقادر»

1 ــ «من مقدمة التحفة، ص 3»:

«أما بعد، فيقول الفقير الى مولاه الغنّي محمد بن الأمير عبدالقادر الحسني سدّد آلله عمله، وبلّغه ما رامه وأمّله، بينما شمس سماء سيادتنا في أفق المغرب الأوسط طالعة وأشعّة أنوارها على رياض أقطاره ساطعة، وربوعنا بأهل الفضل معمورة، وقصادنا بأنواع المواهب مغمورة إذ فاجأتنا طوارق الدّهر وجاءتنا جنود فرنسا من البحر كالذر فطفقنا ندافع عن الوطن بكل حميّة ونبذل النفوس في حماية سكانه من كلّ بلية، واتصلت بيننا حروب للظهور قاصمة ولعرى الحزم والعزم فاصمة، ثم كاثرونا بالخيل والرجل، وساورونا في الحزن والسهل فقابلنا أعمالهم بالمثل حتى استولى على قلوب الرعية الاضطراب واستحكم الوهن فيها بتمكّن الأسباب، ولقي ريحنا اعصارا وأشرب صفونا أكدارا».

* * *

2 ــ «عن المغرب العربي»:

«اعلم أن هذا الاقليم منذ دخل في حيّز العمران، مأوى الفتن وعش الأهوال والمحن، ومنتزى الملوك والثوار، ومطمح نظر الكبار منهم والصغار. فما هدأت لأهله روعة ولا طابت لهم فيه هجعة، ولا خيّم بساحته أمن، ولا فارقه الرّوع والوهن. ولا خلا منه زمان من قراع الكتائب، ومفاجأة المصائب والنوائب.

ومع هذا ترى مساجده ومدارسه بالعبّاد والعلماء عامرة، ومجالسه بالأذكار وأنواع العلوم زاهرة. ذلك تقدير العزيز العليم، وتدبير العليّ العظيم».

(التحفة، ص: 29)

* * *

3 ــ «لما طال على أهل الوطن الأمد وتوالى عليهم فيما بينهم الكرب والنكد، وتسلّط على بلادهم العدّو، ومنعهم القرار والهدوّ فتارة كانوا يدافعونه عن البلاد، وآونة كان يقع بينهم الفساد والحرب والجلاد. وسطا القويّ على الضعيف وتطاول اللئيم على الشريف: اجتمع الأشراف والعلماء وأعيان القبائل من العرب والبربر وقدموا على حضرة سيدي الجدّ، وألزموه أن يقبل بيعتهم على الامارة لنفسه أو لولده سيدي الوالد وحاجّوه في ذلك بما أعجزه عن الاعتذار.... فحينئذ استخار ٱللّٰه تعالى وقدّم ولده للامارة ومدافعة أهل الشرك، متوكّلا في نصره وتأييده على مالك الملك فذهبت البشائر بذلك في أقطار الوطن وعمّت أنحاءه وأحياءه...»

(التحفة، ص: 115)

* * *

مصادر ومراجع

(1) أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، ج: 2، أبو القاسم سعد آلله، المؤسسة الوطنية للكتاب. الجزائر، 1986م.

(2) الأعلام، خير الدين الزركلي، م: 7، دار العلم للملايين، ط: 5، سنة: 1980م.

(3) تحفة الزائر في تاريخ الجزائر والأمير عبدالقادر، محمد بن عبدالقادر الجزائري، دار اليقظة العربية، بيروت (لبنان) 1964م.

(4) معجم أعلام الجزائر، عادل نويهض، المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت (لبنان ط:1، سنة 1971م.

• • •

عبدالقادر المجاوي

1257 هـ ــ 1333 هـ

14848 ــ 1914 م

عبدالقادر المجاوي

1267 — 1333 هـ

1848 — 1914 م

من الشخصيات الجزائرية التي تركت أثرا ملموسا في الحياة الثقافية أواخر القرن الماضي وأوائل القرن الحالي: شخصية (عبدالقادر المجاوي) ونحن إذ نذكر هذه الفترة يتبادر الى أذهاننا الوضع الذي كانت تعيشه الجزائر، وقد طبع هذا الوضع سياسيا وفكريا باستياء عام، حيث اتخذت ضروب الاحتجاج وجوها مختلفة، منها اتجاه بعض الكتاب الى اعداد المجتمع فكريا كما اتجه الاخرون الى التربية والتعليم والى التراث يحيونه ويستمدونه، ليربط المواطن ماضيه بحاضره.

وقد نشط (عبدالقادر المجاوي) في هذا المجال: مؤلّفا وأستاذا واماما ومصلحا في أكثر الحالات.

ولد (عبدالقادر المجاوي) في (تلمسان) سنة: (1267 — 1848م) لأب يدعي (محمد عبدالكريم)[1] وبعد دراسته في مسقط رأسه انتقل لمتابعتها في كل من «فاس» و «طنجة» و «جامع القرويين» على الخصوص بالمغرب الأقصى، ثم عاد الى الجزائر سنة 1292هـ ، وقد أدّى فريضة الحج ليتولى التدريس أولا في قسنطينة حيث أقام وتزوج فيها وأنجب.

---

(1) عمل قاضيا في تلمسان نحو خمس وعشرين سنة. أنظر: (تعريف الخلف برجال السلف) أبو القاسم الحفناوي، ج:2، ص: 446، مطبعة فونتانة الشرقية، الجزائر، 1324هـ — 1906م.

علم في كل من جامع الكتاني ابتداء من سنة 1292، والمدرسة الحكومية سنة 1295، بالاضافة الى نشاطه خارج عمله الرسمي كمدرس ومحاضر في المدارس الحرة والمساجد، كمسجد سيدي الأخضر، فأحدث تأثيرا كبيرا في الأوساط الفكرية والشعبية بدروسه ومحاضراته العامة، أما دروسه الرسمية فقد تنوعت بين المنطق والبيان والمعاني واللغة والنحو والفلك، ويبدو أنّ مما كان يدرسه في الفلك منظومة (محمد بن سعيد بن يحي بن أحمد السوسي المرغيتي) وشرحها[1]، وفي سنة (1315هـ — 1858م) انتقل المجاوي الى العاصمة للتدريس في مدرستها العليا (الثعالبية) كما عين اماما خطيبا بجامع سيدي رمضان بالعاصمة سنة (1826 هـ — 1908م) وبقي في قمة نشاطه: اماما قديرا وأستاذا متمكّنا، ومؤلفا نشيطا ورجل اصلاح في جميع الحالات بمستوى الوضع والظروف، وقد تخرج عليه في التدريس كثيرون مثل (حمدان الونيسي) و (أحمد الحبيباتي) و (المولود بن الموهوب)[1] وهم من الذين كان لهم تأثيرهم في الحياة الاجتماعية والفكرية. اتسم بالموسوعية في الثقافة، وقد وصفه الأستاذ (سعد الدين بن أبي شنب) بصاحب المعارف الواسعة: «كان ريانا من العربية، فقيها متضلعا، مشاركا في كثير من العلوم، منها علم الكلام، وعلم الاقتصاد السياسي، والعلم التربوي، وعلم الهيئة، عكف على التدريس فتخرج عليه من التلامذة من أصبحوا بدورهم أساتذة»[2]، وقد أسهم اسهاما جيدا في حدود

---

(1) وقد عثرت على نسخة منها مخطوطة في مكتبة مسجد البراوقية، صحبة منظومة للمجاوي نفسه، ويقول السيد (ابن علي بن العربي طوبال) وهو امام في المدينة نفسها (توفي سنة 1978) يقول أن والده: درس هذا الشرح في الفلك على المجاوي، وجزء من مكتبة المجاوي باق في مسجد البراوقية، وهي كتب تركها مع بعض كتبه التي هي من تأليفه، بعدما توفي في قسنطينة، حملها معه ابنه مصطفى الى البراوقية — عندما عين قاضيا فيها — وبعد وفاة الابن (مصطفى) قامت أسرة الأخير (من أمه وزوجه وأولاده) باهدائها أو وقفها على مسجد (البرواقية) حيث يمكن للباحث الاطلاع عليها.

(1) تعريف الخلف برجال السلف، الحفناوي، ج: 2 ص: 449.

(2) النهضة العربية الجزائرية، مجلة كلية الآداب، جامعة، ع: 1، ص: 1، سعد الدين أبي شنب، ص: 50، 1964م.

امكاناته من أجل نهضة ثقافية، كما «شارك في احياء اللغة العربية والعلوم الاسلامية، وبذل جهدا جهيدا في سبيل ارتقاء مستوى الجزائر الثقافي حسب اتجاهات جيله الشريفة»(1)، رغم أن (سعد الدين) يرى: أن المجاوي لم يتفطن كما كان منتظرا من شخص مثله الى الأبعاد الاستعمارية للحكم الفرنسي، وكان يحصر همه في الحرص على «صيانة العربية والدين بالجزائر»، فان أستاذنا الدكتور أبو القاسم عسد آلله يقول عنه: «كان الشيخ عبدالقادر المجاوي أحد قادة الاصلاح في الكتلة المحافظة، وكان يتمتع بشعبية واحترام كبيرين بين الجزائريين في وقته، فقد كان أستاذا للعربية والقانون الاسلامي في المدرسة الجزائرية الفرنسية بالعاصمة مدة سنوات كثيرة»(2) وقد «أصبح المجاوي على معرفة عميقة بالمجتمع الجزائرية والعالم الاسلامي، وكانت معظم(٥) كتاباته موجهة ضد الآفات الاجتماعية والخرافات والعادات القديمة»(3) وهذا من دون شك من الأسباب التي أثارت عليه الشيخ عاشور الخنقي(٥٥) المسبح بحمد الطرقية، المطبل لكل ألوان الضلال الديني والتضليل العقدي، والخرافات التي يذيعها بعض الدجالين من المنتسبين للزوايا والمتاجرين بالعقيدة الدينية والنسب النبوي.

---

(1) المرجع السابق، ص: 51.

(2) الحركة الوطنية الجزائرية (1900 ــ 1930م) الدكتور أبو القاسم سعد آلله، دار الآداب. بيروت (لبنان) ص: 172، ط 1، سنة 1969م.

(٥) قد يكون في كلمة «معظم» بعض المبالغة.

(3) المرجع السابق، ص: 3.

(٥٥) ولد الشاعر الشيخ عاشور يوم 13 صفر من سنة 1264هـ بالخنقة بالشرق الجزائري. وقد كان لسان حال الطرقية غير الرسمي بشعره وسلوكه، أخلص الحب لهم الى درجة الخنوع والذلة، بالاضافة الى غريزة الشر والعداء اللذين جبل عليهما، يتصدى لكل الأفكار الاصلاحية مهما كان نوعها ومصدرها، له ديوان شعري كله في الثناء على اشراف يدعي «منار الاشراف»، المطبعة الثعالبية بالجزائر سنة 1332 هـ ــ 1914م)، كما أن له ديوانا آخر لم يطبع أنظر أيضا كتابنا عن الديسي، فيما يخص عاشور (الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ــ الجزائر) ط . 1. من ص 51 الى 241. 1980.

لكن المجاوي لم يعبأ بهجائيات عاشور، فإذا ما ألح عليه طلابه بضرورة التصدي اليه أوكل الأمر اليهم ليردوا على هحائه، لكنه سرعان ما يرفض محاولاتهم التي لا تصمد لضعفها فنيا أمام عاشور الذي يتسم الكثير من شعره بالقوة في التعبير والحرارة في الانفعال.

وقد توفي الأستاذ عبدالقادر المجاوي بقسنطينة في 6 أكتوبر 1914م، وبها دفن تاركا وراءه أثرا طيبا في بعض شباب تلك الفترة وشيوخها، كما ترك مؤلفات اختلفت نوعا وكيفا، لكنها جميعها جاءت من وحي ما علّم للطلاب، وما تدارس مع تلامذته وزملائه، تجاوزت هذه المؤلفات خمسة عشر عملا: في اللغة والنحو، والبلاغة والدين، وعلم الفلك، لا يسمح المجال بعرضها هنا كاملة، بالاضافة الى أن بعضها مفقود، لكننا نستعرضها بايجاز شديد جدا، متوقفين قليلا عند بعض منها:

1 ــ «ارشاد المتعلمين» كتاب في اللغة والنحو والبلاغة، طبع بمصر وقدم له في الصفحة الأولى أحد المثقفين السوريين في مصر بقوله: «قد اطّلعت من هذا الكتاب على ألفاظ رقيقة ومعان رشيقة، وآداب فائقة، وحكم رائقة تدل على ما لمؤلفه من البراعة التامة والمعرفة العامة، وتشهد له بخلوص النية وحسن الطوية اللذين ألجآه الى نصح المسلمين وارشاد المتعلمين» (ص: 1).

أما الفصل الأول في علوم اللسان بعد المقدمة من هذا الكتاب فان المجاوي يبدأه بقوله: «ان اللغة العربية هي أقدم لغات العالم المستعملة الآن وأوسعها، وأفضلها على غيرها، يشهد به كل من يعرفها ولو كان أعجميا، فهي أفصح اللغات منطقا وبيانا، وأكثرها تصرفا في أساليب الكلام، وأقبلها تفننا في النثر والنظم، قد ملأها الله من الآداب والحكم، فنالت من الأمثال القديمة والحديثة ما لم ينله غيرها»(1). تلا هذا الفصل ثان (في علوم الأديان) وثالث (في علوم الأبدان) ورابع (في المعاش» ثم (خاتمة).

---

(1) ارشاد المتعلمين، المجاوي، ص: 3.

2 ــ «نصيحة المريدين»: رسالة توجيهية نشرت في تونس.

3 ــ «شرح ابن هشام»: كتاب في النحو واللغة والأدب، طبع بقسنطينة.

4 ــ «شرح اللامية الجرادية في المسائل النحوية»: نشرها بعنابة[1].

سنة 1894(٠)، أما المنظومة نفسها فهي لأبي عبدآلله محمد بن محمد ابن مجراد، ورد الشرح ضمن اطار في الداخل بينما جاء المتن المشروح على الهامش.

5 ــ «الدرر البهية على اللامية المجرادية في الجمل» وقد طبعت طباعة حجرية، في 64 صفحة، وهي شرح مختصر عن سابقه، يقول في نهايته: «هذا ما تيسّر لنا جمعه مع الضيق وعسر الحال»[2].

6 ــ «نزهة الطرف في المعاني والصرف» وعنوانها يصرّح بمضمونها، مع غلبة الطابع النحوي والصرفي، احتلت 37 صفحة وقد وردت في مجلد واحد مع »الدرر النحوية» كما سيلي.

7 ــ «الدرر النحوية على المنظومة الشبراوية» في اللغة والنحو، انجزت بمطبعة «فونتانة» بالجزائر العاصمة[3] وردت في مجلد واحد ــ كما سبقت الاشارة ــ مع الشرح المسمى «نزهة الطرف» للمجاوي نفسه، فاستغرقت «الدرر النحوية» 57 صفحة، بالاضافة الى صفحات الخطإ والصواب.

---

(1) المطبعة البونية، لرومباي وارستاري، سنة 1894م.
(٠) مطبعة فونتانة الشرقية، الجزائر، سنة 1325هـ (1907م).
(2) ص: 63.
(3) المطبعة البونية، لروماي واستاي، سنة 1894م.

8 ــ «شرح الجمل النحوية» وهي الجمل المعروفة بالصغرى والكبرى، طبع مطبعة فونتانة الشرقية بالجزائر.

9 ــ «شرح منظومة ابن غازي في التوقيت» وقد تمّ نشره بقسنطينة.

10 ــ «الافادة لمن يطلب الاستفادة»[1] يضم مسائل فقهية وبلاغية في 64 صفحة مع غلبة العنصر الأول، يقول عنه مؤلفه نفسه: انه يشتمل «على رسوم ومسائل فقهية ونبذ من علم المعاني والبيان، والبديع وغير ذلك، ثم يقدم له وللمناسبة فيقول: «لما برز الاذن بالامتحان وتعين لاختبار الطلبة جماعة من الأعيان، عنّ لي أن أجمع وثائق عرفية وبعض جمل منطقية ونحوية، فبادرت بعد الاستخارة الى جمع ما أريد على الوجه الذي بينت»[2]، ويبدو أن الكتيب طبع طبعة أولى حجرية أيضا.

11 ــ «شرح منظومة البدع»: وهي منظومة اخلاقية اصلاحية من تأليف تلميذه وصديقه (المولود بن الموهوب) شرحها الأستاذ تشجيعا لتلميذه وتقديرا له، واعجابا به، وقد رأى الأستاذ (حمزة بوكوشة) أن ذلك كان دلالة على تواضع المجاوي كما كان «وسيلة من الوسائل التي اتخذها المجاوي لمقاومة البدع والضلالات، والأباطيل والخرافات التي كانت سائدة في تلك الحقبة ويعتقدها بعض الناس من الدين»[3].

12 ــ «الفريدة السنية في الأعمال الجيبية»[4] انجز طبعها بفونتانة في 85 صفحة.

13 ــ «الاقتصاد السياسي» وقد طبع بمطبعة فونتانة، وهو من كتاباته التي يبدو أنه حاول التفاعل فيها مع الدراسات الحديثة.

---

(1) مطبعة فونتانة، الجزائر، 1319هـ (1901م).
(2) الافادة لمن يطلب الاستفادة، المجاوي فونتانة، ص: 1، الجزائر، 1939، (1901م).
(3) الثقافة، ع: 10، الجزائر: 1972م.

14 ــ «تحفة الأخبار فيما يتعلق بالكسب والاختيار»[1] قدم له مؤلفه بتمهيد استخدم فيه السجع، تلته مقدمة، ففصل عن أهل «الجبر» ثم آخر في «قول أهل القدر» وفصل ثالث عن «ما هو الحق وهو مذهب السنة» وهو أطول الفصول الستة وأغناها بالأفكار.

15 ــ «القواعد الكلامية»[2] هذا الكتاب من أكثر كتبه غزارة وأهمية. استغرق 157 صفحة، يقول المؤلف في تقديمه: «مست الحاجة إلى تأليف رسالة في علم التوحيد تكون سهلة المأخذ، قليلة الكلفة»[3]، ثم قسم كتابه الى مقدمة ومبادىء متحدثا عن علم التوحيد: موضوعه، وواضعه، ومسائله، تلا ذلك تسعة مباحث متبوعة بفصول أدرجت تحت عنوان: «مطالب» مختلفة، فكان جهد المؤلف جليا في بحثه، وحرصه شديدا على الافادة بأيسر السبل وأكثرها اقتصادا.

16 ــ «أخيرا هناك» منظومة في الفلك «وهي مخطوطة[4]»، لعلها آخر ما كتب المجاوي أو من آخره على الأقل، تقع في 86 بيتا، يستهلها تقليديا بقوله:

يقول عبد القادر المجاوي معترفا بالذنب والمساوي

وهو افتتاح تقليدي، يعرب فيه الناظم عن تواضعه الدائم، وهو أسلوب كان لا يزال متبعا في نظم المتون والارجوزات التعليمية، وعندما يصل الناظم الى توضيح غرض المنظومة يقول عن موضوعها:

«وبعد فالفضل بذي الأبيات توضيح علم النجم والميقات»

---

(1) فونتانة، الجزائر، 1323هـ (1904م).
(2) فونتانة، الجزائر، 1329هـ (1911م).
(3) المصدر السابق، ص: 3.
(4) استعرتها لمدة من مكتبة مسجد (البرواقية) مع مخطوط في الفلك لمحمد بن سعد السوسي وهي التي يبدو أن (المجّاوي) كان يدرسها. أعدتها الى هناك سنة 1975م.

من خلال هذه النظرة العامة في حياة المجاوي ومؤلفاته، نستشف محاور اهتمامه في التأليف خاصة، وهي محاور فكرية طبعت بالطابع المدرسي تسهيلا للمسائل على تلاميذه وتقريبا لها، واختصارا لها، وضبطا للمعلومات التي كان الحفظ يلعب دورا رئيسيا في استبقائها وتذكّرها والاستفادة منها.

ويبدو أن أثر المجاوي في الناس على مختلف المستويات يرجع الى نشاطه الفكري والاجتماعي بينهم بالدرجة الأولى: مدرسا ومناقشا ومحاضرا وخطيبا قبل أن يرجع لما ألف من كتب، وهي حقيقة تصدق على كثيرين غيره من بينهم: عبدالحميد بن باديس الذي شغله ــ كما قال صادقا ــ تأليف الرجال عن تأليف الكتب.

نمـــاذج

1 ـــ «اعلم ان آلله تعالى شرّف الحيوان على النبات بأشياء منها الادراك والحسّ والحركة الارادية والتنقل من محلّ الى آخر على حسب ما تقتضيه الارادة. وشرّف الانسان على سائر الحيوانات بأشياء منها العقل والنطق زيادة على ما تقدم، فسبحان من خلقه في أحسن تقويم حتى تسخّر له الفيل وهو أكبر، وهابه السبع وهو أشجع. ثم إن الانسان وإن كان... لا يخرج عن كونه حيوانا، وكل حيوان لآبد له أن يتعيّش، وعيشة الحيوان ليست كعيشة النبات تمطر من السماء أو تسيل على وجه الأرض فتمرّ عليه أو تعتلق بالهواء فيصيبه شيء منها فيجتزىء به، بل لابدّ لتعيّشه من أعمال مخصوصة أقربها الطبخ والتناول، وزد على ذلك احتياجه للكسوة والبيوت التي تقيه الحرّ والبرد، ولله ردّ المأمون العباسي حيث قال: الناس أربعة ذو صناعة وذو زراعة وذو تجارة وذو امارة، وما سوى ذلك فانهم يغلون الأسعار ويكدّرون المياه».

(ص: 10 من ارشاد المتعلمين، الفصل الرابع)

2 ـــ «لا ريب في أن خالق العالم هو آلله تعالى، وأنه الفاعل المختار، ولا عبرة بمن يخالف ويعاند، وقياس أفعال آلله تعالى بأفعال العباد خطأ بيّن، فان السيد إذا أمر عبده بشيء وحسن له خلافه حتى فعل الخلاف فعفا به عليه ربما يعدّ ظلما إذا لم يكن له حكمة فيه وانما أراد تعذيب العبد فهذه حيلة، وليس له التصرف في العبد كيف يشاء، ولله تعالى في كل جزء من أجزاء العالم حكم باهرة، والخلق، خلقه، والعبد عبده

فله أن يفعل ما يشاء، وكذا قياس صفاته تعالى على صفات المخلوقات ضلالة محضة، ألا ترى أن المعتزلة لمّا ظنّوا أن الرؤية لا تتصوّر إلا أن يكون المرئي جسما متشكلا متلوّنا حكموا باستحالة رؤيته تعالى يوم القيامة، مع أن كلام المعصوم الالهي الترجمان الرباني الذي قال تعالى فيه (وأنزلنا اليك الذكرى لتبيّن للناس مانزّل اليهم) ناطق باثباتها، فكان الواجب عليهم أن يحكّموه ﷺ فيما أشكل عليهم من الآيات.....»

(تحفة الأخبار فيما يتعلق بالكسب والاختيار،
ص: 41 من الخاتمة)

3 — «.... وبعد فقد مسّت الحاجة الى تأليف رسالة في علم التوحيد، تكون سهلة المأخذ، قليلة الكلفة، يستعذب موردها القاصر والكليل، ويقتبس من مشكلاتها المتحيّر في تصحيح عقيدته بالدليل. ولما قوي الرجاء انعقدت النية على ذلك وصرفت العزيمة هنالك، فجاءت بحمد آلله على صغر حجمها كبيرة المسائل متنوعة المسالك شاملة لغالب العقائد، وما يتعلق بالمولى تبارك وتعالى ورسله صلوات آلله عليهم من الواجبات والجائزات والمستحيلات، مع البساطة في التعبير والسلاسة في التحرير كي يستغني بها التلميذ عن كبار الدواوين، ويتخرج من ربقة التقليد الى ساحة اليقين عارفا بزبدة الفن ومنابعه، خبيرا بمسائله وقواطعه، من غير خروج عمّا يقتضيه المقام من البيان أو الأخذ بالافراط والتفريط في هذا الشأن... أرجو آلله بهذا العمل القليل أن نكون منخرطين في صف السلف وأن يوفقنا طريق الصواب ويجنبنا مصارع المواخذة والعتاب».

ص: 3 من القواعد الكلامية).

مصادر ومراجع

أولا ــ المصادر: (تآليف المجاوي):

(1) ارشاد المتعلمين، طبع في مصر، من دون تاريخ.

(2) شرح اللامية المجرادية في المسائل النحوية، مطبعة رومباي وراستاي، عنابة (الجزائر) 1894م.

(3) الدّرر البهية على اللامية المجرادية في الجمل، مختصر، طباعة حجرية.

(4) نزهة الطرف في المعاني والمصرف، مطبعة فونتانة، الجزائر سنة 1325هـ (1907م).

(5) الدّرر النحوية على المنظومة الشبراوية، فونتانة، الجزائر 1325هـ ــ 1907م.

(6) الافادة لمن يطلب الاستفادة، مطبعة فونتانة، الجزائر، 13919هـ 1901م.

(7) شرح منظومة البدع، لتلميذه (المولود بن الموهوب).

(8) الفريدة السنية في الأعمال الجيبية، فونتانة، الجزائر، 1321هـ ــ 1904م.

(9) الاقتصاد السياسي، مطبعة فونتانة، الجزائر.

(10) تحفة الأخبار فيما يتعلق بالكسب والاختيار، فونتانة، الجزائر، 1323هـ ــ 1906م.

(11) القواعد الكلامية، فونتانة، الجزائر، 1329هـ ــ 1911م.

(12) منظومة في الفلك، مخطوطة.

ثانيا ــ المراجع

(1) تعريف الخلف برجال السلف، أبو القاسم الحفناوي، مطبعة فونتانة، الجزائر، سنة 1324هـ ــ 1906م.

(2) الحركة الوطنية الجزائرية (1900 ــ 1930) د. أبو القاسم سعد آلله، دار الآداب، بيروت (لبنان) طـ: 1، سنة 1969م.

(3) مجلة كلية الآداب، جامعة الجزائر، ع: 1، سنة 1964.

(4) الديسي، حياته وآثاره وأدبه، عمر بن قينة، الشركة الوطنية والتوزيع، الجزائر.

(5) معجم اعلام الجزائر، عادل نويهض، المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت (لبنان) طـ:1، سنة 1971م.

(6) شخصيات جزائرية، د. عمر بن قينة.

طاهر الجزائري

1268 ـ 1338 هـ

1852 ـ 1920 م

طاهر الجزائري

1268 ــ 1338 هـ

1852 ــ 1920 م

الشيخ طاهر الجزائر من الشخصيات الجزائرية التي جسّدت التلاحم بين أبناء الأمة العربية الاسلامية في طموحها الى التقدم والازدهار، وعزّة الانسان. فهو جزائري ولد في دمشق التي أعطاها جهده وحبّه وعمله، حتى اضطّر الى الفرار منها الى القاهرة من أيدي البغي والقهر، ثم كتب له أن يعود اليها في ظروف جديدة ليلقى ربّه فيها وقد خلد اسمه بجهوده الاصلاحية وعمله التربوي والعلمي.

هو طاهر بن صالح بن أحمد بن موهوب السمعوني الوغليسي الجزائري، قدم أبوه إلى دمشق في مطلع: 1264هـ 1848م فرارا من بطش الاستعمار الفرنسي في الجزائر بعد استسلام (الأمير عبدالقادر) ونقله الى (باريس) حيث أسندت اليه وظيفة الافتاء المالكي في (دمشق).

في هذه المدينة ولد (طاهر) في 20 ربيع الثاني، 1268هـ ــ 1852م فكان موضع عناية أبيه في التربية والتعليم، وقد تصدّى للتدريس وهو في الثانية عشرة من عمره، منذ «عيّن معلما في المدرسة الظاهرية الابتدائية بدمشق سنة 1294هـ 1878م ومن هذه الوظيفة بدأ نجم الشيخ يلمع ويتألق»[1] في فترة كانت تتسم بالضعف في الوطن العربي تحت

(1) الشيخ طاهر الجزائري، رائد النهضة العلمية في بلاد الشام وأعلام من خريجي مدرسته، د. عدنان الخطيب، ص: 94، معهد البحوث والدراسات العربية (جامعة الدول العربية) سنة 1971م.

الاحتلال الأجنبي أو في ظلّ حكم عثماني ضعيف شهد ممارسات كثيرة من اضطهاد وملاحقة لرجال الفكر والاصلاح، وكان من بينهم (طاهر الجزائري) الذي فرّ من الشام إلى القاهرة سنة 1325 هـ ـــ 1907م ولم يعد بعد خلع (عبدالحميد) واعلان الدستور لوعبه التام بالاتجاه الغربي والصهيوني لجماعة (أتاتورك) التي تدثّرت بشعارات الثورة الفرنسية (عدالة، حرية مساواة) غير أنه لم يتأخر بعد اعلان الدولة العربية في (دمشق) على اثر انتهاء الحرب العالمية الأولى، في 1918م حيث كتب له أن يلقى ربّه سنة (1852 هـ ـــ 1920م) في أرض أحبّها وكّون فيها أجيالا فبادلته الحبّ مضاعفا، رعت عهده مهاجرا بعيدا عنها، واستقبلته بالاحضان عائدا، وودعته أخيرا الى قبره بلوعة ملؤها الاخلاص والصّدق والوفاء.

لم يتزوج (طاهر الجزائري) فلم ينجب، ولكنه نذر نفسه للعلم والتعليم والكتابة، فأسهم بجهد كبير في تكوين رجال خدموا أمتهم، وترك أبناء روحيين أوفياء لرسالته في النهوض بالأمة العربية والاسلامية. قال عنه أحد تلاميذه وأصدقائه (محبّ الدّين الخطيب): «كان له الفضل في كل تقدّم ورقّي أصابه مسلمو سوريا... هذا الرجل العظيم هو الشيخ طاهر الجزائري بن الشيخ صالح الجزائري الذي كان مفتي المالكية في الشام...»[1] فمنه «عرفت عروبتي واسلامي».

كان (طاهر الجزائري) ثالث ثلاثة في نهضتنا الحديثة المبكّرة من الرعيل الأول فيها (هو، وجمال الدين الأفغاني، ومحمد عبده) وكانت الدعوة التي حمل «لواءها من أجل نهضة عربية اسلامية شاملة في بلاد الشام كالبذور تلقى في أرض كريمة»[2] وقد «تحققت أكبر أماني الشيخ في حياته، فلم

---

(1) صفحات من الجزائر، د. صالح خرفي، ص: 121، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1973م.

(2) الشيخ طاهر الجزائري وأعلام من خريجي مدرسته، د. عدنان الخطيب، ص: 25.

يلتحق بالرفيق الأعلى سنة 1920م الآ بعد أن رأى الدولة العربية تقوم في دمشق عاصمة الأمويين الخالدة على فترة من الزمن غبرت على زوال مجدها، ورأى الشيخ العلم العربي يخفق في ربوع الشام، كما رأى العشرات من الأطباء ورجال القانون والأدباء من تلامذة يحملون عبء الدولة الفتية ويقيمون نواة الجامعة السورية التي تمّردت على اللغات الأجنبية، فكانت الجامعة الوحيدة في بلاد العرب التي تدرس مختلف العلوم بلغة عربية خالصة، كما رأى الشيخ قيام المجمع العلمي العربي أقدم مؤسسة حديثة قامت لخدمة العربية برئاسة واحد من أنبغ تلامذته(٥) وهو يلحّ عليه ليقبل الانضمام الى أعضائه المؤسّسين فيستمدوا منه قوة، فقبل الشيخ رجاء تلميذه ولم يلبث أن أغمض عينيه بعد أن قرّتا بما رأى من أحلام تتحقق»[1].

وقد تعدّدت علاقات (الشيخ طاهر) في حياته على كل المستويات خاصة مع رجال الفكر والسياسة عربا وأجانب إلى درجة جعلته يتورط — فيما يبدو — في الانضمام الى أحد المحافل الماسونية (في لبنان) التي كانت تعمل جاهدة بخبث كبير من أجل استدراج عظماء الأمم خاصة من العالم العربي والاسلامي تحت الشعارا البرّاقة (حرية، اخاء، مساواة) فيتعاطف هؤلاء مع الشعاراة التي تخدم أمتهم، وان سخّرها غيرهم لأغراض أخرى لخدمة الصهيونية بالدرجة الأولى.

انتاج طاهر الجزائري:

لطاهر الجزائري تآليف مختلفة كان بعضها ذا طابع مدرسي بسيط يتلاءم ومستوى التلاميذ والطلبة، كما كان بعضها غير ذلك، نشر بعضها في حياته ولا يزال بعضها مخطوطا، نثبت بعضها فيما يلي:

---

(٥) محمد كرد علي (1876 — 1953م).

(1) المرجع السابق، ص: 26 — 26.

أولها ــ الكتب المطبوعة(٥):

1 ــ الجواهر الكلامية في العقائد الاسلامية.
2 ــ منية الأذكياء في قصص الأنبياء.
3 ــ مدّ الرّاحة الى أخذ المساحة.
4 ــ مدخل الطلاب الى فنّ الحساب.
5 ــ الفوائد الجسام في معرفة خواص الأجسام.
6 ــ تسهيل المجاز الى فنّي المعمّى والألغاز.
7 ــ ارشاد الألباء الى تعليم ألف باء.
8 ــ التبيان لبعض المباحث المتعلقة بالقرآن.
9 ــ التقريب الى أصول التعريب.
10 ــ توجيه النظر الى علم الأثر.
11 ــ تدريب اللسان على تجويد البيان.
12 ــ كتاب التّمرين على البيان والتبيين.
13 ــ معجم أشهر الأمثال.
14 ــ مبتدأ الخبر في مبادىء علم الأثر.
15 ــ عمدة المغرب وعدة المعرب.
16 ــ مختصر أدب الكاتب لابن قتيبة.
17 ــ مجموعة رسائل في النحو والبديع والبيان والعروض وجداول جدارية في الخطوط القديمة والحديثة.

ثانيا ــ المؤلفات المخطوطة : أهمّها مايلي:

18 ــ الكافي في اللغة.
19 ــ التفسير الكبير.

---

(٥) حصر هذا الدكتور عدنان الخطيب في كتابه عن الشيخ طاهر الجزائري، ص: 176.

20 ــ الالمام بأصول سيرة النبي عليه الصلاة والسلام.
21 ــ مقاصد الشرع.
22 ــ مذكّرات. وهي مما أشار اليه صاحب (الأعلام) بقوله: «وفي الخزانة الظاهرية بدمشق 28 دفترا بخطة [خط طاهر] منه ما هو تراجم ومذكرات وفوائد تاريخية، وأسماء مخطوطات ممّا رآه أو قرأ عنه».

وهكذا يلاحظ القاريء الطابع الموسوعي في ثقافة (طاهر الجزائري)(٥) بين العلوم التقليدية والحديثة، وبين العلوم الدينية الخالصة وغيرها من العلوم المعاصرة بمستوى الفترة التي كانت تنتعش بجهود رجال الفكر والاصلاح من أمثال (طاهر الجزائري) ممّن أحبّوا أمتهم وعملوا لخيرها بالجهد الممكن والامكانات المتاحة في الظروف الصعبة المعقّدة، وهي ظروف من شأنها أن يتداخل فيها الخطأ والصواب، في العمل، في تصرّف يقدّم عليه هذا أو علاقة يقيمها ذلك، أو رأى يصرّح به ثالث، غالبا على حسن نية للخير العام، لخدمة الأمة والوطن.

---

(٥) ذكر أنه يجيد عدة لغات: أهمها: الفارسية، التركية، العبرية، السريانية.
(1) الأعلام، خير الدين الزركلي، ص: 222، م: 3 دار العلم للملايين، ط. 5، بيروت (لبنان) 1980م.

نماذج من كتابة (طاهر الجزائري)

1 ــ في حديث عن الشعوبية:

«... أمّا الزمن الذي ظهرت فيه الشعوبية فلا يحضرني فيه شيء، والوقوف على أوائل الأشياء من أصعب المسائل وأدقّها، الاّ أن الذي ظهر لي أن حدث بعيد عصر الخلفاء الراشدين لوجود الدّاعي الى ذلك، وهو التفاخر بالجنس الذي هو من عادات الجاهلية التي أتى الدين بابطالها، ومن نظر لمنزلة سلمان الفارسي وصعيب الرومي، وبلال الحبشي في أوائل الأمة زال عنه الشكّ في هذه المسألة. ولا يدخل في الأمر بحث المؤرخ عن خصائص الأجناس ممّا يقصد به الوقوف على الحقائق فان هذا نوع آخر...

الاّ أن فنّ خصائص الأمم تتيسّر المشاغبة فيه والمغالطة أكثر من غيره....

هذا وكما حدث بعد عصر الخلفاء أمر المفاضلة بين العرب والعجم حدث أمر المفاضلة بين العدنانية والقحطانية، وهنا الفريقان اللذان يجمعهما اسم العرب، ونشأ بسبب ذلك من الفتن ما يعرفه المولع بالأخبار ولم يزل أثر ذلك باقيا في بعض الجهات....».

2 ــ في رسالة الى مستشرقة انكليزية هي سكريتيرة الحاكم الانجليزي في العراق المحتل، كتبها اليها من (مصر):

«حضرة السيدة الجليلة الفاضلة الشهمة المحبوبة مس (بل) دام اقبالها، أحييك بخير التحايا وأثني على تلك السجايا، وأذكرك بالأيام المسعودة التي جمعتنا في دمشق الشام، ثم أذكر لك أن الدّاعي الى المكاتبة هو أمران: أحدهما تجديد العهد السابق والشكر على حسن ظنك بهذا المحبّ المخلص، فقد ذكر لي بعض أصدقائي ترجمة ما كتبته في حقّي في رحلتك الى سورية مما يدلّ على حسن الطوية.

والأمر الثاني اقتضاء اتلوقت لذلك، فان هذا الزمان الذي هو أغرب الأزمنة مطلقا يجب الانتباه فيه لما يلزم وعدم تضييع الفرص فانها تمرّ مرّ الحساب. هذا ولما كنت أعتقد أن أحسن من يخلص له العرب الودّ هو دولة بريطانيا العظمى، لما خبرته من الأحوال ومقتضيات الأمزجة ونحو ذلك. والمودّة لما كانت واجبة أن تكون من الطرفين اقتضى الأمر أن يقع التفاهم بينهما ليستمر هذا الأمر، فرأيت أنه ينبغي لأنكلترا العظمى أن تعتني بأمور:

1 ــ الأمر الأول ــ أن تؤسس في كل بلدة كبيرة ديوانا شبيها بالرسمي لتأخذ الأخبار المتعلقة بما يحبّ العرب لتساعد عليه بقدر الامكان، والذين يعينون ينبغي أن يكونوا من أعظم الناس معرفة بأمزجة العرب ممن تلقوا ذلك عن مثل حضرتك الكريمة.

2 ــ **الأمر الثاني**: أن تعتني بأمر اللغة العربية ويظهر منها السعي في نشرها كما يظهر منها ذلك في اللغة الانكليزية.

3 ــ **الأمر الثالث**: الاعتناء الزائد في المساعدة على نشر العلوم على وجه يساعد عليه الحال والزمان.

4 ـ الأمر الرابع: مراعاة عوائدهم وعدم الحط من كرامتهم لاختلاف العادات....

5 ـ الأمر الخامس: تسهيل أمر تجارتهم، وتسهيل أمر التجارة معهم بحيث يظهر ذلك....

6 ـ الأمر السادس: الاعتناء بعدم مس الشعائر الدينية.

7 ـ الأمر السابع: تدريبهم على ما يحتاجون اليه من أمور اقتصادية أو غيرها....

واني أرى الأمور إذا تمت هكذا تكون النتيجة حسنة جدا، ويشتد التلاؤم بين الفريقين، فان العرب أقرب الناس الى شكر النعمة....».

3 ـ من احدى مذكّراته (المخطوطة):

«في يوم الخميس، السابع من صفر سنة 1328هـ اجتمعنا بحضرة الأمير الجليل نخبة الدولة العلوية بمصر (عباس حلمي) خديويها المبجّل، وكان ذلك قبيل المغرب، فاستقبلنا استقبالا يدلّ على شهامة ومحبة في العلم، وأجلسنا بلا فاصل عنه، وأخبرنا أنه بلغته أخبار كثيرة عنّا لا سيّما من الشيخ (علي يوسف) المحبّ المخلص، ومن الدكتور (هيس) المحبّ لنا أيضا، ويرغب في رؤيتها الا أنّ سفر الحجاز عاق عن ذلك، والآن يعدّ اجتماعنا به يوما يذكر، وله في ذلك الحظ الأوفى، فقابلناه بما يليق بمقامه، الاّ أن عبارتنا كانت قاصرة لكنها تدلّ على فرط الاخلاص. ثم جرى البحث فأشرت عليه أن يغتنم الفرص في ابراز آثار مهمة، وذكرنا من ذلك شيئين: أحدهما تأسيس مدرسة للغة العربية تقصد من كل جهة،، والثانية تأسيس دار للترجمة، وعمل مطبعة لطبع ما يترجم، وجعل مصححين للترجمة، فسرّ بذلك كثيرا، وأبنّا له مقامه في النفوس وأن لا يعبأ بالمشاغبين. ولو أردنا

شرح ما جرى لطال. غير أني سئلت عما ينتقد على مصر، فقلت شيئان: أحدهما عدم اتمام الأعمال، والثاني اختصار الأشغال الجزئية، والأمور الكلية تتمّ إذا أخذت من أقرب وجه».

(الشيخ طاهر الجزائري رائد النهضة، ص: 175)

المصادر والمراجع

(1) الأعلام، ج: 3، خير الدين الزركلي، دار العلم للملايين، ط: 5، بيروت، لبنان 1980م.

(2) الشيخ طاهر الجزائري، رائد النهضة العلمية في بلاد الشام، دكتور عدنان الخطيب. معهد البحوث والدراسات العربية (جامعة الدول العربية) 1971م.

(3) صفحات من الجزائر، د.صالح خرفي، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر. 1973م.

محمد بن عبدالرحمن الديسي

1270 ــ 1339هـ

1854 ــ 1921م

محمد بن عبدالرحمن الديسي

1270 ــ 1339 هـ

1854 ــ 1921 م

محمد بن عبدالرحمن الديسي من أعلام الفكر والأدب الذين عرفتهم الجزائر في العصر الحديث، وممّن اسهموا بجهود معتبرة في مجالين هامّين: التدريس والتأليف.

أسهم الديسي بنشاط جيّد في الحركة الفكرية عموما والأدبية خصوصا، فامتدت شهرته الى خارج الجزائر، في المغرب وفي المشرق العربيين حتى بات بعمله وبعمله واحدا من الأعلام البارزين خاصة في الربع الأول من القرن العشرين.

فمن هو (الديسي) الذي لقّب أيضا بـ(البوسعادي) تارة وبـ (الهاملي) تارة أخرى؟ وما طبيعة جهوده في اطار زمانه وامكاناته؟

للاجابة عن هذا نعتمد كتابنا[1] عنه، كما نعتمد مؤلفاته[2] المختلفة.

---

(1) الديسي: حياته وآثاره، عمر بن قينه، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1980.
(2) كل مؤلفاته مخطوطة، باستثناء:
ــ توهين القول المتين.
ــ شرح الرجز الكفيل بذكر عقائد أهل الدليل.
ــ المناظر بين العلم والجهل.
ــ فوز الغانم.

فاسمه الكامل هو: محمد بن محمد بن محمد بن عبدالرحمن الديسي. ونسبة (الدّيسيّ) هي لقرية (الدّيس) التي ولد فيها ونشأ وحفظ القرآن وتعلّم مبادىء العربية، وهي قرية قرب مدينة (بوسعادة). ولد فيها سنة: 1270 هـ ــ 1854م، وقد توفي والده بعد أيام قليلة من ميلاده، فنشأ يتيما موضع رعاية أمه وجدّته ثم لم يلبث حتى فقد بصره وهو في نحو السابعة من عمره على اثر اصابته بالجدري، فبات الاحساس بذلك متمكّنا من نفسه، ووجد صدى نفسيا واضحا في كثير من أشعاره ونثره الفنّي في حياته الأدبية.

حفظ (الديسي) القرآن الكريم في قريته سماعا، ودرس المبادىء الأولى في علوم العربية على علماء قريته التي اشتهرت ببعضهم، من بينهم: ابن أبي القاسم بن عروس، والشيخ محمد الصدّيق، ثم سافر الى زاوية الشيخ السعيد بن أبي داود قرب (أقبو) التي كانت من بين الزوايا المهمّة التي تدرس فيها المستويات العليا من الدراسات العربية المتخصّصة أو الأقرب الى التخصّص.

من زاوية (ابن أبي دواد) حصل الدّيسي على الاجازة من مشائخه فيها، في الفقه وعلوم العربية، وباشر التدريس فيها فترة قصيرة، ثم قفل راجعا الى قريته، وفي طريق هذه العودة عرّج على (قسنطينة) فحضر دروسا عن الشيخ (حمدان لونيسي) ثم مضى في قريته يواصل تعميق معارفه حتى انتقل الى زاوية (الهامل) قرب (بوسعادة) أستاذا فيها الى جانب مؤسسها الشيخ (محمد بن أبي القاسم) الهاملي المولود سنة (1239هـ ــ 1823م)[1] فكان الاعجاب والتّقدير متبادلا بين الشيخين فوجد (الدّيسي) في هذه الزاوية الجوّ العلمي الجيّد والمستوى الثقافي الرفيع لعلمائها، والعناية والتقدير من

(1) هو نفسه تخرّج من زاوية (ابن أبي داود) وشرع في التدريس في قرية (الهامل) سنة 1265 هـ ــ 1844م ثم صار للزاوية موقع خاص يشرف على القرية، وقد توفي سنة 1315هـ (أو 1314هـ) 1897 فخلفه شيوخ آخرون كان بعضهم من تلاميذ (الديسي) وأصدقائه في الوقت نفسه.

شيوخها ابتداء من المؤسس الأول (محمد بن أبي القاسم) فكانت آخر محطة وأخصب فترة في حياته، فيها قضى أكثر من خمس وعشرين سنة في التدريس، فتخرّج عنه مئات من علماء الدين، كما أنتج فيها معظم آثاره المختلفة شعرا ونثرا، وفيها توفي ودفن تاركا أثرا حسنا بعلمه: تدريسا وتأليفا. وبمختلف أعماله الفكرية في الفقه واللغة والأدب.

في وقت كانت فيه معظم الزوايا البعيدة عن الدجل ملاذا للثقافة العربية الاسلامية المضطهدة من الاحتلال الفرنسي كان فضل زاوية (الهامل) أيضا لذلك كبيرا على (الديسي) لما هيّأته له من مناخ ثقافي: يحث على المعرفة والانتاج في مستوى تلك الظروف، وتمتد فيه الصّلات برجال الثقافة والفكر في الوطن وخارجه: عربيا وغربيا أيضا، كما كان فضل (الدّيسي) على الزاوية كبيرا أيضا لما بذل من جهد وما أفاد به من علمه وشهرته أيضا التي أسهمت في بنائها أيضا الزاوية نفسها.

أما ثقافة الديسي عموما فلم تكن تنفصل في خطوطها العامة عن ثقافه عصره ومحيطه خاصة مغربيا ومحليا أي أقليميا، ذات ارتباط بالثقافة التقليدية لكنها اتّسمت في انتاجه بشخصيته، فحملت ملامحه وذاته ورؤاه سواء في ذلك بعض كتاباته الدينية وبعض كتاباته الأدبية بخاصة شعرا ونثرا. فما هو انتاج (الديسي) في هذا كله؟

لقد بلغت آثار (الديسي) نحو عشرين عملا، مع اختلاف كبير بينها في حجمها وطبيعتها وأهميتها. وإذا نحن أردنا تصنيفها حسب نوعها فانه في مقدرونا حصرها في ثلاثة مجالات: أولها الكتب الدينية الصرفة: تآليف وشروحا، فالكتب الأدبية الخالصة، ثم الكتب ذات الطابع اللغوي لكن في قالب ديني وأدبي في الوقت نفسه، مع ملاحظة مهمة: هي أن هذه العناصر كثيرا ما تتداخل، فديوان (الدّيسي) الشعري مثلا الذي يعد في كتبه الأدبية يضمّ منظومات فقهية، كما يضمّ أيضا منظومات لغوية ونحوية وبلاغية أيضا.

أولا ــ تضمّ الكتب الدينية للديسي خمسة عشر عنوانا أساسيا هي:

1 ــ توهين القول المتين (مطبوع).
2 ــ القصد في الفصد (مخطوط).
3 ــ درّة عقد الجيد (مخطوط).
4 ــ العقيدة الفريدة (مخطوط).
5 ــ سلّم الوصول (مخطوط).
6 ــ الوردة الجنية في النظم للخصائص الفقهية (مخطوط).

وهذه العناوين هي متون، تضاف اليها عناوين أخرى هي شروح لأعماله أو لأعمال غيره، نذكرها فيمايلي:

1 ــ تحفة المحبّين بشرح أبيات القطب الأكبر محيي الدين (مخطوط).
2 ــ تنوير الألباب بمعاني الشهاب (مخطوط).
3 ــ شرح الرجز الكفيل بذكر عقائد أهل الدّليل (مخطوط).
4 ــ الموجز المفيد في شرح درّة عقد الجيد (مخطوط).
5 ــ النصح المبذول لقرّاء سلّم الوصول (مخطوط).
6 ــ القهوة المرتشفة في الزهرة المقتطفة (مخطوط).
7 ــ المشرب الراوي على منظومة الشّبراوي (مخطوط).
8 ــ فوز الغانم (مطبوع) في مجلد واحد مع كتاب (الزهر الباسم) من تأليف محمد بن الحاج محمد بن أبي القاسم.
9 ــ فتح العلاّم، في شرح صلوات القطب عبدالسلام (مخطوط).

هذا وقد سبق لي أن أضفت في كتاب: (الديسي: حياته وآثاره وأدبه) الى القسم عنوانين آخرين رغم موضوعهما الأدبي، وهما:

1 ــ بذل الكرامة لقرّاء المقامة (مخطوط).
2 ــ شرح البديعية (مخطوط).

ثانيا ـــ الكتب ذات الطابع اللغوي في قالبها الديني والأدبي، تتمثل في أربعة عناوين أساسية:

1 ـــ افحام الطاعن بردّ المطاعن (مخطوط).
2 ـــ الزهرة المقتطفة (مخطوط).
3 ـــ الساجور للعادي العقور: عاشور (مخطوط).
4 ـــ هدم المنار وكشف العوار (مخطوط).

ونستطيع أن نضمّ الى هذا القسم العنوانين اللذين سبق لنا[1] أن أدرجناهما ضمن الكتب الدينية، فهما أكثر ارتباطا بهذا القسم، هما:

ـــ بذل الكرامة لقرّاء المقامة (مخطوط).
ـــ شرح البديعية (مخطوط).

ثالثا ـــ أما الأعمال الأدبية فهي الأكثر أهمية في نظرنا، لما عكسته من شخصية الكاتب وما عبّرت عنه، وهي:

1 ـــ تفضيل البادية بالأدلة الواضحة البادية (مخطوط) وهي مقامة أدبية أعلن فيها الكاتب حبّه الريف وضيقه بالمدينة[2]، وبها تراجع عن رأي له سابق في تفضيل المدينة حملته قصيدة شعرية في (ديوانه).

2 ـــ جواهر الفوائد وزواهر الفرائد، (مخطوط) وهو مجموع مختارات مختلفة في الأدب واللغة والتاريخ «انتقى الكاتب هذه المختارات من كتب قرأها واعجبته لجمال أسلوبها وبمضمونها، فأثبتها معطيا لكل موضوع يعرضه عنوانا يناسبه»[3].

(1) الديسي، حياته وآثاره وأدبه، عمر بن قينة، ص: 74 ـــ 77.
(2) المرجع السابق، ص: 27.
(3) المرجع السابق، ص: 29.

3 ــ المناظرة بين العلم والجهل (مطبوع) وهي رسالة في نثر جيّد أدان فيها الكاتب الجهل، وما صار لأصحابه من سطوة وسلطان في حياة الناس، وأسف على حال العلم والعلماء، وقد انتهى في آخرها الى ضرب توفيقي في الفصل بين المتخاصمين حكم يقتضي التعايش السّلمي في الحياة العامة.

4 ــ منّة الحنّان المنّان (مخطوط) وهو ديوانه الشعري الذي ضمّ أشعاره في مختلف الأغراض.

5 ــ ثم هناك أخيرا: رسائله الأدبية الشخصية المخطوطة باستثناء رسائله الى الشيخ أبي القاسم الحفناوي، فهي مطبوعة في كتاب الحفناوي: (تعريف الخلف برجال السلف) الجزء الثاني.

* * *

تنّوعت كتابات الديسي وأبرزت في النهاية خاصة في قسمها الأدبي شاعرا كتب في معظم الأغراض الشائعة، وبدأ تميّزه الخاص واضحا في بعض كتاباته النثرية، كما نرى في (المناظرة بين العلم والجهل) و (تفضيل البادية) وكذا رسائله.

ففي الشعر كتب في المدح، والوصف والرثاء والاخوانيات والغزل والاجازات وغيرها، وقد بدا في ذلك متأثرا بالقدماء يقتبس كلامهم ويردّد معانيهم، كما انعكست ثقافته القرآنية والدينية في شعره. لكنه «يبقى متميزا في اضطرام مشاعره وافتنانه في التصوير الذي يتّسم بطابع الزخرف والترف في القول والتفكير»(1) وقد كان «النصيب

(1) المرجع السابق، ص: 182.

الأكبر من شعره للمديح وللغزل، وفيهما كانت شخصيته أوضح ممّا في سواهما من موضوعات تأرجح في بعضها بين المرح والتفاؤل من جهة والزهد والتشاؤم من جهة ثانية خضوعا لظروفه الخاصة تجاه الحياة ومع الناس».

أما نثره فمنه ما هو نثر نقدي، ومنه ما هو نثر فني خالص زيادة على نثره العلمي الفقهي، فتدخل مثلا في نثره النقدي كتبه الثلاثة (افحام الطاعن...) و (توهين القول المتين) و (هدم المنار) الذي هو نقد لاذع لكتاب (الشيخ عاشور الخنقي) الذي يحمل عنوان (منار الأشراف).

في هذا الجانب من نثر (الديسي) يظهر بصفة عامة — مع استثناءات قليلة — «الاعتدال في الرأي وتحاشيه التحامل على الآخرين، ويرجع ذلك الى نظرته الاسلامية السلفية الخالية من نيّات الحقد والكراهية الداعية الى ما يراه حقّا بالتي هي أحسن ونقض الباطل في غير إساءة»[1] وهو ما عبّر عنه في مواضع مختلفة كقوله في مقدمة (توهين القول المتين): «ان المحبة أقرب الى الفطرة الانسانية، ولأنها لا ينشأ عنها الاّ الخير والنافع فهي أقرب الى السلامة. والبغضاء أبعد عن الطبع ولا ينشأ عنها الا الشرّ والضّار»[2].

أما نثر (الديسي) الفنّي فيتمثّل بشكل خاصّ في كتاب (المناظرة بين العلم والجهل) ومقامة (تفضيل البادية...) وكذا رسائله ذات الطابع الأدبي الفكري، «وقد شاع في نثره الفنّى على الخصوص استخدام المحسّنات البديعية» كما شاع قصر الجملة و «توازن العبارات» فقد ورد في (المناظرة) على لسان حال العلم قول المؤلف: «صار التصنيف مسخرة لا مفخرة، والتحقيق مثلبه لا منقبة»[3] ليدين بذلك التخلف والركود الثقافي تحت

---

(1) المرجع السابق، ص: 247.
(2) المرجع السابق، نفس الصفحة، و (توهين القول المتين)، ص: 6 بدون تاريخ.
(3) الديسي حياته وأثاره، عمر بن قينة، ص: 248 — 249 و (المناظرة بين العلم والجهل. الديسي، ص: 12 مطبعة بيكار، تونس، بدون تاريخ.

وطأة الاحتلال الأجنبي المباشر الذي كان يشجّع القيم السلبية ويضع من شأن القيم الايجابية ليصيب الانسان الجزائري في صميمه، حتى يقعد متخلّفا مستسلما لقدره. وقد جسّد شيئا من هذا موقف (الجهل) الدي كان لسان حاله يخاطب العلم بالصيغة التالية:

«أما ترهب بأسي وشدّة شوكتي، وبيدي المناصب، وأنا الرافع والناصب والمتصرّف في الحكّام، والّي مرجع الأحكام والنقض والابرام والقهر والالزام»(1).

لقد عاش الديسي في مرحلة من المراحل الصعبة في المواجهة بين الشعب الجزائري والمحتل الفرنسي الذي عمل على ابقاء الوطن في التخلف، وسلب الانسان الجزائري روحه وقيمه الحضارية، وكانت الثقافة العربية الاسلامية من العناصر المستهدفة في هجمة الاستعمار، لأنها روح الأمة وعمقها الحضاري، لما للغة والدين معامن دور في المناعة، مناعة الأمة في مواجهة عمليات الاختراق لصفوفها ووحدة الوطن.

وقد كرّس (الديسي) حياته في خدمة الثقافة العربية الاسلامية، وقام بالدور الممكن في اطار ظروفه الخاصة ومحيطه، ممّا أسهم بدور في تكوين مناخ اطّرد تطوّره سريعا خاصة في مطلع العشرينات من هذا القرن.

وقد كانت وفاة (الديسي) يوم 22 من ذي الحجة، سنة 1339هـ ـــ 17 أوت سنة 1921م وهي الفترة التي مضت تشهد تطوّرا ما في الحياة الثقافية بالجزائر امتزجت فيها السياسة بالدين والثقافة، كما مضى الاحساس فاعلا في النفوس من أجل العمل للخلاص من السيطرة الغربية التي تستغلّ الوطن وتعمل لجعله تابعا ذليلا في كلّ شيء: في السياسة والاقتصاد والثقافة والقيم وغيرها، وهو ما قاومه الشعب الجزائري بكلّ الوسائل من أجل الابقاء على انتمائه الحضاري ووحدته الروحية والفكرية وما لهما من اشعاعات مختلفة.

---

(1) الديسي: حياته وآثاره، عمر بن قينة، ص: 109. المناظرة بين العلم والجهل. الديسي، ص: 4.

نماذج من أدب (الديسي)

1 ـــ جزء من قصيدته المعروفة بـ (الباريسية)[1]:

أفدي التي سلبت حس الطواويس ... بديعة الحسن من جنس الفرنسيس

عقيلة من بنات الملك نشأها ... في نخوة العز ليست بنت أريس[2]

لا تعرف الهم قد شبت على ترف ... بالقصر والروض في أبهى الملابيس

مرت بنا يوم عيد الفصح قاصدة ... من الكناس كنيسة الشماميس[3]

وأسفرت عن محياها الذي فضحت ... به الشموع وأنوار الفوانيس

ياحسن مبسمها الشهي ان ضحكت ... تألق البرق من بين الحناديس[4]

فالراهب القس والمطران قد ذهلا ... عن الزبور، وعن ضرب النواقيس

قامت لهم تقرأ الانجيل واعظة ... برائق اللفظ في ألحان قديس

فابكت القوم فابتلت مهارقهم ... حتى امتحى بعض هاتيك الكراريس

أشرت للوصل أن صلي فما فهمت ... ولا فهمت من المعنى سوى ديسي

عاودتها الرمز فاهتدت مبهمة ... لكن أشارت بأن الضبي في الخيس[5]

فأودعت مهجتي من حبها حرقا ... يا حيرة القلب من تلك الوساويس

....

* * *

---

(1) منة الحنان المنان، الديسي، ص: 66 (مخطوط). الديسي: حياته وآثاره وأدبه. عمر بن قينة، ص: 292.

(2) احدى قرى الشرق من الجزائر.

(3) الشماسي هو خادم الكنيسة. ويجمع أيضا على شمامسة.

(4) الليالي الثلاثة الأخيرة من كل شهر قمري.

(5) تلك التي يصعب الوصول اليها، لأن الخيس هو الشجر الملتف. وغابة الأسد. (أنظر: الديسي: حياته، وآثاره، وأدبه. ص: 292).

2 ـــ من أقوال لسان حال (الجهل) يخاطب (العلم):

«أتفخر ببنيك الشّعث الغبر الذين ليس لهم عند أهل الدنيا اعتبار ولا قدر، ان خطبوا ردّوا وان عدّ الناس ما عُدُّوا، وان غابوا فما فقدوا، وان حضروا فكأنهم ما وجدوا، ما لهم شارة والا اليهم اشارة، ولا يرجع اليهم في استشارة..... قلوبهم منكسرة للغربة، وهم حلفاء كلّ محنة وكربة. لا ينفكّون عن تألّم، ويتجرّعون كاسات ذلّ التعلّم... هذا وأبنائي المترفون المنعّمون، والقوم الذين هم في العيون معظّمون، يتمتّعون بفاخر الأكل واللباس، وسواء عندهم ما باس به، وما به باس، فكم أجروا في الهوى أفراسا وزيّنوا ولائم وأعراسا وعمّروا القهاوي والحانات، وملأوا الاصطبلات والخانات، ولهم المعازف والعيدان والمغنّون والقيان، ولهم الليل وصهوات الخيل.... همّهم العسيلة والعسل، يحبّون العاجلة ولا يفكّرون في الآجلة، لا يعرفون غير هذه الدّار، ويقولون الى اللّذّات البدارا... فالزمان زماني، والناس خدّامي، والدهر عبدي وغلامي»[1].

* * *

3 ـــ جزء من رسالة (من الديسي الى عبدالقادر المسعدي)[2] بالجنوب الجزائري:

«فخر الواسطة ومن هو في عقد أدبائها وفضلائها الواسطة، المحبّ الودود والمرموق المودود العلامة سيدي عبدالقادر بن ابراهيم، منحت الفهم والتفهيم والتبجيل والتكريم.

---

(1) المناظرة بين العلم والجهل، الديسي، ص: 8 ـــ 11. مطبعة بيكار، تونس، بدون تاريخ. الديسي: حياته وآثاره وأدبه، عمر بن قينة، ص: 309 ـــ 310.
(2) رسالة مخطوطة.

بعد اهداء سلام ينافح داري دارين، ويباري كثرة رمال عالج ويبرين. أجمل من نعم بني سعد بن سالم إذا غدا وراح وألذ من راح تديرها بمهارة رداح ريّ الخلخال غرثى الوشاح... فلا زلنا لكم على حسن العهد وحفظ الودّ... الى أن تحرّك الذهن العليل والطبع الكليل الى ابتدائكم بالمكاتبة ومطارحتكم بهذه المفاكهة والمطايبة الى استخراج ما لديكم من اليواقيت التي هي الآن كاسدة في سوق السباريت ومجمع السحاتيت أعداء المعارف واللطائف وحلفاء الجهالات والكثائف...

فالحيّ حيّ القلب والبصير بصير اللّبّ... فلنكتف بالاشارة وعليك بسط العبارة، وحيث عدم الرفيق وأوحش الطريق وغاب الفريق، فنزّه طرفك وروّض ذهنك في تلك المهامه الفيح منابت القيصوم والشّيح، مراتع الظبا الكوانس ومرابع الخرّد الأوانس، هي الصحراء منابت العود الجامعة بين طيب الهواءين المقصود والممدود. ولتعلم أيها الصفيّ والخلّ الوفيّ أنّي كنت حضريّ المذهب مدريّ المشرب حتى اني نظمت الأرجوزة التوابية[1] في تفضيل من حضرن على من بدون... لكنّي رجعت عن مذهبي، وتحوّلت[2] عن ذلك مشربي»[3].

* * *

(1) نسبة الى بادية (تواب) في الناحية.

(2) الصحيح حوّلت. لتعدية.

(3) عن: الديبسي: حياته وآثاره وأدبه. عمر بن قينة. ص: 311 ــ 12. راجع سبب هذا العدول في نثري. صفحات: 312 ــ 313 من المرجع السابق. وكذلك هامش رقم 3 في صفحة 312.

مصادر ومراجع

(1) توهين القول المتين، الديسي، بدون تاريخ.

(2) المناظرة بين العلم والجهل، الديسي، مطبعة بيكار، تونس، بدون تاريخ.

(3) منة الحنان المنان، الديسي، (مخطوط).

(4) رسائله للمسعدي، الديسي، (مخطوط).

(5) الديسي: حياته وآثاره وأدبه، عمر بن قينة، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، بدون تاريخ. (واقعا كان صدور الكتاب في سنة 1980).

عاشور بن محمد بن عبيد الخنقي

1264 ــ 1344 هـ

1854 ــ 1929 م

عاشور بن محمد بن عبيد الخنقي

1264 ـ 1344 هـ

1854 ـ 1929 م

شخصية جزائرية عسكت جانبا مما كان يدور في المحيط الجزائري، وما كان يموج به من قضايا أواخر القرن الماضي وفي النصف الأول من هذا القرن، هي شخصية الشيخ (عاشور بن محمد الخنقي) نسبة الى (خنقة سيدي ناجي) في ولاية (باتنة) من علماء الفترة وشعرائها المجيدين، درس في الجزائر وتونس، وعلّم في كل من مدينة (قسنطينة) و (زاوية الهامل) فمن هو الشيخ عاشور؟ وما هي أعماله؟

المصدر الأساسي الأول عن حياته العلمية والتعليمية ترجمته هو لحياته في آخر قسم من كتابه «منار الأشراف»[1] مع اضافة ما في المقدمة وثنايا الكتاب من معلومات خاصة وعامة.

فقد ولد (عاشور) في قرية (الخنقة) المعروفة بـ(خنقة سيدي ناجي) في الثالث عشر صفر، سنة 1264هـ. وقد وصفها بـ«مسقط رأسه ومستقرّ أهله وناسه... أمّ قرى الزّاب الشرقي من أحواز قسنطينة»[2] وقد نشأ فيها يتيما فقيرا، وحفظ القرآن في نحو التاسعة من عمره، ثم اتجه الى مدينة

---

(1) منار الأشراف، على فضل عصاة الأشراف ومواليهم من الأطراف. عاشور بن محمد الخنقي، المطبعة الثعالبية بالجزائر، سنة: 1332هـ 1914م.
(2) المصدر السابق، ترجمة المؤلف، ص: 2.

(نفطة) بتونس، وقد كانت فيما يبدو حافلة بعلماء اللغة والدّين، نشيطة في حركتها التعليمة السلفية، فتردّد على مواقع تعليمية مختلفة ودرس على شيوخ كثيرين. كان من بينهم: (محمد المدني بن عزّوز) و (محمد الصالح العبيدي الحمادي) و (ابراهيم بن صمادح النفطي). وبعد أكثر من عشر سنوات قضاها في التعلّم وأجيز فيها من شيوخه عاد الى قريته (الخنقة) آملا أن يفيد فيها بعلمه وعمله فإذا الناس راغبون عن طلب العلم، فشكا (عاشور) حاله طيلة ستة شهور، عانى فيها الفقر، بل الأذى والاهانة، ممّا جعله يشدّ الرحال الى مدينة (قسنطينة) للاقامة والتعليم حيث قضى ثلاثين سنة وتزوّج أكثر من امرأة واحدة وأنجب، زاول التدريس الحرّ متجنّبا الوظيف الرسمي (في دولة الاحتلال الفرنسي) التزاما بوصية أحد شيوخه الذي قال ناصحا: ينبغي ألاّ يتولّى أحد «من تلامذتي الوظيف حتّى لا يتلوّث علمي بما يقتضيه هذا الوقت السّخيف ولا سيما أنتم يا طلبة الغرب»[1] الاسلامي، أي الجناح الغربي من الوطن العربي والعالم الاسلامي.

غير أن الحزّازات الشخصية والخصومات المذهبية والخلافات الخاصة جعلت حياة (عاشور) تتعكّر في (قسنطينة) أيضا، ويبدو أنه تعرّض لحصار ما لتشيّعه المتطرّف فانصرف عنه الطلبة، فعاش في ضيق نفسي ومادّي خانق، لم يخرجه منه الا العون الذي صار يقدّمه له قاضي محكمة (القل) الشيخ (عبدالقادر بن رزيق) ربما لما يجمعهما من ميول مذهبية زيادة على العامل الانساني.

في (قسنطينة) يذكر (عاشور) أنه التقى الشيخ (محمد بن الحداد) المبعد الى مدينة (قسنطينة) أيام ثورة 1871 بقيادة المقراني الذي استشهد

---

(1) المصدر السابق، الترجمة، ص: 13.

فيها، وذكر أشياء عن صلة (ابن الحداد) بالثورة، كما ذكر كلاما عن الشيخ (الحداد) خاصة رأيه فيما يتعلق بالأهمية التي تصير لمؤسس الزاوية في الهامل، وهو ما أغرى — فيما يبدو — الشيخ عاشور بالسفر الى هذه الزاوية حيث رحّب به شيخها المؤسس (محمد بن أبي القاسم( )) خاصة عندما عرف صلته بالشيخ (ابن الحداد).

في هذه الزاوية تولّى (عاشور) التدريس، ويذكر أن شيخ الزاوية رغب اليه «أن يعلّم طلبة المقام ثلاثة علوم، علم العروض وعلم القوافي وعلم المنطق المعلوم، قائلا له: أوّلا أن أعلم هذه الأقطار المتعددة لا يعرف من هذه العلوم إلاّ أسماها المجردة، وثانيا: أن سندك المتصل مباشرة الى شيخك علاّمة الدنيا ومفتاح الرموز: أبي عبدآلله محمد المدني بن عزوز أعلى أسانيد الأمة»(1).

وهكذا أصبح الشيخ (عاشور) مبجّلا في الزاوية مخصّصا قصائده الطوال في مدح شيخها (محمد بن أبي القاسم) بالخصوص، وفي هذه الفترة توفيت زوجته (بيّة) التي صحبته في الحضور الى الزاوية، وقد أثنى عليها ثناء طيّبا: لعلمها وورعها وأخلاقها، لكن ذلك لم يجعله يشعر بوحشة قاسية كما شعر بها بعد وفاة الشيخ (محمد بن أبي القاسم) ثمّ وفاة خليفته وابنته (السيدة زينب) التي لم تغيّر شيئا من مخصّصات (عاشور) التي قرّرها له أبوها، بل أضافت اليها، وبعد وفاة ذلك سنة 1315هـ ثم وفاة هذه سنة 1323هـ على عهد أبناء عمّها الخمسة الذين أتوا بعدها قطع راتبه وأحسّ بجفوة أوّلها (عاشور) بما لخصومه الحسّاد من دور في صدّ هؤلاء الشيوخ

( ) أنظر تعريفا موجزا بالشيخ (محمد بن أبي القاسم) في موضوع (محمد بن عبدالرحمن الديسي).
أنظر في ذلك أيضا بشكل أخص كتابنا «الديسي: حياته وآثاره وأدبه» الشركة الوطنية للنشر والتوزيع. الجزائر. بدون تاريخ. (واقعا: 1980).

(1) المصدر نفسه. الترجمة، ص: 26 — 27.

عنه. ولعلّ ذلك يرجع أيضا لما بات عليه (عاشور) من غرور وما كان يدمنه من غلّو في المديح، زيادة على طبعه العدائي الذي يجعله يرفض أن ينافسه في المكانة أحد، حتى ولو كانت منافسة مشروعة شريفة اطارها العلم والثقافة عموما.

من هنا أيضا — ربّما — كان التجاهل الكبير لعاشور، تجاهله معاصروه وبقي مجهولا لدى المتأخرين بينما نال الاهتمام من هم دونه مستوى من الشعراء والعلماء، تعريفا بهم ودراسة حتى من أولئك الذين لم يخلّفوا سوى أعمال ضئيلة كمّا ونوعا. كما أسهم اتّجاهه الطرقي المتطرّف في ولائه في شيء من هذا التجاهل على المستوى الفكري لدى المعاصرين له والمتأخرين، رغم اعتراف (عبدالحميد بن باديس) نفسه بامكاناته الفكرية ومستواه الشعري الجيّد الذي يؤهله للقب (أمير شعراء الجزائر)[1] وهو حكم يرتبط بمرحلة متقدّمة لها مميزاتها على مستوى العلاقة بين الطرقية والحركة الاصلاحية من جهة والحركة الأدبية من جهة ثانية خاصة قبل فترة الثلاثينات من هذا القرن.

وبقدر ما نعم (عاشور) برضى (الشيخ محمد بن أبي القاسم) وعونه بقدر ما عرف أيضا الظروف القاسية قبلا وبعدا من فقر وضيق عيش وتجاهل لاحقه حتى بعد مماته، وممّا يبرر شيئا من التجاهل في حياته اضافة الى ما سبق وغيره: حساسيات المعاصرة وما تلعبه العلاقات الخاصة من دور، بما فيها «المؤامرات» الأدبية في تلميع شخص وابرازه وممارسة الحصار والصمت كمؤامرة على آخر، و «تغييب» ثالث خاصة حين يكون المناخ الثقافي غير صحي، هذه «المؤامرة» تكون أكثر ضراوة في تضييق الحصار على المعنيّ وحشره في الظلام حين يكون مستواه فوق آخرين أو يهدّد أشخاصا معيّنين لا يملكون مقومات الأصالة والصّمود.

(1) الشعر الديني الجزائري الحديث، د. عبدالله ركيبي، ص: 720. الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، سنة 1401هـ — 1981م.

أما التجاهل بعد مماته فهو أقرب الى الجهل، كما أنه نتيجة لسابق. لقلة المصادر التي كتبت على الرجل بل انعدامها. لذا تبقى من مهام الباحث الجزائري الاهتمام بكل الجوانب في تراثنا، والعناية الشاملة بأعلام الثقافة والفكر والأدب فيه مهما كانت مذاهبهم الفكرية وميولهم الخاصة، من دون أن يمنع ذلك من وضع كل شخص في موضعه الصحيح بتسجيل ماله وما عليه حسبما يمليه منهج البحث النزيه.

وان كان لي موقفي غير الطيب تجاه مدائح (عاشور) الطرقية وغلوه فيها بالخصوص الى درجة أساء فيها الى نفسه وعقيدته الدينية فانّ ذلك لا يمنعني من تقدير جهده الفكري ومستواه الأدبي واحترامه واضعا في الاعتبار كل الظروف التي هيأت لحبّه الطرقي وأشعلت جذوته فجعلته يبالغ فيه الى درجة ملك فيها عليه نفسه، فمضى يندفع في التيار اندفاعا أخرجه عن حدود العقل والمعقول.

ورغم المستوى العلمي والثقافي الجيد للشيخ (عاشور) ذي الاطلاع الواسع في معرفته وحتى حفظه عن ظهر قلب كثيرا جدا من المتون وأمّهات الكتب مثل كتاب (الأغاني) المعروف فانّ انتاجه كان قليلا بالنسبة الى ذلك ممّا قد يرجع لعوامل مختلفة من بينها ــ ربما ــ عدم الاستقرار المادي والنفسي، وتكرار الهزّات في حياته الخاصة، صدمته في (الخنقة) واستحكام عدائه مع البعض، وانصراف الطلبة عنه في (قسنطينة) وفقده بعضا من أفراد عائلته، من بينهم زوجه الأثيرة (بيّة) العالمة الفاضلة كما يصفها،، وكذا تعرضّه للسجن أكثر من مرّة خاصة في سجن (تاعظميت) الذي مكث فيه تسعة شهور قاسية في ظروف لا تزال ــ بالنسبة لي على الأقل ــ غامضة.

ولعلّ أهمّ ما بقي معروفا حتى الآن من آثار الشيخ (عاشور) عملان اثنان: أولهما ديوانه الشعري الضخم الذي لا يزال مخطوطا، وثانيهما كتابه المعروف (منار الأثراف).

أما ديوانه الشعري فيضمّ أشعاره المختلفة التي يحتل فيها المدح مكانة أولى متميّزة جدا، ليس بالموضوع فحسب بل حتى بنوعية القصائد المديحية وكثافتها التي يبلغ بعضها خمس مئة بيت مثل قصيدته (بانت سعاد) في مدح (الشيخ محمد بن أبي القاسم) ومنها ما يبلغ ست مئة بيت كقصيدته (سيوف الأصحاب على رقاب الأحزاب) ويقلّ حجم القصيدة التي تكون في مدح أشخاص آخرين علماء أو غيرهم.

طبعا، يضاف الى هذا شعره في الأغراض الأخرى، من بينها الجهاد خاصة في الردّ على خصوم مذهبه، غير أن سمة المديح تبقى تبسط ظلها المديد على شعر (عاشور). سمة المدح هذه تأخذ طابع الحصر في كتابه الذي أعطاه عنوانا مثيرا ومزعجا على المستوى الديني نفسه، حين جعل لعصاة آلله فضلا كبيرا، ذنوبهم مغفورة وعداؤهم شر على صاحبه لمجرّد النسب، هذا العنوان هو بنصه الطويل الكامل: «كتاب منار الأشراف على فضل عصاة الأشراف ومواليهم من الأطراف» وقد كتبت موادّه في فترات متباعدة، ثم نشر في المطبعة (الثعالبية) بالجزائر، سنة 1332هـ ـــ 1914م.

وإذا كان الجانب الشعري فيه لا يخرج عن اطار شعره الآخر ـــ مديحا أو هجاء ـــ فان القسم الخاصّ بالنثر ذو أهمية، خاصة في المقدمة، ثم بشكل أخصّ في الفصل الأخير للتعريف (بعاشور) نفسه.

تصدّر الكتاب مقدمة عن الشرف والأشراف تضمنت أيضا قصيدة في مدح الشيخ (محمد السعيد بن أحمد بن زكري)[1] تلتها المنظومة الأولى

---

(1) محمد السعيد بن زكري، 1267 ـــ 1332 ه ـــ 1851 ـــ 1914م المدرّس بالجامع الكبير في الجزائر العاصمة، ومفتي المالكية فيها (من سنة 1908) وصاحب كتاب: «أوضح الدلائل على وجوب اصلاح الزوايا ببلاد القبائل». انظر صفحة 67، من مجلة كلية الآداب، العدد: 1، السنة: الأولى، 1964 الجزائر. وذلك من موضوع (النهضة العربية بالجزائر) وكذا مقدمة (منار الأشراف).

في مدح الشرف والأشراف في سبع مئة وثلاث وثلاثين بيتا أسماها القصيدة الكبرى مع عنوان أطول هو: «حسن الأمل في فضل الشرف المجرّد عن العمل» يردّ فيها في الوقت نفسه على المصلح الجزائري (الصالح بن مهنّا القسنطيني)[1] الذي لا يرى أدنى قيمة لشرف بلا عمل بنصّ الأحاديث النبوية نفسها، وقد اختصر الشيخ (عاشور) هذه القصيدة في أخرى أسماها (الصغرى) أو «كشف الخفا عن فضل عصاة الشرفاء» ثم تلتها ثالثة خمّس فيها الصغرى، وألحقها برابعة اختصرت الصغرى. كل ذلك اعجابا بموضوعه وتعلّقا بحبّه الذي ملك عليه أمره وأخرجه عن طوره، وممّا جعل زميله الشيخ (محمد بن عبدالرحمن الديسي) يتصدّى له بعنف بكتاب نقدي لاذع في نحو ثلاث مئة صفحة أسماه «هدم المنار وكشف العوار»[2] وقد كانت الفترة الفاصلة بين كتابه هذه المنظومات تقدّر بنحو خمس عشرة سنة، فبينما كتب الشاعر المنظومة الأولى الأساسية في شهر (شعبان) من سنة 1313هـ انتهى من الأخيرة في (رجب) من سنة 1328هـ .

وقد اتخذ الشيخ (عاشور) له لقبا عجيبا هو «كليب الهامل» على سبيل المبالغة في التّواضع الممقوت ممّا جعل الديسي يصفه بأنه فعلا «كلب عقور» و «الكلب العقور يقتل في الحلّ والحرام» ولذا خصّه الديسي برسالة تعريض أخرى أعطاها عنوانا هو «الساجور للعادي العقور عاشور»[3].

تلا هذا القسم الشعري حديثه في القسم النثري عن الشرف في موضوع أسماه (مقدمة الشجرات) في سبع وعشرين صفحة تزكّي بشكل آخر ما ذهب اليه في المقدمة والقصائد الأربع، ثم عاد الى الشعر بقصيدتين

---

(1) الصالح بن مهنّا من علماء الجزائر الذين درسوا في الأزهر، وممّن تولّوا الافتاء في الجامع الكبير بقسنطينة.

(2) انظر حديثا عن الموضوع في (الديسي: حياته وآثاره وأدبه) عمر بن قينة، ص: 50 — 60 وغيرها، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر.

(3) المرجع السابق، ص: 49.

اثنتين، تحت عنوان (الخاتمة). وإذا كانت الثانية في مدح شخصية من (برج بوعريريج) فانّ الأولى هجاء وتعريض بالشيخ (صالح بن مهنّا) في حملته على بعض الأشراف الذين يغرّهم النسب فيهملون العمل ويرتكبون الآثام، مما دفع (عاشورا) الى كتابة منظوماته في الشرف العلوي والأشراف.

وإذا كانت هذه المنظومات مثل معظم شعره تتسم عموما بالقوة والجزالة وتعكس موهبة جيّدة وتمكّنا في اللغة واجادة التعبير والتصوير فانها من ناحية المضمون متهافتة جدا، لأن الولاء الأعمى جعله يدمن تعصّبا فظيعا يتنافى مع الأخلاق والدين وكرامة الانسان.

ومهما يكن من أمر اتجاهه الفكري فانه على المستوى الفنّي: له — خاصة في المدح والوصف عموما — قدرة عجيبة على اقامة سلسلة مستحكمة من الأوصاف والألقاب تتراصّ فيها الكلمات والصور وتتنوع الصيغ مع كثير من القوة والطلاوة والرونق في قالب من الأبهة والفخامة.

فخامة العبارة وصخبها، وحشد الأوصاف المتلاحقة المتراصّة صفة مميّزة في شعر (عاشور) ونثره، خاصة حين يتعلق الأمر بمدح وثناء في موضوعه الأثير.

أي بشكل أخصّ حين يتعلّق الأمر بولائه المذهبي، أو بمواهبه ومواهب ممدوحيه الأشراف و «مآثرهم» و «مآثره».

وإذا كان نثره الجيّد المحكم في (منار الأشراف) يكرّر بشكل ما عموما منظوماته: تقديما لها أو تعقيبا أو تعليقا فان الاضافة المتميزة فيه حقّا هي ترجمة حياته في القسم الأخير، ومن هذه الترجمة — اضافة الى ما في المقدمة — عرفنا أشياء كثيرة تتعلّق بحياة المؤلف ومحيطه يومئذ، فقد أطّلعنا على مراحل تعلّمه وكذلك تعليمه، كما اطّلعنا على جوانب مختلفة من حياته الخاصة بما فيها تعرضه للسجن في سجون مختلفة، خاصة سجن «تاعظميت»

طيلة تسعة شهور، أفرج عنه بعدها منه بوساطات فيما يبدو، منها وساطة صاحبة زاوية (الهامل) السيدة (زينب بنت محمد بن أبي القاسم) ووساطة الشيخ (محمد السعيد بن زكري).

وقد كانت فترات سجنه ذات أثر في نفسه، تحدث عنها في مقدمة كتابه (المنار) وفي نهايته في قسم التعريف، فوصف سجنه في الموضعين وصفا جيدا ترجم عمّا كانت تعتمل به نفسه من أحاسيس إبّان ذلك فقال «تكاد ظلمته تذهب بالأبصار سواء عليّ ليله والنهار منفردا، لا أحسّ فيه الا بدبيب الفار على أنه بيس الجار وكرّة في شرّ السجون الذي يسمّونه تعظميت، ويقال: انه سجن العفاريت، بين مساجين من أشرار الأجلاف من أخلاط البوادي والاحلاف»(1).

وتبقى هذه النقطة في حياة الشيخ (عاشور) غامضة. فمتى سجون بالضبط؟ وما هي الظروف؟ بل ما الملابسات؟ لماذا صمت عن ذكرها تفصيلا؟ ــ رغم أنه لمّح تلميحا خفيفا غير كاف وليس مقنعا عرضا لسبب يتعلق بدفاعه عن انتمائه المذهبي، أفي بعض حيثيات الادانة ما يشين؟ أم لم تسمح ظروف الاحتلال بالأقدام على نشر ذلك؟ أم غير هذا من أمور أخرى تبقى مجهولة، كما تبقى كثير من الملابسات الأخرى المختلفة في حاجة الى البحث والدراسة في الجانب التاريخي والفكري والأدبي فيما يتعلق بالخصوص بالحركة الثقافية في هذه الفترة التي عاشها (عاشور) المتوفى سنة 1344 هـ ــ 1929م فعكس موقفه وموقف خصومه أيضا ما كانت تمور به الحياة الثقافية، بما فيها الاختلاف في وجهات النظر بين الطرقية والحركة الاصلاحية في هذه الفترة المتقدمة من النهضة الجزائرية الحديثة.

---

(1) منار الأشراف، عاشور، ص: 26 من المقدمة (الخضة).

نماذج من انتاج (عاشور)

1 ــ من (القصيدة الكبرى) ردّا على (ابن مهنّا) واشادة بمذهبه (الفاطمي ــ العلوي):

والسّيد السّند الحسين بـن علي ... من آل فاطمة ابنة البّر الأبـرّ[1]
روح الوجود محمّد النور الـذي ... لولاه ما انفتح الوجود ولا ظهر
من هو أكرم شجرة هي حملها ... وعليّ هـو لقاحها وهما الثمـر
وأحبـة الشرفـاء هـم أوراقهـا ... والكلّ حقّا في الجنان كما ذكـر
والمبـغضون لهم وهـم مفهومـه ... في النار عنه روى ابن عباس الخبر
بل جاء فيها عنه فاطمة ابنتـي ... روحي الذي ما بين جنبيّ استقر
أرضى إذا رضيت وان غضبت على ... أحد غضبت وكيفما غارت أغر

....

وبفضلهـا مـع آلها ومحبّهـم ... شهد الكتاب وجاء منتشر الأثـر
وبه أقرّ الكون مذ كانـوا الى ... يوم اللّقاء وان تعاطوا كلّ شر
يأتـون يـوم الحشر مغفـورا لهم ... من غير كسب، بل على الشرف الأحرّ
رغمـا لأنـف ابـن المهنّـا صالح ... في سبّه لأبي الهدى فيما شكـر
في ضوئـه شرف التّقـيّ وغيره ... منهم فجهّلـه وشيّعـه وضرّ
واشتدّ حتـى قـال في تهويلـه ... ان لم أقل بعد التشيّع ذا كفر
وقضى على الشرف المجرّد من تقى ... بسقوطه مـن أصل عين المعـتبر
وعلى (الرّضى) عمّ الرسول أبي علي ... بالكفر حتى زاد أدهى، بل أمر

* * *

(1) منار الأشراف، عاشور، ص: 55 ــ 56.

2 ــ في المقدمة (الخطبة) من (المنار) يتحدث (عاشور) عمّا عانى من مضايقات وتهم استعجلته عن تنتقيح كتابه، حين انتهت به الى (النّفي) والسّجن[1]:

«استعجلني على ذلك مصيبة النفي والتّغريب، واسترهقتني عليه مشيبة السجن والتعذيب مدة سبعة عشر عاما أو تزيد أشهرا وأياما (؟!) بموجب هذا المجموع الشريف وشدّة الذّب عن حرم أهله المنيف، بإغراء ذلك الدّجّال الضّالّ وأشياعه على ذلك الضلال، ولأة الأمر اليوم من أهل دولة الفرنسيس بما افتروه عليّ وأضافوه الّتي من أراجيف التدليس على وجه التغليط والتلبيس، ومن ذلك العهد لم تزل طوائح الدهر تطوّح بي من وطن الى وطن على سبل القهر، تارة في شرّ قرية على أشدّ رزية... فمرّة في سجن ظلمات بعضها فوق بعض، على غاية كراهية ولأته لي فيه ونهاية البغض، تكاد ظلمته تذهب بالأبصار سواء عليّ ليله والنهار منفردا لا أحسّ فيه الا بدبيب الفار على أنه بيس الجار، وكرّة في شرّ السجون الذي يسمّونه تعظميت، ويقال انه سجن العفاريت، بين مساجين من أشرار الأجلاف من أخلاط البوادى والأحلاف، لا يحوم حولهم حياء ولا خجل، ولا يعتريهم خوف ولا وجل، عبادتهم: هراش وسباب وزجل، يبيعون ربع خبزة بنفصها، ونصفها بخبزة الى أجل، وبالجملة فما أجدر أكثرهم أن يرذع أو يوكف والقصة معهم أعظم من أن توصف... الى أن تفضّل آلله الملك العلام منذ عامين ونصف عام بالسّراح الجميل التام المطلق العام على يد الأسد الضّرغام أحد الأشراف العظام وأوحد العلماء الأعلام، أكمل أهل النّهي اليوم والأحلام، البحر الفياض ومجمع المقاصد والأغراض أبي المكارم وحمّال المغارم خلف الأشراف وشرف الأحلاف، شيخ الاسلام في عاصمة الجزائر ومفتي السادة المالكية في هاتيك العشائر والمزائر، وقبلة المقيم بها والزائر أبي عبدآلله العلاّمة الشيخ محمد السعيد بن أحمد سليل المقام الأحمد والجناب الأصمد... أبي العباس مولانا الشيخ أحمد ابن زكري».

---

(1) المنار، عاشور، صفحات: 22 ــ 24، ثم ص: 26، ثم ص: 28 ــ 29.

3 ــ ويتحدث عن صاحبة زاوية (الهامل) السيدة (زينب) بنت الشيخ (محمد بن أبي القاسم)[1]:

«على قدم والدها سارت مع المؤلف في مواساته فضلا عن معلومه بما زالت به عنه جميع همومه، وناهيك أنها أحلّت فيه على ولاة الأمر وهو في السجن المعروف بتعظميت، ويقال انه سجن العفاريت أن يرحموا ضعفه ولا يكلّفوه بالخدمة، فأراحوه ورحموه غاية الرحمة، وفي الشهر التاسع له فيه ألحّت عليهم أن يسرّحوه على شرط الضّمان وأن يكون في جوارها على الأمان، فأنعموا لها بذلك في أقرب الأحيان، وبقي في جوارها نحو عامين على غاية الانعام، وكتبت له في معلومه توكيدا لما رسمه والدها القطب الهمام بخط يدها رسما شرعيا ثانيا على غاية الأحكام، ولحقت بوالدها الى دار السلام بسلام، ليلة الحادي عشر من رمضان عام 1322هـ ... تغمّدها ٱلله برحمته على الأمام والخلف، وتولّى المقام بعدها بعض تلامذة المؤلف حسبما قدّم وأخّر عن أولاد عمّها الخمسة الأكبر فالأكبر، ولا يعلم المؤلف منهم ٱلاّ ما يعلمه الصائغ من تبر الذهب الأحمر، وان صدّهم عنه بعض مردة الحسدة من الناس، حتى قطعوا عنه معلومه من مال الأحباس، وتأوّلوا لهم فساد رسمي القطب وبضعته فيه أصحّ الرسوم، وعند ٱلله تجتمع الخصوم».

* * *

(1) المنار، عاشور، ص: 37 ــ 38 (الترجمة) في آخر الكتاب.

مصادر ومراجع

(1) منار الأشراف على فضل عصاة الأشراف ومواليهم من الأطراف. عاشور بن محمد الخنقي. المطبعة الثعالبية، الجزائر، 1332هـ — 1914م.

(2) الديسي: حياته وآثاره وأدبه، عمر بن قينة، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1980م.

(3) الشعر الديني الجزائري الحديث، د. عبد الله ركيبي، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1401 هـ — 1981م.

(4) مجلة (كلية الآداب) — جامعة الجزائر — العدد: 1، سنة: 1، 1964م.

أبو القاسم محمد الحفناوي

1269 ــ 1361 هـ

1852 ــ 1942 م

أبو القاسم محمد الحفناوي

1269 ــ 1361 هـ

1852 ــ 1942 م

أبو القاسم محمد الحفناوي من الذين عاشوا في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، والنصف الأول من القرن العشرين، درس في عدّة أماكن وتولّى التدريس الذي كان معظمه بالجامع الكبير في الجزائر العاصمة ابتداء من سنة 114 هـ ــ 1897م، كما تولّى مهمة الافتاء المالكي بنفس المدينة ابتداء من سنة: 1355 هـ ــ 1936م أي قبل وفاته بنحو ستّ سنوات. وقد عرف بأثر هام اشتهر شهرة واسعة هو كتابه: «تعريف الخلف برجال السلف»(1) الذي كان من الجهود الجيّدة أفاد الدّارسين والباحثين ولا يزال من المراجع الهامة في ثقافتنا الوطنية العربية الاسلامية. فمن هو (الحفناوي) وما هي جهوده الثقافية؟

ولد (أبو القاسم محمد الحفناوي) في أسرة ذات اهتمام بالعلم بقربة (الديس) قرب (بوسعادة) سنة: 1269 هـ ــ 1852م من أب تعلّم في عدّة جهات وعلّم في زوايا ومدن بالجنوب، كان الحفناوي واحدا من أربعة اخوة له وسبع أخوات، تعلّم على يد أبيه كما درس في زاوية (ابن أبي داود) بتاسلنت قرب (آقبوا) وكذلك زاوية (علي بن عمر) في (طولقة) التي كان أبوه معلّما فيها لأبناء الزاوية، كما درس في زاوية (الهامل).

---

(1) تعريف الخلف برجال السلف، الحفناوي، صدرت الطبعة الأولى في حياة المؤلف عن مطبعة (فونتانه) ــ الجزائر، سنة 1324هـ ــ الموافق سنة 1906م. ثم صدر الكتاب من جديد سنة 1982م عن (مؤسسة الرسالة) في (بيروت) بالتعاون مع المكتبة العتيقة) في (تونس). وصدرت الطبعة الثانية عنهما سنة: 1405 هـ ــ 1985م. وقد آثرنا الاعتماد على هذه الأخيرة لقرب تناولها لدى القراء اضافة الى أن الأمر لا يعدو في حقيقته أن يكون تصويرا للكتاب (!).

عاش في بيئة ذات اهتمام علمي، فاحتكّ احتكاكا مباشرا بالحياة الثقافية في منطقته وفي غيرها، حيث كان الاهتمام بالتراث: احياء ودراسة ظاهره متميزة في تلك الفترة بالجزائر غير مفصولة عن الظاهرة في المشرق العربي خاصة في أوائل النهضة.

وقد بدأت مرحلة جديدة من حياته في الجزائر العاصمة حيث تولّى التدريس بالمسجد الكبير ابتداء من سنة 1314هـ ـــ 1897م. وفي هذه الفترة قرّبته الادارة الفرنسية للاستفادة من ثقافته ومكانته للمشاركة بالكتابة في الجريدة الرسمية «المبشر» وهي «أول جريدة عربية في المغرب العربي»(1) التي استمرت من سنة 1847 الى 1926، مدة اثنتي عشرة سنة، وكان مقرّبا من مديرها (السيد: أرنو) الترجمان بالولاية العامة، وقد أثنى عليه الحفناوي، لأنه كما يذكر استفاد منه علما، فقال عنه: «هو شيخي في العلوم العصرية، ومعلّمي في فهم اللغة الفرنسوية ومساعدي على طلبها، وبتربيته العقلية والعلمية ارتقيت الى درجة افتخر بها... ونلت منه معارف كثيرة، لأنه... كان لا يتكلم الاّ بحكمة ولا يسكت الاّ لها... ولم أر منه سوءا في قول أو فعل أو حال»(2). كما تولى الشيخ (أبو القاسم الحفناوي) وظيفة الافتاء المالكي في آخر حياته (1355هـ ـــ 1936م) حيث كانت وفاته سنة: 1361ه ـــ 1942م بعد حياة علمية نشيطة حسب أيامه، جعلت الأستاذ (سعد الدين بن أبي شنب) يقول: «كان رحمه الله كلفا بالعلوم على مختلف أنواعها من دينية ودنيوية، وكان كاتبا بليغا وشاعرا مجيدا كثير التدقيق والتنسيق، ذاكرا للتاريخ باحثا محقّقا، لازم التدريس فلم ينقطع عنه مع تخطّي الثمانين»(3) فكان نتاج هذه الرحلة في الحياة بعض الآثار التي تذكر،

(1) الصحف العربية الجزائرية، من 1847 الى 1939. د. محمد ناصر، ص: 19. الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1980م.
(2) تعريف الخلف الحفناوي، هامش، رقم: 2، القسم الثاني، ص: 409.
(3) النهضة العربية بالجزائر في النصف الأول من القرن الرابع عشر للهجرة. سعد الدين بن أبي شنب، مجلة كلية الآداب، ص: 48. العدد الأول، السنة الأولى، الجزائر 1964.

فمنها دفعات من الطلبة والدارسين الذين تلقَوا عنه، ومنها بشكل أخصّ آثاره الفكرية التي لا يزال بعضها ــ بدون ريب ــ مخطوطا ومجهولا لهذا السبب عينه، بينما نشر بعضها الآخر، فما هي أهمّ هذه الآثار باختصار شديد؟

.

أولا ــ ينبغي أن نذكر كتاباته العامة، ومنها نشاطه الصحفي الخاص بالكتابة في جريدة (المبشر) وليست الكتابة أصلا في هذه الجريدة ذات قيمة، كما أنه ليست الأهمية للجريدة الهزيلة التي توّجهها ادارة الاحتلال لكسب ودّ الجزائريين، بل لكون الأقلام الجزائرية القليلة التي كتبت فيها اهتدت الى «شيء جديد يقال له الصحافة، ولعلّها قد أفادتهم علما بمقالاتها التعليمية التي حاول كتّابها تبسيط بعض القضايا العلمية، مثل الحديث عن الشمس والقمر، والرياح، وكيفية تربية الغنم، وزرع بعض الخضروات»[1]. ولعلّ في هذا الاطار: كتب (الحفناوي) رسائله الثلاث ذات المظهر العلمي التي نشرتها مطبعة (فونتانه)[2] بالجزائر، وهذه الرسائل هي (رفع المحل في تربية النحل) و (القول الصّحيح في منافع التلقيح) و (الخير المنتشر في حفظ صحة البشر) وربّما هدف الحفناوي من وراء هذه الرسائل الى «لفت أنظار مواطنيه الى منافع بعض اكتشافات العلم الغربي الحديث، ولا شكّ أنه اقتبس مضمون تلك الرسائل في غالب الأحيان من كتب فرنسية كان يترجمها له موظفو الولاية العامة ترجمة حرفية، فيلبسها الحفناوي ثوبا عربيا، وأرجح الظنّ أن تلك الأعمال التي كانت ترمي الى أن الجزائريين يسايرون عصرهم لم تنفذ في الأمة نفوذا يذكر، لأن الأمّة لا تعبأ بالمنشورات الصادرة عن الولاية العامة ولو بطريقة غير مباشرة، لا في ذلك ولا في غيره من العصور...»[3].

---

(1) الصحف العربية الجزائرية، د. محمد ناصر. ص: 19.
(2) بتموين من الولاية العامة.
(3) النهضة العربية بالجزائر، سعد الدين بن أبي شنب، مجلة كلية الآداب. ص: 48.

ثانيا ــ النوع الثاني من آثار الحفناوي رسائله الى بعض العلماء في بعض الأمور العلمية والتاريخية والأدبية، وهو يجمع مادة كتابه (تعريف الخلف برجال السلف) وفي عمله: مدرسًا ومفتيا، يضاف الى ذلك منظوماته الشعرية، مما ينتظر الكشف عنه، وهي مسؤولية أقاربه والباحثين معا حين تتوفّر الظروف (المناخية) الصحية الملائمة للبحث الهادىء الشامل العام في سائر الأمور، في اطار التعاون الخالص والتفاهم الصادق.

ثالثا ــ أمّا العمل الأكثر جدية وجدوى والذي انعكس فيه جهد (الحفناوي) حقا وقدّم به خدمة لوطنه كما خلّد ذكره هو كتابه (تعريف الخلف برجال السلف) الذي حاول فيه ابراز المساهمة الجيّدة لعلماء الجزائر ومثقّفيها وبعض زملائهم في المغرب العربي ممّن كانت لهم مساهمتهم الثقافية في أمّتهم، فجسّدوا بذلك حضورها الحضاري في المسيرة التاريخية للثقافة العربية الاسلامية، تجسّد ذلك في (أربع مئة وسبع عشرة شخصية) عرّف بها (الحفناوي) في كتابه من أجل ابراز مكانة الجزائر الثقافية ودور رجالها من العلماء عبر القرون، فشمل ذلك كل ما استطاع الوصول اليه منذ القرون الأولى للحضارة العربية الاسلامية حتى أيامه.

قال (الحفناوي) في مقدمة كتابه هذا: «ان القطر الجزائري قد اجتهد قديما في طلب العلم بجميع أسبابه، وأتاه من سائر أبوابه، ووقف على معقوله ومنقوله، فتمكّن من أصوله وفصوله، وكان لعلوم وقته جامعا ولرايتها رافعا مثل أخويه المغربين: الأقصى والأدنى، فظهر في الأقاليم بدره واشتهر في التاريخ قدره».

فما هو المنهج الذي اتبعه (الحفناوي) في اعداد كتابه؟

أول ما يلفت النظر أن الأسماء موضوع التعريف لم ترتّب ترتيبا علميا دقيقا، فلم يرتّب الأعلام حسب العصور ولا التزام بترتيب معجميّ مضبوط، فوقع كثيرا في الخلط، هذا الخلط يتضح مثلا في الأسماء التي

تبدأ بالعين أو بالقاف أو بالميم وهي ترد بعد الأسماء التي تبدأ بالألف لكنها تتقدم الأسماء التي تبدأ بـ (ابن).

ولعلّ من أسباب ذلك طبيعة الأسماء التي قد ترد في أكثر من صيغة بناء على اللقب العائلي أو النسبة الى المنطقة أو الاسم الشخصي، مما كان يتعيّن على المؤلف تجاهه أن يفصل في الأمر باعتماد طريقة معيّنة: الاسم الشخصي، أو اللقب (وهو الأفضل) أو النسبة، أو اسم الشهرة.

هذا عن ترتيب الأسماء الذي لم يكن دقيقا، فماذا عن طريقة العمل نفسها؟

مما لا شك فيه أن تأليف هذا الكتاب كلّف المؤلف جهدا كبيرا جدا، في الرجوع الى المصادر والمراجع المخطوط منها والمطبوع بحثا عن مادة كتابه وجمعها، هذا بالاضافة الى اتّصالاته مع بعض علماء عصره ومثقّفيه في القطر ومراسلاته مع بعض آخرين ليفيدوه بمعلومات عنهم هم أنفسهم أو معلومات عن سابقين أو معاصرين. وعندما وصل الى التحرير نحا النحو التالي: يسجل الاسم موضوع التعريف وسط السطر، يتبعه بذكر المصدر أو المرجع الذي أخذ منه التعريف محصورا بين قوسين مزدوجين، وحين تكون الترجمة واردة في مصدر أو مرجع آخر يضيف ذكره مقرونا بصيغة الاضافة في المرجع الثاني، وربما علّق. وينحو مع أسماء أخرى نحوا آخر هو الدخول في التعريف مباشرة من دون ذكر المصدر أو المرجع غير الاشارة بالقول (حدّثني) أو (سمعت) أو ما شابه هذه التعابير التي تكون خاصة مع المعاصرين، وقد ترد الترجمة مجرّدة تماما من الاشارة الى المصدر المادّي المكتوب ومن غيره من نوع «قال» أو «حدّث» وما شابههما.

أما الكتاب فيقع في مجلد واحد يضمّ قسمين اثنين: أولهما: خاص بتراجم العلماء الموجودة اسماؤهم في مدرسة الثعالبية التي تأسست سنة 1322 هـ ـ 1904م وهم خمسون شخصية غطّى التعريف بها مئتين

وثلاث صفحات. أما القسم الثاني فيضمّ ما عداهم «من علماء البرّ الجزائري وما يليه من الأقطار كالسودان ونحوه» وقد تضمّن هذا القسم التعريف بثلاث مئة وسبع وستين (367) ورد التعريف بهم في نحو ست مئة صفحة (600) ذات ترقيم منفصل عن الترقيم في القسم الأول، فكانت مادة الكتاب بقسميه في أكثر من ثمانمئة صفحة (800).

وقد «ذهب الحفناوي» مذهب المؤرخين الأولين الذين كانوا يجعلون أكبر همّهم نقل الأخبار فقط، وعليه لم يراع قواعد البحث الحديثة، ولا أغراض التاريخ في عصرنا، فاقتصر على جمع ما كان مشتّتا منشورا في كتب تاريخية عديدة يصعب في غالب الأحيان على القراء الوصول اليها، فلو لم تكن للحفناوي سوى هذه المزية لا ستحقّ الثناء عليها، ولكنه أضاف الى ذلك عدة معلومات عن عائلته وعن مؤسسي الزوايا ومشايخها... معلومات لا وجود لها الاّ في تصنيفه كما أفادنا عن بعض معاصريه ومشائخهم بفوائد لا مثيل لها، إذ كان تقييد الأخبار في زمانه بضاعة نادرة، فبفضله بلغتنا أخبار استخرجها من الوثائق العائلية التي أطلعه عليها بعض الأدباء من أصدقائه، فعلى الرغم من جهله أساليب البحث العلمي «فقد أنجى لنا الحفناوي من الاعدام شيئا غير قليل ممّا يتعلّق بتاريخ الثقافة العربية بالجزائر في القرن الثالث عشر وأوائل القرن الرابع عشر، فممّا لا شكّ فيه أن أفضل عمل قام به الحفناوي وأعظم مزاياه على العلم هو تقييده تراجم رجال عرفهم طيلة حياته»(2).

وهكذا يبقى كتاب (تعريف الخلف برجال السلف) أعظم عمل لأبي القاسم الحفناوي، خدم به وطنه فحفظ به جانبا هامّا من حياة الجزائر الثقافية كما خلّد به ذكره في الحركة الثقافية.

---

(1) تعريف الخلف، الحفناوي، ص: 10.

(2) النهضة العربية بالجزائر، سعد الدين بن أبي شنب، مجلة كلية الآداب، ص: 49 — 50.

نماذج من كتابة (أبي القاسم محمد الحفناوي)

1 ــ من مقطوعة له عن تأسيس مدرسة (الثعالبية) في الجزائر العاصمة (1322 هـ ــ 1904م):

في كل جيل من الأجيال أخيار   وخيرهم من له في العلم أنوار
بالعلم شاد بنو اليونان دورهم   وكان للعرب فيه بعد آثار
كلّ مضى تاركا في العلم منقبة   كأنّها علم في رأسه نـــار

* * *

2 ــ من مقدمة كتابه (تعريف الخلف برجال السلف):

«ان القطر الجزائري قد اجتهد قديما في طلب العلم بجميع أسبابه، وأتاه من سائر أبوابه، ووقف على معقولة ومنقوله، فتمكّن من أصوله وفصوله، وكان لعلوم وقته جامعا، ولرايتها رافعا، مثل أخويه المغربين: الأقصى والأدنى، فظهر في الأقاليم بدره، واشتهر في التاريخ قدره بعلماء بنوا تآليفهم على أركان التحقيق، وحصّنوها بأسوار التدقيق، فكانوا في عصرهم نجوم اهتداء، وأئمة اقتداء، ولكن طواهم وأضرابهم فلك الانقلاب في مغارب الأفول... قد أجمعوا على أنهم رجال، كان العلم قوتهم، والعمل الصالح ياقوتهم، فأفنوا أعمارهم في ارشاد الأمة وتنوير بصائرها، وخلّد الحق ذكرهم، فلهجت بذكرهم أقلامه على ألسنة خلقه. هذه أسماؤهم وتراجمهم مزاحمة لأسماء وتراجم أعيان الزمان في كتب المتيقظين لحفظ الطبقات العليا من عالم الاسلام في بطون الدفاتر، لئلا تقع في أغوار التناسي وآبار الاهمال، وهم رجال التاريخ وعدوله الذين قيّدهم النظر الى ميزان الحسنات والسيئات بين يدي ملك يوم الدين عن ذكر الانسان بما ليس فيه، وعن تقصيرهم في تحصيله بما يعلمونه منه مباشرة أو بواسطة من لا يتّهم في درايته وروايته.

* * *

3 ــ جزء من ترجمته حياة الأمير عبدالقادر، في (تعريف الخلف) عبر ست صفحات كاملة، منها قوله:

«هو الامام الأوحد، والعلم المفرد، العارف بالله، والتقيّ الأوّاه، عالم الأمراء وأمير العلماء، الأمير الخطير السيد عبدالقادر بن محي الدين بن مصطفى بن محمد بن المختار بن عبدالقادر... ولد في شهر رجب سنة 1222 في القيطنة، وهي قرية اختطّها جدّه في ايالة وهران من أعمال الجزائر... وفي سنة 1241 سافر مع والده الى الحجاز على طريق مصر، وبعد أداء فريضة الحج قصدا المدينة المنورة لزيارة الحضرة الشريفة النبوية.... وفي سنة 1248 بايعه أهل الجزائر وولّوه القيام بأمرهم، وذلك بعد أن طلبوا مبايعة والده فاعتذر عن قبولها، فلمّا ألحّوا عليه أشار عليهم بمبايعة ولده المشار اليه لما رأى منه من الكفاءة بما يتعلّق بهذا الأمر الجلل... فتمكّن حبه في قلوبهم وبذلوا نفوسهم في طاعته وامتثال أمره، وفي مدة امارته ضرب سكة نقود سمّاها المحمدية، وظهرت منه شجاعة خارقة للعادة تحدّث بها القاصي والداني، ودوّنها أصحاب التواريخ، وكان يتقدّم الجيش بنفسه ولا يبالي.....

وفي منتصف ليلة السبت التاسع عشر من شهر رجب الفرد سنة 1300 انتقل هذا الأمير الجليل الى رحمة ٱلله تعالى في قصره الكائن قرب قرية دمر التي تبعد عن دمشق مسافة ساعة بعد أن مرض نحو خمسة وعشرين يوما، وكان مشتغلا بالمراقبة والذّكر، ولم تبد منه شكوى، وانما كانت تلوح عليه سيماء الاستبشار بلقاء ٱلله تعالى والرضى بأحكامه...

وقد خلّف رحمه ٱلله عشرة من البنين أكبرهم الأمير محمد... وخلّف أيضا ستّا من البنات وزوجة، وأربع أمهات أولاد.

* * *

مصادر ومراجع عن الحفناوي

(1) تعريف الخلف برجال السلف، محمد أبو القاسم الحفناوي، طبعة أولى (في حياة المؤلف) عن مطبعة (فونتانه) الجزائر، سنة 1324 هـ ــ 1906م.

ثم صدر الكتاب من جديد سنة 1982 من (مؤسسة الرسالة) في (بيروت) بالتعاون مع (المكتبة العتيقة) في تونس. ثم صدرت الطبعة الثانية عنهما سنة 1405هـ ــ 1985م.

(2) الصحف العربية الجزائرية من 1847م الى 1939م، دكتور محمد ناصر. الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1980م.

(3) مجلة كلية الآداب، جامعة الجزائر، العدد الأول، السنة الأولى، الجزائر: 1964م.

(4) شخصيات جزائرية، دكتور عمر بن قينة، مطبعة البعث، قسنطينة (الجزائر) 1983م.

رمضان حمّود.. الشاعر الثائر
1906 ـــ 1929م

رمضان حمود... الشاعر الثائر(*)

سيبقى البحث في دعائم نهضتنا الأدبية المعاصرة من المهام الأساسية الأولى للكاتب والباحث الجزائري، الشاعر بمسؤوليته في ذلك، وإذا قطعنا خطوات معتبرة في هذا المجال تشوقا لرؤى مستقبلية في فكرنا المعاصر ضمن تيارات الفكر العربي الحديث، فانه سيبقى أمامنا جهد كبير لتصفية تراثنا مما علق به من رواسب الركود، وإبراز عناصر الحركية والاشراق فيه، سواء من خلال قضاياه، أو من خلال أعلامه الذين أسهموا اسهامات تختلف في كمّها ومستواها.

ومن أعلام فكرنا الحديث، الشاعر الجزائري رمضان حمود، الذي ترصده الموت فأطبق عليه ولما ينه ربيعه الثالث والعشرين، فانتهى من الحياة زهرة يانعة، ذبلت فجأة في جانفي 1929.

وقد كان له اسهامه الجاد في الحياة الأدبية، بانتاجه المنوع، وبأفكاره ورؤاه المتحررة، على الرغم من التجربة القصيرة في كتاباته الساخنة عبر الصحافة الجزائرية المناضلة. ومن خلال معايشة الزميل الدكتور: محمد ناصر للفكر الصحفي الجزائري في الصحافة الجزائرية، لفت نظره رمضان حمود، الشيء الذي جعله يوليه اهتماما معينا، فمضى باحثا عن شخصية حمود، وعن كل ماله من انتاج: في الشعر، أو في النثر: من نقد، ومقالة، وخواطر: فكان في الأخير كتابه هذا «رمضان حمود الشاعر الثائر»، الذي صدر عن المطبعة العربية في غرداية، في طبعته الأولى (1389ه — 1978م) وهو

(*) (الشعب) 22 ذو الحجة 1398هـ (23 نوفمبر 1978م) عدد 4680 نضيف في هذه الطبعة نصوصا للأديب.

يقوم على قسمين: القسم الأول، دراسة لحمود: حياته، وشعره، ونثره، والقسم الثاني، جمع وتصنيف لكلّ ما عثر عليه المؤلف من انتاج حمود، سواء في الصحافة الجزائرية أو في غيرها، باستثناء كتاب «الفتى» الذي نشر في تونس 1929.

تضمن القسم الأول، مقدمة وأربعة فصول، فصل عن «حياة حمود» وثقافته، وفصل عن شعره وشاعريته، وفصل عن حمود وقضايا الشعر العربي الحديث، والفصل الأخير في «الثورة والتجديد بين الشابي وحمود». أما القسم الثاني: (انتاج حمود) فقد صنفه الباحث حسب أجناسه الأدبية: المقالات، والشعر، والخواطر، تبع ذلك خاتمة أو جز فيها أهم النتائج عن بحثه حول حمود وانتاجه، وقد ذيل الباحث كتابه بقائمة المراجع، وفهرس الاعلام، وصفحتين عن تصويب أهم الأخطاء، ثم فهرس الموضوعات.

يذكر الأخ الدكتور محمد ناصر بأن ما دفعه الى الاهتمام بحمود، انما «الاجحاف الذي يعانيه هذا الأديب، ولعله عندما نتحرر من عقدنا ذات يوم، لعمل أكثر جدية، سيتبين لنا أن الجزائر كانت أما ولودا للنّجباء» ومنهم من سرت الثورة في شرايينه ولم تكن الثورة عنده بطاقة تعريف يقضي بها حاجاته، أو جواز سفر يتخطى بها الاعتاب «فحمود من الشباب الأوائل الذي ثار على الاستعمار وعملائه، كما ثار على الجمود، وهفا الى التجديد، فكانت نظرياته النقدية على الخصوص «هي أهم الجوانب عنده».

لقد ولد رمضان حمود في غرداية سنة 1906، وعند بلوغه السادسة من عمره، اصطحبه أبوه الى «غليزان»، وهناك ألحقه باحدى المدارس الفرنسية، ولم يلبث طويلا حتى شعر بتمزق تجاه البون الشاسع بين تعليمين: أحدهما فرنسي،، وثانيهما عربي حر «الأول عصري المناهج، لكنه هدام،، والثاني عقيم الأساليب ضعيف المناهج» وما أن بلغ السادسة عشرة من عمره حتى سافر الى تونس، ضمن بعثة تعليمية، فدرس في عدة مدارس، أهمها

«الخلدونية» و «الجامع الأعظم»، ولكن التقاليد الجزائرية، التي كانت تحتم على الشاب التزوج مبكرا، حرمته من أن يستزيد علما: فرجع الى الجزائر، واستقر في مسقط رأسه وشرع ينشط فكريا: دارسا كاتبا ومؤلفا، فكتب في «الشهاب» كما كتب في «وادي ميزاب» وأصدر كتابه: «بذور الحياة» و «الفتى» لكن داء السل كان قد تمكن منه، فانهى حياته في مستهل **1929**، وهو أشد ما يكون طموحا وحيوية.

ومما يلفت النظر في شخصية حمود، هي ثورته على كل ضروب التخلف والجمود، فلا يسلم قياده الا للدين الذي له سلطان على النفس و «قوة معنوة تكهرب المرء وتبعث فيه روح الأمل، والاقدام على الدواهي، وعدم الخوف من أية قوة كانت» والكلام له.

في فصل شعر حمود وشاعريته بين الأستاذ محمد ناصر أن الملفت للنظر في شعر حمود «مضامينه الفكرية لا أدواته الفنية» رغم انها مضامين لا تختلف كثيرا عما عرف لدى رجال الاصلاح، لكن دون أن يعني ذلك أيضا التشابه في الوقت نفسه، الذي اتسم عند حمود بالجرأة والثورة وقد عبر عن ايمانه العميق برسالته الفكرية في قوله:

— في سبيل آلله والحق
ندائي وفعالي
— في سبيل آلله والشعب
هيامي وغرامي
— في سبيل الشرق والاسلام
حبي واشتغالي
— في سبيل العرب ما لقيت
والمجد المضام.

فوصف الواقع المرير للأمة الجزائرية، داعيا الأخذ بأسباب الحياة الجديدة، لا يكتفي بوصف الداء من دون البحث عن العلاج، يتصدى لذلك بنفس أبية تتعشق الحرية وتمقت الذل والجبناء، ونظرا للظروف التي عاشها، بدا الجانب الفني في شعره عموما ذا طابع تقليدي، يتجلى ذلك في المظاهر التالية من شعر حمود، كالمعارضة، والتضمين، والاقتباس، والخطابية والأسلوب الحكمي.

أما مظاهر التجديد، فتنطلق ابتداء من تأثر حمود بالتيار الرومانسي واعجابه به، وقد بدت المظاهر التجديدية:

1 ــ في وحدة الموضوع، حيث استطاع حمود أن يوفر لقصائده «هذا العنصر الفني الهام»، (ص 45).

2 ــ الصياغة الشعرية، في يسرها وبساطتها، رغم ما اتسمت به من مباشرة.

3 ــ البنية الشعرية: حيث حرص على التخلص «من أسر الرتابة الموسيقية» وان لم يستطع في هذا المجال أن يطبق نظرياته النقدية على شعره.

ان أبرز انتاج حمود، هو آراؤه النقدية لتميزها، كما يقول المؤلف في فصل «رمضان حمود وقضايا الشعر العربي الحديث» حيث طرح قضية الشعر التقليدي حين نشر ذلك في (الشهاب)، ثم أصدره في (بذور الحياة) «وقد صادفت هذه الفترة نفسها الفترة التي كانت تشهد المعركة بين القديم والجديد محتدة الخصومة في المشرق العربي، متمثلة بصفة أخص في مدرسة الديوان ونقدها الشديد للشعر التقليدي» (ص 52)، فدعا الى ضرورة المسايرة من الشعر لواقع الأمة، وصب بدوره نقده على شوقي في اطار الاستجابة للدعوة التي وجهتها «الشهاب» للكتابة عن شوقي بمناسبة الاحتفال بامارته الشعرية، فألح على قضية المضمون الانساني والثوري، والصدق في التجربة الفنية.

أما عن الثورة والتجديد بين الشابي وحمود، فان الاستاذ محمد ناصر يسجل من البداية التوافق الذي كان بين حياتي الرجلين، فكلاهما ولد بواحة الجنوب «غرداية» في الجزائر، و «الشابية» في تونس، فكان شعرهما صورة ناطقة للمناخ الذي ترعرعا فيه «فتحمسا معا للثقافة الحديثة، وتبنيا الدعوة الاصلاحية، كما جهرا بالدعوة الى التجديد بعد الثورة على التقليد، فأحلا معاً العاطفة منزلة أولى في الشعر لتأثرهما بالمدرسة الرومانسية، واشتركا معا في التعبير عن هموم الشعبين: الجزائري والتونسي، تحت نير الاستعمار الفرنسي، وثارا على الرجعية والجمود، كما آمنا بدور الدين في حياة الأمم، فان قال حمود:

فقدفت في زند الديانة معشر
أثاروا على الاسلام من قد يهاجم

فقد قال الشابي:

ونزعم أنا مسلمون ودِيننا
تعيث به الأهواء، والكلّ ذاهل

وقد غرقا معا في غربة روحية رهيبة، حتى استلّمها معا مرض مقيم، وكلاهما مات في عز شبابه، فكان هناك تطابق في الأفكار والآراء، بل وفي الصفات الخلقية والسلوكية.

وقد أنهى الدكتور محمد ناصر كتابه بخاتمة، أو جز فيها نتائج دراسته عن حمود، الذي كان:

أولا ــ ثائرا، التحمت الثورة به في جمُيع أعماله، وأقواله.
ثانيا ــ تجلّى للباحث أن القيمة[1] الحقيقية لانتاج حمود تبرز في مضامينه.
ثالثا ــ بدت زيادة حمود في طرق موضوعات جديدة في الأدب الجزائري الحديث.

رابعا ــ ان أفكار حمود، تؤكد الأثر القوي لدور الكلمة المناضلة في تفجير ثورة أول نوفمبر 1954.

لقد بذل الأستاذ محمد ناصر كثيرا من الجهد والوقت، لابراز هذا المرجع الجديد، والمصدر الهام من مصادر الأدب الجزائري الحديث ومراجعه، حرص على ابراز شخصية رمضان حمود، ودوره محاولا انصافه، من دون أن يتخلى عن الموضوعية العلمية في ابراز الايجابيات والسلبيات، من عناصر التقليد والضعف عند حمود، وعناصر الجدة والتجديد في أفكار وآرائه.

نصوص لرمضان حمود

1 ـــ حقيقة الشعر وفوائده(*):

الشاعر والمصوّر أجيران للفنّ والجمال، وكلاهما مدين بالاجادة والتدقيق في النظر والبحث، فهذا في المحسوسات وذاك في الرّوحيات.

فكما أن المصوّر لا يقدر أن يتقن صورته الاّ إذا تزوّد بجانب وافر من الشعور والاحاطة، وكان الشكل أو المنظر الذي يريده أمامه بعيني رأسه، فكذلك الشاعر لا طاقة له على امتلاك العقول والأخذ بأزمة النفوس الاّ إذا أجاد تصوير تلك العواطف الهائلة التي تقوم في ميدان صدره الرحب عند ما يريد أن يعرب للسامع عن خاطر من خواطره الخاصة أو العامة لا مجرّد تنميق وتزوير وتكلّف مشين وتعمل بارد وكذب فادح...

الشعر كامن في أعماق نفس الانسان كمون النار في الحجر، تظهر آثاره للخارج بالتحاكك والممارسة.... فالشعر تيار كهربائي مركزه الروح، وخيال لطيف يقذفه النفس، لا دخل للوزن تيار كهربائي مركزه الروح، وخيال لطيف يقذفه النفس، لا دخل للوزن ولا للقافية في ماهيته، وغاية أمرهما أنهما تحسينات لفظية اقتضاها الذوق والجمال في التركيب لا في المعنى، كالماء لا يزيده الأناء الجميل عذوبة ولا ملوحة، وانما حفظا وصيانة من التلاشي والسيلان...

(*) من سلسلة مقالات نشرها في مجلة «الشهاب» سنة 1345هـ ـ 1927م. أنظر: (رمضان حمود الشاعر الثائر) د. محمد ناصر، المطبعة العربية في غرداية، ط: 1، سنة 1389 ـــ 1978م.

الشعر مسطر بريشة الشعور على صحائف لغات الأمم الخاصة بها سواء كانت متمدنة أو متوحشة... خلاف النثر فإنه ابن العلم والتمدن والشعر هو الذي يهيء له الطريق.

1 ـ من الخواطر:

ـ ما أمهر أوروبا في افساد اخلاقنا ومحاربة قوميتنا، وما أضعف نفوسنا إذا وقفنا وقفة العاجز المستسلم، ولم نعلمها كيف يكون التمسّك بهما، ومقاومة صدماتهما.

* * * *

ـ في سنين قليلة أفسد الغربيون للشرقيين مالا يصلح في قرون عديدة، نعم أفسدوا عليهم أخلاقهم ودينهم.

* * * *

ـ الأخلاق أن تكون أبيا وطنيا غيورا عاملا لرفع الانسانية من الحضيض.

* * * *

ـ الأخلاق أن لا تبغض الحق وأن تعامل من حواليك بمالا يوبخك به ضميرك، وأن تقوم بواجبك نحو آلله ونفسك ووطنك والناس.

* * * *

ـ الأخلاق هي الوسيلة الرئيسية لبلوغ السعادة والهناء، سعادة النفس وهناء الضمير، الأخلاق غذاء الروح الطاهرة الزكية.

* * * *

ـ الصبر لنوائب الدهر محمود، ولكنّ الخضوع للذّل والهوان دناءة وخسة.

* * * *

ـ الترف والخلاعة عاملان لسقوط الأمم وخرابها.

* * * *

ـ اللؤم منبع الوقاحة، والوقاحة أساس كل رذيلة.

3 ـ الـفـتى:

جهودك يا فخر العروبة عبرة له رنّه في الخافقين تقام
ستبقى على مرّ الدهور منارة على علم، لا يعتريك ظلام
ففي سعيك المبرور خدمة أمة عليها خطوب الدّهر يرتمين حسام
حياتك سرّ، سوف يظهر كنهها وفيها لسير الناشئين نظام

* * *

4 ـ رثـاء:

فواجع الدهر أشكال وألوان والمرء عند حلول الخطب وهان
هي الحوادث لا تنفك تطلبه وفي الحياة له حب وطغيان
يسعى الفتى وسرور العيش يخدعه في كل آونة يغويه شيطان
ينسى التقلب مسرورا بحالته وآخر الطيش افلاس وخسران
أو يرضى ذا بمرور الموت مصطحبا لنومه، فهزبر الموت يقظان
ياسادرا يبتغي عيشا بلا كدر مهلا فانك بالنعماء نشوان
فالعيش لا شك بالويلات ممتزج وجملة العمر أفراح وأحزان
ان سالمتك الليالي فارتقب حربا فصمتها هو بالانذار اعلان
أيحسب العمر شيئا لا فناء له لا تغترر فغرور المرء خذلان
ان الحياة وان سرت مظاهرها فجوفها لهلاك الناس بركان

* * *

المجاهد الجزائري.. ابن باديس

1889 ـــ 1940م

المجاهد الجزائري ابن باديس

أولا ــ ابن باديس وفكرة المسؤولية(٥):

ان الحديث عن ابن باديس يعني الحديث عن شخصية جزائرية وهبت نفسها للجزائر من أجل مستقبلها في العزة والكرامة، ومن هنا تكون مسؤولياتنا أو مسؤولية المجتمع تجاه أمثال ابن باديس، اقرارا بفضلهم واعترافا بما قاموا به من أعمال دون انتظار ثواب أو جزاء، والأمة العظيمة هي التي تقدر عظماءها وتجلّهم اعترافا بدور الفرد في المجتمع، وتأثيره فيه. وان الجزائر التي أطلقت «يوم العمل» على ذكرى وفاة ابن باديس في 16 أفريل لتدل بذلك على أنها لا تتنكر لابنائها المخلصين الذين يعطونها جهدهم، ويبذلون في سبيلها تضحياتهم، فاستحقت ذكرى وفاة ابن باديس هذه التسمية «يوم العلم» بل هو جدير بأكثر من ذلك. ولولا بعض الالتباسات القديمة والحديثة لآثرت ان نسمي هذا اليوم يوم «البعث» لأن أفكار ابن باديس ساهمت في تسوية التربة الصالحة لبعث الجزائر في القرن العشرين، وهو البعث الذي أشرق نوره في (1954) بعد ليل طويل من ضروب الاحتلال، وسبات عميق شمل كل الجوانب في حياة المجتمع الجزائري.

وإذ أتحدث عن المسؤولية عند ابن باديس كفكرة في ذكرى وفاته السادسة والثلاثين فإنني لن اهتم بها اهتمام الحقوقيين والفلاسفة، لكنني اهتم بها من الوجهة الأدبية الفكرية العامّة، وقد كان مرور الأيام يزيد ابن باديس دائما عمق الاحساس بهذه المسؤولية، وهو الاحساس الذي فرض عليه

(٥) ألقي هذا الموضوع كمحاضرة في مدينة «برج منايل» يوم 16 أفريل 1976. ونشر بالعدد 1818 من المجاهد الأسبوعي الصادر يوم 18 أفريل 1976.

مواقفه التي تطورت عبر مراحل نضاله الفكري في مختلف المجالات على عدة جبهات: نضال اصلاحي في مجال الدين الذي أساه إليه الأدعياء الجهلة، واصلاح تربوي واجتماعي وسياسي أيضا في مواجهة الاستعمار الفرنسي، ودعاة الفرنسة والضالين من الطرقية وغيرهم، العاملين لصالح الاستعمار الفرنسي، ولم يكونوا خونة لوطنهم ومجتمعهم فحسب بل خانوا أنفسهم وضمائرهم بدون تقدير للعواقب والنتائج.

وقبل أن أتحدث عن طابع المسؤولية في فكر ابن باديس استعرض نبذة من حياته بايجاز شديد.

ولد عبدالحميد بن باديس يوم 5 ديسمبر 1889 بقسنطينة من أسرة تنتمي الى المعز بن باديس الصنهاجي، نسبة الى «صنهاجة» من أشهر القبائل الأمازيغية الجزائرية، قبل الاسلام وبعده، وكانت «أكثر أهل المغرب» كما يقول ابن خلدون، فابن باديس يرجع الى هذه القبيلة من قدماء الجزائر، وهي القبيلة التي تكونت منها الدولة الجزائرية الصنهاجية التي سيرت شؤون السلطة الاسلامية في الفترة ما بين 362 و 543هـ وقد كان أبوه من أعيان قسنطينة فألحقه بالكتاب فحفظ القرآن ثم تتلمذ على أحد علماء قسنطينة وهو الشيخ «حمدان لونيسي» فأثر في ابن باديس تأثيرا كبيرا. وتزوج ابن باديس وعمره 15 سنة فكان له ولد أسماه «عبده اسماعيل» توفي بعد ذلك. وفي سنة 1908 التحق ابن باديس بجامع الزيتونة للدراسة حتى حصل على شهادتها العلمية سنة 1911 ــ 1912. وعمل معيدا في جامع الزيتونة لمدة سنة.

وفي جامع الزيتونة تأثر بأستاذيه «محمد النخلي» و «الطاهر بن عاشور» وفي سنة تخرجه شرع يراسل من هناك جريدة «كوكب افريقيا» الأسبوعية في الجزائر، وهي من الجرائد التي كانت موالية للاستعمار، لكن ابن باديس راسلها في موضوعات دينية فكرية بحتة ولم يكن فكره قد نضج

بعد بالواقع الجزائري، نجد له مشاركة مثلا في عدد 196 و 208 سنة 1911 (المجلة على شريط ميكرو فيلم بالمكتبة الوطنية) وفي سنة 1913 عاد الى الجزائر ومنها توجه الى الحج حيث التقى لأول مرة بالشيخ البشير الابراهيمي.

وعندما عاد شرع في التدريس ليكون التعليم أقوى لبنة تقام عليها الحركة الاصلاحية، وأسهم في انشاء الجرائد والمجلات من أشهرها «الشهاب» و «البصائر» وعندما تأسست جمعية العلماء يوم 5 ماي 1931 انتخب رئيسا لها، وسافر مع وفد المؤتمر الاسلامي الجزائري الى باريس يوم 18 يوليو 1936 للمطالبة ببعض الحقوق وتحققت خيبة الأمل التي كان ينتظرها ابن باديس من الاستعمار وهو الاستعمار الذي احتفل قبل ذلك بنحو خمس سنوات بمناسبة مرور قرن على احتلاله للجزائر، وبقي يلوح لبعض العناصر الجزائرية لكي تتنكر لشخصيتها الجزائرية العربية الاسلامية، ويفكر بعضها في الاندماج المحتمل، لكن ابن باديس استطاع أن يقضي على فكرة الاندماج والتجنيس فرد البعض عن أخطائهم، وجعلهم يتأكدون بأن الجزائر ليست فرنسا ولا يمكن أن تكون فرنسا، فأقروا بشخصية الجزائر العربية الاسلامية بعد أن أنكروا، أو جهلوا، أو ترددوا. وفي هذا الجو الذي احتفل فيه الاستعمار بمرور قرن على احتلاله للجزائر وارتفعت فيه بعض الأصوات تحاول أن تجرد الجزائر من شخصيتها جاء النشيد الذي كتبه ابن باديس ويقول فيه:

شعب الجزائر مسلم وإلى العروبة ينتسب
من رام ادماجا له رام المحال من الطلب

وهو نشيد لم يكن كما نعتقد ابن يوم أو أسبوع أو شهر، بل جاء بعد اختمار دام عدة سنين ويؤكد فيه ابن باديس ثباته على مبدئه حتى الموت وذلك حين يقول:

فــإذا هلــكت فضيحتـــي تحيــا الجزائـــر والعـــرب

وهو واثق بأن الشباب هو الذي سيحقق أمنية الجزائر، فعمل على بعث الثقة في نفس الشباب بقوله:

يـــا نشء أنت رجاؤنــــا وبك الصباح قد اقتــرب
خــذ للحيـــاة سلاحهـــا وخض الخطــوب ولا تهب

وبقي ابن باديس صامدا حتى اندلعت الحرب العالمية الثانية، فحددت اقامته و لم تمتد به الحياة ليرى ما ستتمخض عنه هذه الحرب خاصة بالنسبة لفرنسا حتى توفي يوم 16 أفريل سنة 1940.

كانت هذه النظرة ضرورية عن حياة ابن باديس كي نتحدث عن المسؤولية كفكرة في حياة ابن باديس عملا، سلوكا، وليست المسؤولية التي أعنيها بالنسبة لأبن باديس نظرية يلوكها، أو دعوة يدعو اليها ويبقى في منأى عنها، بل كانت عملا يقدم عليه قبل أن يذكره للناس، كانت تطبيقا سلوكيا وفعليا تلاشت خلالها مصلحته الشخصية، وبرزت مصلحة الأمة والوطن، كانت بالنسبة اليه واجبا لا مناص منه فرضه على نفسه تجاه وطنه وأمته وهي مسؤولية سياسية اصلاحية واجتماعية اخلاقية دينية. وانه ليصعب التفريق بين ضروب المسؤولية هذه، لأن دوافعها تكاد تكون واحدة وهي الوضع الذي كان عليه المجتمع الجزائري في مختلف أوجهه، وغايتها ان لم تتحدد فان معالمها واضحة: وهي تغيير ذلك الوضع من وضع أسود قاتم الى وضع يشعر فيه الفرد الجزائري بقيمته في الحياة وجدوى وجوده فيها، أما الوسائل لازالة ذلك الوضع والوصول الى تلك الغاية فهي صادرة بدورها عن فكر ابن باديس عبر الكلمة المسؤولة الصادرة عن وعي وايمان في الجريدة والمجلة، وفي المسجد والنادي، وفي الرسائل الشخصية والاتصالات الخاصة في المدينة والقرية، لأن كل ما يأتيه من قول يقوله أو عمل يعمله له أثره الذي تتحدد مساحة تأثيره حسب الوسيلة في ذلك من وسائله الاصلاحية في التعليم والتربية، أو في الحياة والسياسة والدين.

لقد ولد ابن باديس في أسرة من طبقة متوسطة ان لم نقل من الطبقات الارستقراطية وأبى الا أن يعيش داخل المجتمع الجزائري في جميع مستوياته، و لم يكتف بالأعراض عن الحياة المرفهة التي يعيش فيها أمثاله من أبناء الأسر الكبرى بل أعرض حتى عن الحياة الزوجية المطمئنة بعد أن كان له ولد لم يلبث طويلا حتى توفى، أعرض عن ذلك لا سعيا وراء متع دنيوية ولكن لأن مسؤولياته التعليمية والاصلاحية والدينية والسياسية شغلته عن ذلك، فأعطى نفسه للجزائر من دون سواها من أسرة وأطفال.

ويتجلى شعوره بالمسؤولية من خلال مواقفه المختلفة سواء تجاه الاستعمار الفرنسي، أو تجاه مظاهر الانحطاط الفكري والتنكر للشخصية الجزائرية العربية الاسلامية، أو تجاه النتائج المترتبة عن احتلال يستنزف الأرض ومواردها، والانسان وعرقه دون عائد على الجزائر من ذلك لا قليل ولا كثير.

ويبدو أنه كان في بداية حياته السياسية يعلق آمالا على التعاون مع الادارة الفرنسية، لهذا حرص — فيما يبدو من النصوص — على التودد لفرنسا كي تمنحه فرصة الاتصال بالشعب الجزائري، كما نرى في العدد الأول من جريدة (المنتقد) أو العدد الأول من «الشريعة» وهو ما أعاده أيضا في العدد الأول من «البصائر» في سلسلتها الأولى، حيث قال: «أفظننتم أن الأمة الجزائرية ذات التاريخ العظيم تقضي قرنا كاملا في حجر فرنسا المتمدنة، ثم لا تنهض بجنب فرنسا تحت كنفها، يدها في يدها «ويقول في نفس المقال: «ان الجزائر المفطورة على مبادىء الاسلام والمتغذية بمبادىء فرنسا انجبت وتنجب رجالا» .... الخ.

فهذا الكلام قد يغضبنا للوهلة الأولى لكننا عندما نقرأه بوعي ندرك أن ابن باديس يدعو للانفصال عن فرنسا ولم يدع للارتباط بها فقوله: «الأمة» هو تأكيد على ان الجزائر غير فرنسا، خاصة انه يؤكد أن هذه الأمة

ذات تاريخ عظيم، لكن ابن باديس، عندما اصطدم برفض الاستعمار الفرنسي، وعندما تأكد أنه لا يمكن تغيير هذا الاستعمار من داخله، بواسطة مطالب اصلاحية، استخلص النتيجة وخاصة بعد 1936، عندما دعا صراحة الى الاعتماد على النفس.

وقد كان ابن باديس يرى أنه في طليعة الحقوق، التي يجب الاعتراف بها للجزائر، يأتي ضرورة اعتراف فرنسا بالشخصية الجزائرية، وهي بداية الطريق؛ فكان ابن باديس يضع على غلاف (الشهاب) لمدة أكثر من ثلاث سنوات سابقة عن تأسيس جمعية العلماء شعارا يقول: «الحق والعدل، والمؤاخاة في اعطاء جميع الحقوق للذين قاموا بجميع الواجبات» ان هذا إشعار لفرنسا أنها أخذت من الجزائر كل شيء، ولم تعط هي أي شيء. ودون الدخول في تفصيلات قانونية أو تاريخية أو غيرها، يمكن القول: ان كلمة «الأمة» كانت كافية للتأكيد على الشخصية الجزائرية المستقلة، ولعل الغاضبين على ابن باديس لم يتوقفوا مطلقا عند كلمات من مثل كلمة «الأمة». وفي عام 1936 عندما رأى ابن باديس خداع فرنسا: خرج من الملاينة الى الدعوة الصريحة، بعد ان اكتشف بعنف نيات الاستعمار على اثر عودة الوفد الذي كونه المؤتمر الاسلامي الجزائري يوم 7 جوان 1936 فخاطب الشعب الجزائري «لنعتمد على أنفسنا ولنتكل على الله» بل قال أيضا مخاطبا الشعب «ان عملك هذا ما هو الا خطوات ووثبة وراءها خطوات ووثبات وبعدها اما الحياة واما الموت» وقال أيضا: «حق الانسان في الحرية كحقه في الحياة، ومقدار ما عنده من حياة هو مقدار ما عنده من حرية» وهو تعبير صريح من ابن باديس على ان الشعب الجزائري خارج اطار الحياة ما دام فاقدا لحريته، فربط قيمة الفرد والمجتمع بما عندهم من حرية، وهو في هذا يلتقي بالمصلح الكبير عبدالرحمن الكواكبي الذي يقول: «أخوف ما يخافه المستبدون... أن يعرف الناس حقيقة أن الحرية أفضل من الحياة» قد نخطىء وهذا من طبيعة البشر لكن الذنب هو الاصرار على الخطأ. ونعتقد ان ابن باديس في هذا الجانب لم يخطىء انما كانت لطرائق تعبيره

أبعاد لم يدركها قصيرو النظر، وعلى فرض انه أخطأ في مقال فإنه قد محا هذا الخطأ بصفحة مشرقة خطها على امتداد حياته بأعماله ومواقفه التي كانت في خدمة بلاده، وهو الذي قال بعد أن فقد الأمل من فرنسا: «اننا شعب متعشق للحرية... وسنعرف في المستقبل كيف نعمل لها، وكيف نحيا ونموت لأجلها» هذا هو موقف ابن باديس الجديد بعد أن أزاح القناع عن نفسه في سنة 1936 وهو الذي قال بقوة: «ان الأمة الجزائرية الاسلامية ليست هي فرنسا، ولا يمكن أن تكون فرنسا، ولا تريد أن تصير فرنسا» ويؤكد مطلب الجزائر الصريح بقوله: «ان الاستقلال حق طبيعي لكل أمة من أمم الدنيا... فكلما تقلبت الجزائر مع التاريخ فمن الممكن أن تزداد تقلبا، وتصبح مستقلة» ان ثورة ابن باديس الفكرية على فرنسا هي التي جعلته في نهاية المطاف يقول: «والله لو طلبت مني فرنسا أن أقول لا اله الا الله ما قلتها» قال ذلك وهو المسلم، تعبيرا عن مخالفته لكل ما يصدر عن الاستعمار، وليبعث في الفرد الجزائري شعورا باستعادة كرامته من أجل العزة والسيادة، فدعا الجميع من أجل العمل لتحرير الجزائر قائلا في النهاية: «فليحيا الاسلام ولتحيا الجزائر».

وكما وقف ابن باديس في وجه الاستعمار، واجه السياسيين من أبناء وطنه أولئك الذين أولوا بعض الحب للجزائر، لكنهم لم يشعروا ـــ حسبما يبدو ـــ بالخدمات التي كانوا يقدمونها للاستعمار، بتنكرهم للشخصية الوطنية، وللقومية العربية الأسلامية الجزائرية، فقام لاثبات أصالة الفرد الجزائري مند حياة الأمازيغي الأول وغيره أولئك الأمازيغ الذين كانوا من أقدم سكان الجزائر فرحبوا بالاسلام ونشروه، وانطلق الفاتح الجزائري المعروف «طارق بن زياد» لينشر كلمة الله في الأندلس فامتزج الأمازيغيون بالعرب المسلمين بالزواج والجوار واقام الجميع صرح الحضارة العربية الاسلامية في الجزائر فكون منهم التاريخ كما يقول ابن باديس «عنصرا مسلما جزائريا أمهُ الجزائر وأبوه الاسلام» ولم تعد العربية عندئذ «بأحدكم من أب ولا أم، وانما هي اللسان، فمن تكلم بالعربية فهو عربي»

يضيف ابن باديس قوله: «نهضتنا بنيت على الدين أركانها فكانت سلاما على البشرية لا يخشاها وآلله النصراني لنصرانيته، والا اليهودي ليهوديته، ولا المجوسي لمجوسيته، ولكن يجب وآلله ان يخشاها الظالم لظلمه والدجال لدجله، والخائن لخيانته» فالجزائر جزء من الأمة العربية هذه الأمة التي قال عنها ابن باديس كذلك: انها «صهرتها القرون في بوتقة التاريخ حتى أصبحت أمة واحدة، هذه الأمة تربط بينها زيادة على رابطة اللغة: رابطة الجنس، ورابطة التاريخ ورابطة الألم والأمل».

اثبت ابن باديس شخصية الجزائر، وأصالتها، وتاريخها كوطن ودولة، ولم يكن ابن باديس خصما عنيدا للاستعمار واعداء الجزائر أمة ووطنا فحسب، بل كان خصما لضروب أخرى من التضليل في أولهما الطرقية الضالة التي يرى بعضها ان الاستعمار قدر، وآلله وحده هو الذي يزيل هذا الاستعمار كقدر دون مبادرة من الانسان، كأن آلله ينزل الملائكة تقبض أروراح السياسيين الفرنسيين والجنود والضباط والاداريين لتجد الجزائر نفسها حرة بقدرة قادر، وراحوا يرغّبون الناس في الآخرة ليصرفوهم عن همومهم في الدنيا، فتصدى اليهم ابن باديس بمقالات مقنعة منها بعنوان «طلب الآخرة وحدها مذموم في الاسلام» لأن الاسلام يدعو الى العمل للدنيا قبل الآخرة والاسلام الحقيقي هو الذي يدعو الى الجهاد ويحث عن العمل. وقد كانت كلمة «الجهاد» و «الاستشهاد» حافزا قويا للفرد الجزائري ليثور على الاستعمار، حتى ان احدى المجلات(١) منذ سنوات — حسبما أذكر — كتبت على غلافها بحروف ضخمة «الجزائر بالاسلام ثارت، وبالاسلام تحررت».

ولم يتردد ابن باديس في مهاجمة من يروجون للروح الاتكالية باسم الاسلام حتى أحد أساتذته الذي طالما اعجب به وهو الطاهر بن عاشور

---

(١) مجلة «الجيش» الجزائرية.

الذي دخل القضاء تحت الحكم الفرنسي في تونس فوقع تحت تأثير هذا الاستعمار ــ فيما يظهر ــ فدهش ابن باديس للتحول الذي اعترى أستاذه وحز ذلك في نفسه، فقال عن أستاذه في وضعيته الجديدة هل «ابن عاشور هذا الملقب بشيخ الاسلام هو ابن عاشور أستاذي الذي أعرف؟... لا! ذلك رجل آخر مضى، قضى عليه القضاء وأقبرته المشيخة، وقد أديت له حقه بما ذكرته، وهذا مخلوق آخر ليس موقفه أول مواقفه ولا أحسبه يكون آخرها، وأنني لا أود أن يكون آخرها، فان المسلمين اليوم بأشد الحاجة الى معرفة ما ينطوي عليه مثله ممن ينتحلون ألقابا مخترعة في الاسلام». وهكذا أظهر ابن باديس استقلالا في الرأي، وقدرة على التخلص من المسلمات ليسترشد بعقله، واجتهاده الخاص، لا يرى حرجا في أن يقول كلمة الحق ولو ضد أعز الناس عليه.

واحساس ابن باديس العميق بالمسؤولية، وبما أصبح يمثله من رأي عام جعله دائم الحرص على تشخيص ما آلت اليه الوضعية في المجتمع الجزائري فيصف حالة اللغة العربية، ووضعية المساجد، كما يشخص الأمراض التي تسببت فيها ضروب الدجل، ونفاق بعض الحاملين للألقاب الدينية من ائمة وقضاة وغيرهم، ولم يهمل نهائيا الحديث عن النتائج التي نتجت عن الاحتلال الفرنسي الذي يزعم أصحابه أنه أتوا بالحضارة والرفاهية لهذا البلد.

وأذكر في المناسبة حكاية حدثت عندما كان ابن باديس ذات يوم يتنقل في سيارة مع آخرين بين مدينتي بوسعادة والجلفة، فمروا براع يقف علي ناصية الطريق، وكان ينتعل حذاء من حلفاء ويصنع آخر من الحلفاء أيضا للاحتياط، ويسمى هذا النوع من الأحذية «الفرتالة» وهي عبارة عن مجموعة أشرطة تظفر مع بعضها وتشد الى الرجل برباط من الحلفاء أيضا، وهي لا تغطي الأصابع ولا ظاهر الرجل وانما تقي منتعلها من أحجار الأرض وشوكها فقط، روى لي شخص انهم كانوا يمرون بهذا الراعي،

فطلب ابن باديس من السائق التوقف عند الراعي ففعل، ونزل ابن باديس يعرض ثمنا مرتفعا على الراعي ليبيعه «الفرتالة» فتعجب الراعي، كما عجب لأمر ابن باديس مرافقوه، وأبدى تنازله عن «الفرتالة» لابن باديس ولم يكن يعرفه، ولا يعرف عن أمره شيئا وانما فعل ذلك كرما منه لهذا الرجل الذي يظهر أنه من (العلماء)، فأصر على دفع الثمن، وعلى أن يأخذ «الفرتالة» القديمة التي ينتعلها الراعي، وللراعي أن يجهز الجديدة التي يقوم بظفرها لينتعلها.

وتمت عملية البيع والشراء، والراعي مندهش لأمر الشيخ الأنيق يشتري «الفرتالة»! وعندما واصل ابن باديس طريقه مع مرافقيه سألوه متندرين عما سيفعل بهذه الفرتالة؟ فكانت اجابته: سأعود الى قسنطينة وانشر صورة فوتوغرافية لهذه الفرتالة في الجريدة لترى الدنيا نتائج الحضارة الفرنسية في الجزائر.

لقد كان ابن باديس صوتا بارزا من أصوات الضمير الجزائري آلمته وضعية بلاده تحت احتلال رهيب، فكان معبرا عن وجهة نظر الجزائري الأصيل، فكان له أثره القوي لأنه كان صادقا في دعوته، مؤمنا بها، عاملا بإخلاص من أجل مستقبل الجزائر الناهضة وشعبها السعيد.

وقد سعى ابن باديس الى أن يقنع حتى أولئك الدين نالوا حظا من ثقافة أوروبا وكادت شخصياتهم تذوب في الفرنسية، وعلى هذا الأساس أجرى محاورات عديدة وخاصة مع الشباب منهم لاقناعهم، فهي مسؤولية ضمير أملاها عليه ايمانه القوي بمستقبل الجزائر وأمله في شبابها الذي يبني نفسه ليسهم في تحرير وطنه من الأمية ومن الاستعمار عند ساعة اللزوم.

* * * *
* * *

نماذج من كتاباب (ابن باديس)

من رحلة (ابن باديس) الى (باريس)(•)

مع الوفد الاسلامي الجزائري

مشاهدات وملاحظات

تمهيد:

لقد كان مقررا أن يزور الوفد تلمسان وقسنطينة بعد اجتماع الجزائر الذي وقع في 14 جمادي الأولى 2 أوت ليطلع الأمة على أعماله وآماله. وكان مقررا أن يكون السفر لتلمسان مساء ذلك اليوم. ولكن مكيدة قتل ابن كحول المشؤومة حالت دون ذلك وما كان ينبغي — في نظرنا — أن تحول. وياليتها أدت الى التأخير فقط ولكنها كانت تكأة لمن لم تكن له رغبة في تلك الزيارة في الترك والابطال. ولهذا رأينا أن نطلع قراءنا على شيء مما بقي بأذهاننا مما شاهدنا ولاحظنا، وشيء في الجملة خير من لا شيء.

•

على ظهر الباخرة:

كان أعضاء الوفد — من النواب والعلماء والشبان — كأسرة واحدة في الانس والعطف والاتحاد. وكانت أوقات ينفرد فيها الشيوخ الثلاثة فهي التي أتحدث عنها لما فيها من أدب خاص.

(•) الشهاب، ج: 7، م 12، في رجب 1355هـ — أكتوبر 1936م.

يع ف ا ذ س ا عقبي واعضا مرشدا يلين القلوب القاسية، ويهد البدع والضلالات العاتية بقوة بيانه وشدة عارضته ولكن العقبي الشاعر لا يعرفه كثير من الناس. فلما ترنحت السفينة على الأمواج وهب النسيم العليل هب العقبي الشاعر من رقدته وأخذ يشنف أسماعنا بأشعاره ويطربنا بنغمته الحجازية مرة والنجدية أخرى ويرتجل البيتين والثلاثة والأربعة في المناسبات. وهاج بالرجل شوقه الى الحجاز فلو ملك قيادة الباخرة لما سار بها إلا إلى جدة دون تعريج على مرساي وان رجلا يحمل ذلك الشوق كله للحجاز ثم يكبته ويصبر على بلاء الجزائر وويلاتها ومظالمها لرجل ضحى في سبيل الجزائر تضحية أيّ تضحية.

الأستاذ الابراهيمي:

وبينما كان حكيمنا الابراهيمي يساجل الأستاذ العقبي ذكرياتهما بالحجاز وأيامهما بطيبة الطيبة، ويفيض في الحديث عن أيامه هو بالشام وتعليمه بالمدرسة السلطانية بدمشق ويحدث عن رفاقه وأصدقائه من أدباء الشام وشعرائها وعلمائها ورجالها الذين لا تخلو الجرائد اليوم من ذكرهم إذا به ينتقل بنا فجأة الى الأندلس وعجبنا بادىء ذي بدء لتلك القفزة من الأستاذ حتى ذكرنا ما بين الشام والأندلس من علاقات في فتحها وانتقال الخلافة الأموية اليها فقلنا ان الأستاذ قد عوّضه ٱلله من القوّة في عقله ما أضاع عليه في رجله وكدنا نغطبه على عرجه. وهاجت الذكرى الأندلسية بصاحبنا الابراهيمي وأخذ في الحديث عليها وعلى وطنينا المقري مؤرخها حتى كاد ينثر علينا «نفح الطيب» من حفظه. وعلمنا أننا سنرى أنوار الأندلس بعد الغروب وبدت لنا بعد صلاة المغرب فطار لب صاحبنا وأخذ يهلل ويكبر ويحوقل ويسترجع. وسبقته الى قول الشاعر:

كبرت نحو ديارهم لما بدت منها الشموي وليس فيها المشرق

فكاد يجن جنونه وآخذ يحدث عن شموس العلم التي بدت من ذلك الأفق وعن الثائر ابن غانية وما يتصل به وقضيناها سهرة أمام تلك الأنوار وأين منها عندنا «نار غالب» أو «نار المحلق».

الأستاذ عبد الحميد:

هذه هي المرة الأولى والأخيرة أعبر فيها عن نفسي كما عبرت عن رفيقي بـ«الأستاذ» فان ما كنا نشعر به من الاتحاد الروحي كرّه اليّ أن أعبر عن نفسي بغير ما عبرت به عنهما وأنا في قرارة نفسي أبغض التواضع المصنوع كما أبغض الادعاء الكاذب، فاما الأدعاء الكاذب فلا أعرفه من نفسي ولا مرّة واحدة، واما التواضع المصنوع فمما تقضي به العادة ويحتمه أصل التربية وقد خرجت عنهما هذه المرة امتثالا للطبع ولن أعود.

لقد كنت مأخوذا بأدب الرفيقين ولطفهما وكنت أختم انشادات العقبي بالآهات والانات وتارة بالهزات والوقفات وكنت أساوق الابراهيمي الحافظة فيما ينشد من «نفح الطيب» وقد طال عهدي به. و لم تفارقني مهنة المعلم فكنت أجدني عن غير قصد أقرر نكتة في بيت من الشعر أو عبرة في حادثة من التاريخ فيوافق الرفيقان وقد يخالفان. وكنت بحكم مهنتي أيضا — أفكر في تلامذتي واعدادهم لمثل مقام هذين العالمين الأديبين العظيمين فلن يحفظ الاسلام والعربية في الجزائر الا بأمثالهما فينبعث في عزم على الجد والاجتهاد في التعليم كل ما بقي من حياتي حتى آخر ومضة من الروح وآخر قطرة من الدم. ويمرّ بذهني خاطر مزعج يكدر عليّ ذلك الصفو ويكاد يضعف ذلك الأمل. أتدري ما هو الخاطر: هو «صندوق الطلبة» الفارغ المدين ولكنني سرعان ما أزيله بكلمتي التي الهمت الى قولها منذ نحو ربع قرن: «نحن على الفيض الرباني» ولن نزال عليه أن شاء آلله.

ما جمعته يد آلله، لا تفرقه يد الشيطان(٥)

ان أبناء يعرب وأبناء مازيغ قد جمع بينهم الاسلام منذ بضع عشرة قرنا، ثم دأبت تلك القرون تمزج ما بينهم في الشدة والرخاء، وتؤلف بينهم في العسر واليسر وتوحدهم في السراء والضراء، حتى كونت منهم منذ أحقاب بعيدة عنصرا مسلما جزائريا، أمه الجزائر وأبوه الاسلام.

وقد كتب أبناء يعرب وأبناء مازيغ آيات اتحادهم على صفحات هذه القرون بما أراقوا من دمائهم في ميادين الشرف لاعلاء كلمة آلله وما أسالوا من محابرهم في مجالس الدرس لخدمة العلم.

فأيّ قوة بعد هذا يقول عاقل ــ تستطيع أن تفرّقهم؟ لولا الظنون الكواذب والأماني الخوادع. ياعجبا! لم يفترقوا وهم الأقوياء، فكيف يفترقون وغيرهم القويّ كلاّ وآلله، بل لا تزيد كل محاولة للتفريق بينهم الا شدّة في اتحادهم وقوة لرابطتهم «ذمتي بما أقول رهينة وأنا به زعيم» والاسلام له حارس، وآلله عليه وكيل.

نعم اننا نتحد لننفع أنفسنا، وننفع إذا استطعنا غيرنا. ومعاذ آلله والاسلام أن نتحد على أحد، أو نتفق على باطل، أو نتعاون على اثم أو عدوان.

﴿يا أيها الذين آمونا كونوا قوّامين لله شهداء بالقسط ولا يجر منّكم شنآن قوم على أن لا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى واتقو آلله ان آلله خبير بما تعملون﴾

---

(٥) الشهاب: ج11، م: 11، غرة ذي القعدة 1354هـ ، فيفري 1936.

أعيش للاسلام والجزائر(*)

لما نظرنا في الاسلام وجدناه الدين الذي يحترم الانسانية في جميع أجناسها... وهو الدين الذي فطرنا عليه الله بفضله... انه دين الانسانية الذي لا نجاة لها ولا سعادة الا به، وانّ خدمتها لا تكون الاّ على أصوله، وان اتصال النفع اليها لا يكون الا من طريقه، فعاهدنا الله على أن نقف حياتنا على خدمته ونشر هدايته، وخدمة كل ما هو بسبيله ومن ناحيته، فإذا عشت له فإني أعيش للانسانية، لخيرها وسعادتها في جميع أجناسها وأوطانها، وفي جميع مظاهر عاطفتها وتفكيرها، وما كنا لنكون هكذا الاّ بالاسلام الدين الذي ندين به ونعيش له ونعمل من أجله...

أما الجزائر فهي وطني الخاص الذي تربطني بأهله روابط من الماضي والحاضر والمستقبل بوجه خاص، وتفرض عليّ تلك الروابط لأجله — كجزء منه — فروضا وأنا أشعر بأنّ كلّ مقوّماتي الشخصية مستمدة منه مباشرة. وكما أنني كلّما أردت أن أعمل عملا وجدتني في حاجة اليه: الى رجاله والى ماله والى حاله والى آلامه والى آماله، كذلك أجدني إذا عملت خدمت بعملي ناحية أو أكثر ممّا كنت في حاجة اليه.

هكذا هذا الاتصال المباشر أجده بيني وبين وطني الخاص في كلّ حال وفي جميع الأعمال، وأحسب أنّ كلّ ابن وطن يعمل لوطنه لابدّ أن يجد نفسه مع وطنه الخاص في مثل هذه المباشرة وهذا الاتصال.

نعم أنّ وراء هذا الوطن الخاص أوطانا أخرى عزيزة علينا هي دائما منّا على بال، ونحن فيما نعمل لوطننا الخاص نعتقد أنّه لابدّ أن نكون قد خدمناها وأوصلنا إليها النفع والخير من طريق خدمتنا لوطننا الخاص...

فلنقل كلنا: ليحي الاسلام! ولتحي الجزائر!

(*) الشهاب، ج: 10، م: 12، في شوال 1355هـ — جانفي 1937م.

أحمد رضا حـوحـو

1330 ــ 1376 هـ

1911 ــ 1956 م

أحمد رضا حوحو

1330 ـ 1376 هـ

1911 ـ 1956 م

مع مطلع القرن العشرين باتت أهداف فرنسا من احتلال الجزائر واضحة على كل المستويات: سياسيا واقتصاديا وثقافيا واستراتيجيا أولا وأخيرا: من أجل أن تكون الجزائر منطقة فرنسية، وأرضها الخصبة بالخصوص ملكا للأوروبيين، فرنسيين وغيرهم، واقتصادها في خدمة الاقتصاد الفرنسي وهي منطقة استراتيجية في حمّى الصراع الدولي على مناطق النفوذ لنشر الثقافة الفرنسية والفكر الفرنسي زيادة على موقع للمسيحية التي أسهم بعض رجالها في التمكين للاحتلال سابقين له روّادا: جواسيس أو رحّالين، أو مرافقين جيوشه الغازية، أو لاحقين بعد ذلك لتولي المهام في مواقع حسّاسة في الوطن.

مع مطلع القرن إذن اتّخذ طابع المقاومة الجزائرية أكثر من منعرج، فالمقاومة السلبية فرارا من الوطن لا تطرد الاحتلال بل تخدمه وتمكّن له، رفضتها أشكال أخرى من المقاومة: كالعمل لمقاطعة الاحتلال بمستويات مختلفة، وحمل السلاح في عدة مناطق من الوطن، فبرزت ضمن ذلك عبر النصف الأول من هذا القرن المقاومة الفكرية صلبة عنيدة تمثّلت في عدة مظاهر، فمقاطعة المدارس الفرنسية واللجوء الى معاهد الزوايا والمدارس الخاصة، ومدارس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين وجه من المقاومة، كما باتت هذه المواقع عبارة عن بوتقة فكرية لعب فيها الدين دورا حاسما، بل حتى الذين تعلموا في المدارس الفرنسية (في الجزائر) كشفت لهم برامجها

عن خبث النيات لدى المخططين للاحتلال والتمكين له على المدى البعيد جدا. كما كشف لهم أساتذتها بإفكهم وتضليلهم عمّا يضمرونه من شرّ للوطن وبنيه: مسخا فكريا، ثقافيا دينيا، قوميا في النهاية.

وهنا برز دور الكتاب والمفكّرين جليا في العمل على حماية الوطن والمواطن من كيد الاحتلال، وفي فضح التآمر الفرنسي ــ الأوروبي على مستقبل البلد كوطن له انتماؤه الحضاري: عربيا اسلاميا، انطلاقا من روابط التاريخ والجغرافيا واللغة والدين.

في هذا الجوّ برز الكاتب (أحمد رضا حوحو) معلّما، وصحفيا، وكاتبا ورحّالة، ومصلحا في كل المواقع السابقة وغيرها... في الحياة الخاصة والعامة. ولد في مدينة (سيدي عقبة) بالجنوب الجزائري سنة (1330 هـ ــ 1911م) حيث حفظ القرآن وبدأ دراسة العربية والفرنسية، واصلها في (سكيكدة) ثم تابعها في الحجاز بعد انتقال أسرته الى هناك سنة 1934، وهنا بدأ انتاجه الأدبي يجد طريقه الى القراء في (المنهل) السعودية و (الرابطة العربية) المصرية.

لم يمكث طويلا حتى عاد الى وطنه سنة 1946م، واتخذ من (قسنطينة) مقاما له عاملا في (جمعية العلماء المسلمين الجزائريين) أستاذا مصلحا في تدريسه وفي كتاباته، قام برحلات لعدة بلدان، لعلّ أهمها رحلته الى (الاتحاد السوفياتي) التي كتب عنها في ((الشعلة))[1] مبديا تقديره للتطوّر الصناعي والاقتصادي في هذا البلد حريصا من خلال ذلك على بعث وعي وطني في نفس القارىء العربي عامة والجزائري خاصة ليحطّم

---

(1) كانت الحلقة الأولى في العدد: 40، ليوم 23 ذي الحجة 1369 هـ ــ 5 أكتوبر 1950، وتوقفت دون أن تنتهي في العدد: 54 ليوم: 1 جمادي الأولى 1370هـ ــ 8 فيفري 1951. بمنع الجريدة من الصدور، مع العلم أيضا أنه لم يظهر في الأعداد: 42، 49، 51، 52 شيء من الرحلة، ربما لمادة الجريدة، أو لموانع شخصية للكاتب.

الأغلال، وينهض لبناء مجتمع قويّ وتشييد وطن حرّ مزدهر، مضى في نضاله مستميتا في الدفاع عن قضايا وطنه معرضًا بالاحتلال وأذ نابه متصديا للكشف عن العيوب التي تقعد بالوطن والمواطن، فتجعلهما رهن التخلف والاحتلال. ولهذا ــ وبصفته كاتبا بشكل أخص ــ كانت يد المحتلّين الفرنسيين اليه أسرع بعد اندلاع الثورة المسلحة في 1954 فاختطف وقتل، فكان استشهاده في مارس سنة 1956م. مخلّفا وراءه حسرة وطنية وفراغا ما فكريا كقلم متميّز في أكثر من مجال من مجالات الكتابة، قصة ومسرحية ومقالة.

وقد عمل خلال حياته أولا نحو أربعة عشر عاما في البريد بمدينة (سيدي عقبة)، وثانيا مدرّسا في مدرسة للعلوم الشرعية (بالمدينة المنوّرة) وهي المدرسة التي تخرّج منها.

بعد عودته الى الجزائر، أبرز أعماله أمين عام لمعهد (عبدالحميد بن باديس) في (قسنطينة) الذي فتح أبوابه سنة 1947م ثم بشكل خاص عمله في الصحافة، فكتب في (البصائر)[1] و (الشعلة)[2] التي تولّى فيها رئاسة التحرير، بينما الأشراف العام على ادارتها (لأحمد بوشمال) وصاحب الامتياز فيها (الصادق حماني). وقد جنّد قلمه وفكره لبثّ الوعي في النفوس وحثّ الهمم، ومحاربة الاحتلال والبدع وكل الآفات الاجتماعية التي تطلّ برأسها في الساحة بكل ألوانها السياسية والاجتماعية والاقتصادية والنفسية. من هنا كانت الصحافة مجالا جوهريا من مجالات الانتاج الفكري والأدبي لدى الكاتب مما ينتظر جهدا للجمع والتبويب والدراسة لانصاف رجل أبدع بسخاء في زمن القحط والاستبداد.

---

(1) لسان حال جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، في سلسلتها الثانية التي عادت بها للصدور، في خريف 1947.

(2) أسبوعية، «المكافح والانتقاد» تصدر كل يوم خميس من أربع صفحات، صدر أول عدد منها في 22 صفر 1369 هـ ــ 15 ديسمبر 1949، وآخر عدد في 1 جمادي الأولى 1370 هـ ــ 8 فيفري 1951، فكان آخر عدد هو العدد: 54.

تنوّع انتاج (أحمد رضا حوحو) بين المقالة، والمسرحية، والقصة القصيرة، ففي المقالة هناك المقالة السياسية في شؤون الوطن والاحتلال. والمقالة الاجتماعية فيما هنالك من آفات وأمراض، والمقالة الأدبية بأسلوبها المتميز، وكذلك المقالة القصصية التي تنحو نحو المقالة الأدبية وتستند الى عنصر القص كجانب في القصة القصيرة، وانتاج الكاتب هنا ثريّ متنوع لا يزال أكثره بعيدا اليوم عن أيدي القراء في صحف تلك الفترة سواء في المشرق أو في المغرب.

وقد أعطى اهتماما كبيرا للمسرح: فأنشأ (جمعية المزهر القسنطينية) للموسيقى والتمثيل سنة 1948، وكتب عدة مسرحيات مثّل بعضها، ونشر بعضها الآخر، ولا يزال بعض منها مجهولا وهو الأكثر[1]، من هذه المسرحيات:

1 ـــ «عنبسة»: وهي مسرحية سياسية عاطفية، تقع في ثلاثة فصول، «لا يسع الدارس لأدب حوحو إلا أن ينوّه بها»[2].

2 ـــ «بائعة الورد» مأساة في خمسة فصول.

3 ـــ «الأستاذ» وهي مسرحية هزلية تتألف من فصل واحد. قدم لها بقوله: «كان عبدالحق عاملا بسيطا من عامة الناس، أميا لم يتلقّ من العلوم شيئا، لا قليلا ولا كثيرا، لا يعرفه أحد سوى زملائه في العمل وبعض جيرانه في الحيّ المتواضع الذي يسكنه لضآلة مركزه الاجتماعي ولانصرافه عن الناس بالكدّ في سبيل العيش. وذات يوم توفي عمه الثريّ ـــ وكان وارثه الوحيد ـــ فاستولى على جميع أمواله وثروته الطائلة، وأصبح من كبار الأثرياء

(1) أنظر: المجهول من أدب حوحو المسرحي، د. محمود الربداوي، مجلة (الثقافة) الجزائر، عدد: 17، رمضان ـــ شوال 1393 هـ ـــ أكتوبر ـــ نوفمبر 1973م.
(2) المرجع السابق، ص: 62.

يشار له بالبنان، وما كاد يشيع الخير حتى تجمهر الزوار على باب داره من مهنئين ومتسوّلين وفضوليين»[1]. بهذا التقديم أسرع باعلان الادانة القاسية للمحيط الاجتماعي وما يعجّ به من نفاق وانتهازية.

4 ــ دار الشرع أو دار الخصومة، في ثلاثة فصول، تتمحور حول شخصية قاض، عكس الكاتب بها أشكالا أخرى من الأمراض الاجتماعية من رشوة، ووصولية.

5 ــ ابن الرشيد، قوامها ثلاثة فصول، عن شخصية (المأمون) بن هرون الرشيد، وما كان يعجّ به القصر من صور سلبية وايجابية.

6 ــ أدباء المظهر، من الأعمال التي يضمّها كتابه (نماذج بشرية)[2] يتحرك فيها (أستاذ أدب) وأحد تلاميذه الأصدقاء، مع أربعة من طلاب (أدب المظهر) كل ذلك في فصلين اثنين.

هذه أهم ما يعرف ــ عموما ــ من مسرحيات (أحمد رضا حوحو) اضافة الى غيرها، مع العلم أن بعض مسرحياته مقتبس كما أن بعضها خاصة مما لم نذكر كتب بلغة عامية، اجتهادا خاطئا من المؤلف.

ومهما كانت هذه المسرحيات بالعامية أو بالفصحى، مقتبسة أو موضوعة فانها استطاعت ان تنقل وجهة نظر الكاتب، وتعبّر عن تفاعله مع واقعه والتصدّي لبعض الأمراض بأسلوب «ساخر، ونقد لاذع لأوضاعنا الاجتماعية والسياسية، كما خدم المسرح بتشجيع الممثلين ونقده لما تقدمه بعض الفرق من أعمال أدبية»[3].

---

(1) أنظر: (نماذج بشرية) في طبعتها الجديدة عن (موفم للنشر) سلسلة (الأنيس) ضمن المجموعة (غادة أم القرى وقصص أخرى) ط: 2، ص: 249، الجزائر، 1989.

(2) المصدر السابق، ص: 111.

(3) دراسات في الأدب الجزائري الحديث، أبو القاسم سعد الله، ط: 3، ص: 90، الدار التونسية للنشر، تونس، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر 1985.

الأعمال القصصية لأحمد رضا حوحو هي التي نالت اهتماما أكثر، واعتبارا أفضل، أول هذه الأعمال قصته ذات الطول المعتبر الذي يكاد يجعلها رواية: (غادة أم القرى) التي نشرها سنة 1947 وهو يصوّر فيها معاناة المرأة الحجازية، وحرمانها من حقّها في التعليم وحقّها في الرأي، لكنه لم يلبث حتى وجدها شريكة للمرأة الجزائرية في ذلك فهما شريكان في المعاناة لواقع متبلّد، وظلم وقهر وجبروت، وهو ان أعطى هذه (القصة ــ الرواية) عنوان (غادة أمّ القرى) أي بنت مكة المكرمة، فقد أهداها الى بنت الجزائر بقوله: «الى تلك التي تعيش محرومة من نعمة الحب... من نعمة العلم... من نعمة الحرية. الى تلك المخلوقة البائسة المهملة في هذا الوجود، الى المرأة الجزائرية، أقدّم هذه القصة تعزية وسلوى»[1] وقد قصد بها الاصلاح لتغييره الأوضاع، فلم يكن الى جانب الفئة الظالمة المتجبّرة التي تنكر حق المرأة الطبيعي والشرعي حتى في اطار دينها الاسلامي، ولا الى جانب الفئة الأخرى التي تريد للمرأة العربية حياة المرأة الأوروبية، كان الى جانب الفئة الثالثة التي تطالب للمرأة بحقها الذي أقرّه لها دينها، وهو الصوت الذي أرهفت المرأة اليه السمع لأنه صوت اصلاحي، عادل، صوت فئة «من الشباب المثقف تعني بأمر اصلاحها في غير استهتار أو جمود، تدعو لأن تنال المرأة نصيبها من العلم الديني والتعليم المنزلي والاجتماعي وتحظى بحقّها في الحياة وهي موفورة الكرامة محفوظة الحجاب الشرعي»[2] بهذا قدّم لها يومئذ أحد الكتاب (أحمد بوشناق) الذي أضاف بعد ذلك مباشرة: «كان صوت هذه الفئة خافتا ضعيفا يخنقه ما حوله من جمود، ويخمده ما يحيط به من جهل، غير أن صديقنا الأستاذ (حوحو) يريد أن يدفع بهذا الفريق المخلص الى الميدان، فها هو يصور لنا حياة الحجاز

---

(1) غادة أم القرى الأدب الجزائري الحديث، أبو القاسم سعد الله، ط: 3، ص: 90، الدار التونسية للنشر ــ تونس، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1985.

(2) غادة أم القرى، موفم للنشر، ص: 11.

وما تقاسيه خير تصوير ويعرض من ذلك عرضا لا يشوبه تزييف ولا يمازجه تزوير. واني أرجو أن تكون لهذه الخطوات الجريئة التي يخطوها صديقنا (الحوحو) في القضية الحجازية ما يشجعنا ويغرينا على اقتفاء أثره واتباع طريقته علنا نشاركه في حمل عبء ثقيل من أعباء نهضتنا القادمة ان شاء الله»[1].

2 ــ من الزاوية الاصلاحية أيضا عالج (أحمد رضا حوحو) في كتابه ((مع حمار الحكيم))[2] الصادر سنة 1953 عدة قضايا مستخدما في ذلك «شخصية» الحمار، للسخرية، والتندر، والتعريض بمظاهر تخلّف وانحطاط في السلوك وفي التفكير، فبقدر ما عرّض بالانتهازية الحزبية ولغطها، عرّض بظاهرة الحرص من بعض المثقفين على الزواج بأجنبيات، الى غير ذلك من المسائل التي أوحى له بها كتاب (توفيق الحكيم) الذي يحمل عنوان «حماري قال لي»، وقد ذكر مناسبة لذلك صديق (حوحو) الأستاذ (عبدالرحمان شيبان) في تقديمه الكتاب يومئذ قائلا: «في ليلة من تلك الليالي الزاخرة قدمت للأخ حوحو (حماري قال لي) للأستاذ توفيق الحكيم... فالتهمه في سهرة واحدة، وأعاده إلّي في الغد وهو معجب بموضوعه، مأخوذ بأسلوبه، فقلت له.... لا تدع هذه الجذوة التي أوقدها الأديب الحكيم في نفسك تخمد دون أن تقوم بعمل ما ــ فقال: ماذا تريدني أن أعمل؟ ــ قلت: تجنّد قلمك لتوجيه هذا الشعب الذي كثر مستغلّوه وقلّ خادموه على نحو ما فعل (توفيق الحكيم) في (مصر). وذلك ما كان...»[3] وان كانت المعالجة قصصية فالشكل أكثر انتماء للمقال القصصي لا لقصة فنية ناضجة.

3 ــ العمل المتميز الأقرب من بين أعمال (حوحو) الى عالم القصة الفنية الناضجة هو مجموعته (صاحبة الوحي)[4] ففيها أو بها أسهم (أحمد

---

(1) المصدر السابق، الصفحة نفسها.
(2) أنظر طبعة المؤسسة الوطنية للكتاب، 1988م.
(3) المصدر السابق، ص: 5.
(4) أعيد طبعها في المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر. 1988.

رضا حوحو) في تأصيل القصة الفنية العربية في الجزائر وهي تتضمن تسع قصص: صاحبة الوحي، القبلة المشؤومة، فتاة أحلامي، ثري الحرب، أدباء المظهر، جريمة حماة، الفقراء، صديقي الشاعر، خولة.

وتلعب العاطفة في قصص (حوحو) الدور الأساسي، حيث يتجسّد الحرمان، وضراوة القيود على هذه العاطفة، ووطأة التقاليد القاسية عليها، حتى بات الهمّ والحرمان سمة عامة فيها، الى درجة تشعر معها بشخصيات (المنفلوطي) تلقي ببعض ظلها عليها. وهو ما عكس وضعا، الأديب أول من يحسّه، لأنه الأقرب الى الطبيعة والى لغة القلوب، وصفاء الطفولة «الى من يغني لنفسه في ملاذه الفكرية... ويعيش في متعة الحيرة والألم... الى الأديب».

4 ـــ آخر عمل ينتمي الى الشكل القصصي نتوقف عنده كتاب (نماذج بشرية)[1] هي سير ذاتية، مقاطع من حيوات أشخاص في قوالب مختلفة، وصفا وسخرية وتعريضا، وسردا وتعليقا في معايشة الشخصيات، شخصيات (الشيخ زروق) (عائشة) (العصامي) (العم نتيش) (السكير) (رجل من الناس) وهذه (النماذج) لا تعني التسمية فيها تعريضا، وانما تصوير ألوان من حياة أشخاص اختلفت مشاربهم، وتباينت مصائرهم، كما هو الأمر في مواقفهم شرفا ووضاعة.

والعمل عبارة عن (مقالات قصصية) تصوّر «مجموعة من الطباع البشرية في مجموعة من البشر منتقاة من صميم المجتمع»[2] ثم يضيف الكاتب مؤكدا ذلك «لم أعمد في عرض هذه النماذج الى الخيال فاستخدمه في التّنميق والتزويق أو الى التحليل النفساني فأسخره لاثبات فكرة أو

---

(1) طبع أول مرة سنة 1955م في سلسلة (كتاب البعث) ـــ تونس، 1955، وأعادت طبعه (موفم للنشر) مع (غادة أم القرى) الجزائر، 1989م.
(2) المصدر السابق، ص: 179.

إدحاض أخرى... انما التجأت الى المجتمع وانتزعت من مختلف طبقاته نماذج عشت مع بعضها، وسمعت عن بعضها، نماذج حيّة أقدّمها للقاريء لعله يتوصل بها الى تفهم بعض طباع مجتمعه، فيلمس أنبل نفس في أحقر شخصية، ويلمس الا يمان القويّ في قلب الرجل الضال، والزيغ والالحاد تحت عمامة رجل الشرع»(1).

لقد تنوّع انتاج (حوحو) وتميز بكثير من الطلاوة والجاذبية، لا يكاد يحيد في كل عمل عن قضايا الحياة اليومية بكل ما تفرزه من سلبيات وايجابيات، منوعا في أداة التعبير، وطريقة التصوير والمعالجة، فكان من القلائل الذين أخلصوا للفكر والأدب، وأحبوا عملهم واستطابوا المعاناة في سبيله. «ورغم ثورته على الواقع الأدبي وعدم اقتناعه بقيمة الانتاج الفنية وشعوره بنقص التقدير، وكثرة المثبطين فقد أعلن قبل اغتياله بشهر واحد عن مشروع ثقافي كبير لو أتيح له أن يخرج الى الوجود لأدّى به خدمة عظيمة للثقافة العربية في الجزائر الفقيرة الى المشاريع على الاطلاق، ومشاريع النشر على الخصوص... فإذا عرفنا أنه شخص واقعي لا يؤمن بالتّشجيع وبالوعود وانه يفعل ما يقول عرفنا انه كان جادا في مشروعه، وانه قد هيأ له الأسباب الكفيلة بانجاحه واخراجه الى الشمس والهواء لينافس به المشاريع الثقافية الكبيرة في البلاد العربية. ولكن الاستعمار أبى عليه ذلك وعجّل بالقضاء عليه....»(2)، لكن ما تركه من آثار عكس بدوره جهد الكاتب فيما قدّم من اضافات في الثقافة العربية في الجزائر الرازحة تحت نير الاحتلال الفرنسي خاصة في مجال القصة القصيرة والنقد الاجتماعي لمعالجة الآفات الاجتماعية التي يدركها الفنان قبل غيره، ويكون أول من يعاني انعكاساتها في العلاقات بين الناس.

---

(1) المصدر السابق، ص: 180.
(2) دراسات في الأدب الجزائري الحديث، سعد آلله، ص 91.

نصوص من كتابات (أحمد رضا حوحو)

1 ــ آخر جزء من قصة (صاحبة الوحي) التي حملت مجموعته القصصية أسمها:

«... لو ابتدع قدماء الرومان آلهة للعيون، وبعثت عيناها في قدماء الرومان، لجعلوا منها آلهة هذه الآلهة.. ان التي أحدّثك عنها هي (كيوبيد) نفسه إله الحب، انها فينوس الهة الجمال، انها أحلى من الآمال وأعذب من الحياة، انها الهام الفنّان حينما يحلق في سماء الفنّ، انها وحي الشاعر حينما يسمو في دنيا القريض انها نغمات الموسيقى الحالمة العذبة، انها نبرات الصوت الملائكي الجميل، انها معبد العابد الناسك يقدّس فيه قدرة ٱلله على الابداع في الحسن والجمال، انها رسول الكاتب حينما يتقلّد يراعه تهديه الى خمائل الحسن ومرابع الجمال الفني.

أما شفتاها.. ان شفتيها لساحرتان، إذا ما لمستها شفتاك سرى في روحك وجسدك تيّارهما السحري، فتغيب لغورك عن عالم الوجود وتغدو بين اليقظة والمنام فتشعر وكأنك نائم في وسط زهرة فلّ أينعت في حقل مزهر أيام الربيع الجميلة، وما هذه النشوة التي أودعت في الرّحيق الاّ قطرة ضئيلة من ماء شفتيها، وإذا ابتسمت شفتاها شعرت بالكون كله يبتسم، فما الربيع الى بسمة من شفتيها، بل بسمة واحدة من شفتيها ملأت هذا العالم حسنا وجمالا، جمال الزهرة النضرة، جمال الكون البديع، جمال السماء الصافية، جمال الحقل المزهر، جمال الروح الطاهرة كلها من بسمة شفتيها.

ان التي أتحدث عنها ملاك من سمائه الى عالمنا الأرضي ليفتن أهل الأرض من عباد ٱلله الصالحين، انها المثل الأعلى للجمال، منه خلقت، وله

بعثت، وبه فتنت وأسعدت وأشقت. أما صوتها أظن أنه لا يوجد في لغة البشر ما يصلح أن يعبر به عن وصف هذا الصوت الملائكي، انه موسيقي أهل الجنة، وما أسعد أهل الجنة الذين يستمتعون بهذا الصوت السحري، ان صوتها الهام الموسيقار العبقري ووحي البلبل الغريد.

ثم سكت برهة التقط فيها أنفاسه، واسترسل يقول:
ــ جمعتني بها الصدف فأحببتها حبّا عنيفا طاغيا، حبا طاهرا قدسيا، أحببت فيها شذوذها عن تفكير البشر وأخلاق البشر، فقد كانت ملاكي الطاهر المقدس توحي الّي كلّ يوم بآيات جديدة من الشعر فكنت قانعا منها بهذا الوحي مسرورا بتلك اللّحظات السعيدة التي كانت تجود عليّ بها..

ولم أطق صبرا فقاطعته قائلا:
ــ رأيك!.. انك ذي؟ لعلك محموم! من تكون هذه التي تتحدث عنها؟ لا أظنها موجودة الا في خيالك!..

فلم يلتفت صديقي الشاعر الى مقاطعتي واسترسل في حديثه كأنه لا يعنيه من أمري شيء، وكأنه يحدث شخصا آخر فلم يعرني حتى نظرة، أو التفاتة، واسترسل يقول:

ــ ياللهول! واكتشفت أخيرا أنها بشر لها رذائله ولها أوضاره، لها ضعفه ولها شهواته.. فقد كانت تلهوبي وتعبث بسذاجتي، ما أغباني، أنا الذي كنت أومن بالحب الروحي، فقد اكتشفت اليوم أنها كانت تحب جسدها وتستجيب لرغباته الدنيئة..

وسكت صديقي، وسكت، وأخذت أبحث عن كلمات مناسبة أخفف بها عنه صدمته العنيفة، ومن حيث لا أشعر تناولت كرّاسة كانت موضوعة أمامه وأخذت أتصفحا وأنا شارد الذهن، وإذا بأشعار كثيرة سطـــــــــــــــــــــــــــرت على

صفحاتها بخط جميل، ولفتت نظري أبيات كتبت بالحبر الأحمر لم يطلعني عليها، ولعلها آخر ما نظم لمأساته المؤلمة، يقول فيها:

لقد كنت الهامي الذي من شعاعه شدوت بألحاني رصعت القوافيا
وكنت لروحي عالما من بشائر وأفراح قلب كان لولاك ذاويا
وقد كنت في دنيا فنون وغبطة أروح بها جذلان أمرح لاهيا
وها أنا في دنيا من الشجو والأسى أودع أحلامي وأبكي اللياليا

وأثقل الصمت مجلسنا فلم أجد بدا من الكلام فقلت له:

— أو لم تصبح صاحبتك قادرة على الوحي؟ قال: كلا!

فقد أفسدها الانسان بشروره فأصبحت شيطانا بعدما كانت ملاكا.

قلت: اتخذها شيطانا لشعرك كما اتخذتها سابقا ملاكا له.

— ليس ذلك في مقدوري يا صديقي.

وسكت ذلك البلبل الغريد من ذلك اليوم فلم يعد يشجيني بألحانه العذبة. ثم زهد حتى في ملاقاتي ومال الى العزلة والانفراد...

وهكذا لم تنتظر الأيام طويلا قبل أن تكشف له عن باطن الحياة المزيف.

مجموعة (صاحبة الوحي)
ص: 27

2 ــ مقطع من مسرحية (الأستاذ) ذات الفصل الواحد:

المنظر: قاعة فسيحة في دار عمّه التي ورثها، مؤثثة بأثاث شرقي من زرابي وأرائك، يبدو عبدالحق في صدر القاعة، وهو رجل في العقد الخامس من عمره، ضخم الجثّة مرتديا أثوابا جديدة فضفاضة، لبسها على عجل، دون ترتيب ولا نظام.

عبد الحق ــ «سلمان الخادم»
ــ سلمان!... سلمان...
ــ نعم سيدي... أمرك؟.
ــ عبدالحق ــ «وحده».

نعم سيدي... أمرك... ما أعذبها من كلمات «لسلمان». سلمان أنت الذي قضيت جلّ حياتك مع عمي رحمه آلله. وفي خدمته، أرشدني لما يجب عليّ عمله من لباس وأحاديث وغير ذلك، فاني لا أريد أن أظهر بمظهر الغباء أمام الناس، وأنت على كل حال، لك خبرة بحياة القصور وحياة كبار الأثرياء مثلي... ولا يخافك هذه الجموع الغفيرة من الزوار!..

ما دمت قد لجأت اليّ يا سيدي واسترشدتني، فان نصيحتي اليك هي أن تغلق بابك في وجوه هؤلاء الزوار. ولا حاجة لك بهم، فانك لن تستفيد منهم شيئا يعود عليك بالنفع...

ــ عبد الحق:

لا.. لا.. لا داعي الى ردهم، فانهم لن يكلفوني أكثر من فنجان من قهوة وقطعة من الحلوى، ثم ان الخير كثير.. اني لا أوافقك على ذلك... لا تغلق الباب دعهم يأتون، فاني في حاجة اليهم، أتعلم عليهم الحياة الجديدة حياة الأثرياء وخيرة الناس.

ـ سلمان:

ان خيرة الناس يا سيدي عبدالحق، لا يأتون اليك ولا يعبأون بك ولا بمالك، وثق من انه لا يهتم بك الا ذوو المطامع المختلفة في أموالك.

«يسمع طرق على الباب»:

ـ عبدالحق «يعتدل في جلسته ويصلح من هندامه: «سلمان!.. اسرع... افتح الباب لهؤلاء الزوار... واعد لهم القهوة والحلويات... اسرع...

ـ سلمان:

أمرك ياسيدي يخرج ويعود حصبة ثلاثة شبان السلام عليكم: هذا وفد الأدب والفن يا حضرة الأستاذ جاءك زائرا ومهنئا.. أهلا ومرحبا بكم... تفضلوا... سلمان أحضر القهوة والحلويات للسادة... «سلمان يخرج».

ما مهنتكم...

ـ زكـــي:

نحن أدباء يا حضرة الأستاذ الجليل...

ـ عبدالحق:

انكم تجهلون اسمي على ما أظن. فان اسمي «عبدالحق» وليس اسمي «الأستاذ».

ـ زكـــي:

ان اسمكم مشهور عند عامة الناس وخاصتهم «كأنه علم في رأسه نار».

ــ عبدالحق «يلمس رأسه»:

يالطيف.... في رأسي نار!..

ــ زكـــي:

وانما لفظة الأستاذ، تعبير الأدباء ولقبهم المبجل، يلقبون من شاؤوا من الأفاضل والمثقفين. ولا ريب عندنا في أنكم من كبارهم...

ــ عبدالحق:

من كبارهم... هيه من كبارهم.. الخير كثير... هيه، وما معنى أدباء هذه...

ــ زكي: «متلعثما»:

أدباء؟... يعني... أدباء!.. يعني أناس كبار...

ــ عبدالحق:

ما ألطفكم!. وما أعذب كلامكم من كلام.. وهل يمكنكم ان تجعلوا مني أديبا مثلكم؟ ان لدى مالا كثيرا!

ــ زكـــي:

يا سلام... مال كثير... نتشرف... نتشرف يا سعادة الأستاذ الجليل ان نجعلكم رئيسا علينا وإن الآداب والفنون تتشرف وتفتخر اليوم بسعادتكم.. ومن ذا الذي ينهض بها غيركم؟..

ــ عبدالحق:

الخير الكثير... تستطيعون ان تعتمدوا عليّ، يكون خيرا ان شاء الله... وما ذا أعمل؟..

عن مجموع (غادة أم القرى وقصص أخرى)
ص: 50، 51، 52

3 ـ نموذج من مقالاته:

مقالة عن (معهد عبدالحميد بن باديس) في قسنطينة

وولد أخيرا هذا المولود الذي طالما انتظرناه بفارغ الصبر، لأننا كنّا نعلم حقّ العلم أن الأمة التي تسعى الى التقدم بدون ثقافة كالساري في الليل الداجي بدون نور، وما النهضة بدون علم الا محاولة محكوم عليها سلفا بالفشل، بل هي ضرب من القمار ولعبة من ألعاب الحظّ التي تصيب مرّة وتخطيء مرارا، ولكن مآلها الأخير الى الفشل والخسران.

كنا نعلم كل ذلك ونعلم معه رغبة الأمة الملحة في علومها ولهفتها الشديدة الى ثقافتها، فلم يبق إذن الاّ أن تقوم جمعية العلماء بحمل هذا العبء. وذكرت جمعية العلماء ولم أذكر غيرها من الهيئات والجمعيات لأنها عرفت وحدها بتحمل هذه الأعباء الثقيلة وعملها الصامت المجدي في صالح هذه البلاد. والحقيقة ان حركة الثقافة العربية في هذه البلاد أصبحت لا تشيع الا الغذاء الذي تقدمه لها هذه الجمعية، فلا تكاد تتأسس مدرسة كبيرة أو صغيرة الا وهرع أهلها الى جمعية العلماء يطلبون المعلم ويطلبون البرنامج. ومهمة التعليم العربي في هذه الديار حمل ثقيل تنوء تحت عبئه أعناق العمالقة الأقوياء فضلا عن الأكتاف الضعيفة الهزيلة.

ولكنها عناية آلله، كوّنت القوّة من الضعف، فلا تكاد تقوم أزمة في طريق التعليم العربي الاّ وتنفرج، ولا تكاد تبث العراقيل في سبيل الثقافة الاسلامية الا وتزال. نعم، فلا شك أن هناك عناية آلله، ولكن هناك أيضا همم الرجال العالية، وعزائم الرجال الحادة، وأعمال الرجال الجبارة قامت بما تعجز عنه الحكومات وما لها من أموال ونفوذ.

ثم.. أو لم تكن كل هذه الخصال الا نعما من آلله على الأمة التي يريد بها خيرا؟

ولد أخيرا هذا المولود السعيد بعد طول الانتظار وفارغ الصبر، وسمته الأمة باسم عبدالحميد بن باديس الخالد، والأمة التي تخلّد رجالها بالأعمال لا بالأقوال الفارغة لجديرة بالنهوض والرقيّ.

نشأ هذا المعهد في جوّ مضطرب عاصف ملبّد بشتّى الغيوم المخيفة، وما ذلك الا امتحان لقوته على السير والثبات فان استطاع البقاء وهو الضعيف الناشىء في هذا الجو العاصف الشديد كانت حياته مديدة ومستقبله زاهرا.

كان انشاء هذا المعهد فكرة تداعب خيال الخواص ولكنها ما لبثت الا قليلا حتى أصبحت رغبة ملحة في نفوس العامة والخاصة على السواء، وعندما جاء دور العمل وجدّ الجدّ أخذت العراقيل توضع في سبيل انشائه، وأخذت الألغام تبث في طريق سيره، فقد تخوف منه قبل الاستعمار كثيرون من الاستغلاليين الذين لا تحلو لهم الحياة الا إذا كانت على حساب جهل أمتهم وانحطاطها، وانه لنوع غريب من تنازع البقاء.

ويجمل بي هنا أن أذكر باعجاب ما لفضيلة الأستاذ الابراهيمي من صبر وتحمّل لايطيقهما غيره، وما لفضيلة الشيخ العربي التبسي من حزم وعزيمة لا يتمتّع بهما غيره، فمن صبر ذلك وتحمّله نشأ هذا المعهد، ومن حزم هذا وعزيمته سار هذا المعهد في طريقه.

ومن هذين الرجلين وما لهما من ميزات خاصة كان الحصن المنيع الذي يدفع عنه عواصف الأغراض مهما كان نوعها ومصدرها.

وبعد، فهذا المعهد الناشىء في حاجة ماسّة الى العناية والرعاية حتى يكبر ويترعرع، وما أخاله الا واجدا كل العناية، وما أخاله كذلك الا سائرا في طريق الرقيّ والكمال، تحرسه قلوب أمة كاملة متعلقة به، وترعاه أماني أمة كاملة مبنية عليه.

ولا نشك في أنه من ذلك الباب الذي نقش عليه اسم عبدالحميد ابن باديس سيخرج جيل ابن باديس الصّالح الذي سيقود منه الأمة الى عرش المجد والشرف، تتربّع عليه كما تربع عليه أسلافها من قبل.

عن جريدة (البصائر) ع: 44، ص : 2
السلسلة الثانية، 20 رمضان 1367هـ ــ 26 جويلية 1948
وكان المقال بعنوان (الصفحة الأولى في تاريخ معهد عبدالحميد بن باديس)

المصادر والمراجع

(1) غادة أمّ القرى، أحمد رضا حوحو، ط: 2، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر 1988.

(2) غادة أمّ القرى وقصص أخرى، أحمد رضا حوحو، ط: 2، موفم للنشر، سلسلة الأنيس، الجزائر، 1989م.

(3) مع حمار الحكيم، أحمد رضا حوحو، ط: 2، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1988م.

(4) صاحبة الوحي (مجموعة) أحمد رضا حوحو، ط: 2، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1988م.

(5) دراسات في الأدب الجزائري الحديث، أبو القاسم سعد الله، ط: 3، الدار التونسية للنشر ــ تونس ــ المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر (نشر مشترك) 1985.

(6) مجلة (الثقافة) الجزائرية، ع: 17، س: 3، رمضان ــ شوال 1393هـ، أكتوبر ــ نوفمبر 1973.

(7) جريدة (البصائر) ع: 44، ص س: 2، الأثنين 20 رمضان سنة 1367هـ، الموافق ليوم 26 جويلية 1948م.

الأديب المجاهد: الأمين العمودي

1890 ـ 1957م

الأديب المجاهد: الأمين العمودي

1890 — 1957م

محمد الأمين العمودي: شاعر ومحام وصحفي، وهو في كل ذلك كان مجاهدا في سبيل وطنه، ومن أجل أمته العربية المسلمة التي حاول المحتل الأوروبي مسخها، وسخّر شاعريته كما سخر مهنته (المحاماة) وعمله الصحفي لذلك، حتى في شعره الذاتي والقضايا الصغيرة في الصحافة أو في (العدالة) كان يطل وطنه: يطل وراء بؤسه، كما يطل وراء مظاهر الظلم.

تفتّح وعي (محمد الأمين العمودي) على الواقع في محيط بدأ يموج بحركة اصلاحية لم يلبث حتى اندمج فيها، بل بات شخصية بارزة فيها ضمن تيار (جمعية العلماء المسلمين الجزائريين) بقيادة (عبدالحميد بان باديس).

ولد الأديب بوادي سوف، 1890 حيث تلقى تعليمه الابتدائي بالعربية والفرنسية، ثم التحق بالمدرسة (الفرنسية — الاسلامية) في قسنطينة(*) التي تخرّج منها للعمل في جهاز القضاء حيث تقلّب بين المناصب والمدن، غير ان وظيفته في القضاء بدت ثانوية بالنسبة لعمله النضالي الآخر في المجال الوطني خاصة في الصحافة أو في (جمعية العلماء المسلمين الجزائريين) أو في الحياة العامة، وهكذا أسهم (محمد الأمين العمودي) بقلمه في مختلف الصحف التي صدرت في عهده من تلك التي

(*) وهي مدرسة متخصصة لاعداد رجال القضاء والادارة كنظيرتها في كل من الجزائر العاصمة وتلمسان، وقد تأسست هذه المدارس أواخر القرن التاسع عشر لاعداد بضعة أفراد للادارة الفرنسية في تعاملها مع الأهالي.

يرضيه خطها العام، مثل جريدة (الاصلاح)[1] (صدى الصحراء)[2] (الشهاب)[3] (الاقدام)[4]، بل أصدر جريدة أسبوعية باللغة الفرنسية هي (الدفاع La Défence)[5] ربما أملا في اسماع صوت الجزائر للطرف الآخر من الرأي العام، هذا النضال المستميت، في الصحافة أو في صفوف جمعية العلماء التي نهض بأمانتها العامة بعد تأسيسها في 1931 طيلة خمس سنوات امتد بشكل جريء في الثورة المسلحة التي اندلعت في نوفمبر 1954م، الأمر الذي أجّج عليه حقد المحتلين الفرنسيين، فنصبت له أجهزة المخابرات الفرنسية كمينا، وأجهزت عليه في التاسع أو في العاشر[6] من شهر أكتوبر 1957.

كان (محمد الأمين العمودي) شخصية وطنية ثائرة تؤمن بالحرية والعدالة، وتناضل من أجل الاصلاح، في مختلف الجوانب في السياسة التي كان غارقا فيها حتى ذقنه، وفي الأمور الاجتماعية التي لا تنفصل بطبيعتها – إلا بنسب – عن السياسة، من هذه الزاوية عالج أمور الفلاح الجزائري الذي يعاني في خدمة المعمر، كما عالج مشاكل التاجر، مثلما أعطى الاهتمام لقضايا أفرزتها الساحة الوطنية والعربية من بينها قضية المرأة: حرية وتعليما، وقضية التجنيس بالجنسية الفرنسية، فدعا الى تعليم المرأة تعليما يناسب مهمتها ودورها دون أن يعارض تعليمها بالفرنسية، مع رفض حاسم

---

(1) الاصلاح، جريدة نصف شهرية، أصدرها (الطيب العقبي) في (بسكرة) ثم نقلها الى الجزائر، 1927 – 1948م.

(2) صدى الصحراء، جريدة أسبوعية، أصدرها (أحمد بن العابد العقبي) في (بسكرة) 1925 – 1934.

(3) الشهاب، جريدة أسبوعية، أصدرها (ابن باديس) 1925 – 1939.

(4) الأقدام، عربية – فرنسية، أصدرها (الأمير خالد) 1920 – 1923.

(5) أسبوعية، 1934 – 1939م.

(6) انظر: (محمد الأمين العمودي: الشخصية المتعددة الجوانب) محمد الأخضر عبدالقادر السائحي، ص: 23، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1988م.

لأسلوب التفرنج الذي يدعو الى ذلك بما فيه من تقليد أعمى بلا قيد، وهو موقف متقدم للعمودي في الفكر الاصلاحي، فيه «يمثل بأفكاره أبعد ما وصل اليه التفكير الاصلاحي من تحرّر بالنسبة لقضية تعليم المرأة، ولعله ـــ وهو الوحيد ـــ من بين الكتاب الاصلاحيين ممن يجمع بين اللغتين بتمكّن مسه رشاش من نظريات المتفرنسين ولكنه لم يبتل»[1].

ومن الأمور العامة التي كانت موضوع نقاش أو تندّر وهجوم من الاصلاحيين: موضوع التجنس بالجنسية الفرنسية والزواج من الأجنبيات، ومثلما عرّض (أحمد رضا حوحو) بالحريصين على الفرنسية زوجا في كتابه (مع حمار الحكيم) تندّر (محمد الأمين العمودي) بابن صديقه المناضل (الدكتور سعدان) الذي يدعو طفله (صالحا) بينما الأم تدعوه (موريس) حتى غدا الشطر الأخير للتندر:

لـه غـلام أطـال آلله مدّتـه تنـازع العـرب فيـه والفـرنسي
لا تعذلـوه إذا مـا خـان ملتـه فنصفه (صالح)، والنصف (موريس)

هذه الموهبة المتفجرة والارادة الصلبة في السياسة والاصلاح بروح الوطني الثائر، أذلّتها في الجانب الاجتماعي الفاقة والحاجة، عانت فقرا وحرمانا، كما عرفت شظف العيش وشقاء الكدح، وتنكّر الزمان والخلاّن الى جانب محنة الاحتلال الأوروبي، حتى بات الاحساس بالاحباط العام هو السمة البارزة في شخصية الرجل الاجتماعية، تآزر فيه الاحباط السياسي والعاطفي مع المعاناة المالية الحادة، فضجر من كل شيء وكسا السواد كل الآفاق حوله، وهو ما يجد انعكاسا في قوله يتحدث عن حياته في فترة مبكرة، أي قبل وفاته بثلاثين سنة: «حياة بلا غاية ولا أمل، حياة من لا يأسف على أمسه، ولا يغتبط بيومه، ولا يثق في غده. تلك حياتي من يوم

---

(1) المقالة الصحفية الجزائرية: نشأتها، تطوّرها، أعلامها، د. محمد ناصر، م1 ص: 243، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع الجزائر، 1978.

عرفت الحياة، وها قد بلغت 37 من عمري و لم أظفر بعقد هدنة مع الدّهر الذي أشهر عليّ حربا عوانا لا أدري متى يكون انتهاؤها، ولا أظن أنّ لها انتهاء، لأن هذا العدو القويّ الظلوم الجائر الغشوم لا يمسك عنّي احدى يديه الاّ ليصفعني بالأخرى».

وكما أبدى ضجره نثرا أعلنه شعرا في مثل قوله:

قد كدت أغرق في خضمّ مصائبي وأمـوت لـولا الصبر والسلـوان

وربما ازداد احساسه بوقع المحنة حين رأى الأصدقاء ينفضون من حوله:

أخفى بنـو غبراء نـور حقيقتـي واحبتـي نـقضوا العهـود وخانـوا

صوت الحسرة والأسى والضجر يعج به كل شيء في الرجل، حسرة وأسى على فترة شباب عبرها في ثوب كهل يكدح، أسى لحرمانه، لمعاناته، لظمئه العاطفي شوقا الى «ذات خلخال» فتهاوت الارادة البشرية أمام ضراوة الشقاء وشدة الحرمان، فمضت تستسلم لأمّ الخبائث (الخمر) في لحظات التيه والضعف:

أشياء حلّ حلا لهن حلالي نقر الكؤوس ورنّه الخلخال
لا تكثر التعنيف وارفق بي فقد ينبيك عن حالي لسان الحال

حالة اليأس هذه، والميل الى ا لخمر، اضافة الى ظروف صحية متدهورة ربّما أعطت صورة عن الرجل، إنّه بقي يعيش حالة القنوط التي لا تكاد تفارقه، هو ـــ ربما أيضا ـــ ما استغله المحتلون الفرنسيون

حين اغتالوه، فرموه جاب خط السكة الحديدية[1] في قرية (العجيبة)[٥] ليوهموا الناس بأنّ في الأمر عملية انتحار يتحمل هو وحده مسؤوليتها. وهكذا لم ينفع الرجل تكتّمه في التظاهر باعتزال السياسة التي كان غارقا فيها بالعمل سرّا في خدمة الثورة المسلحة، فأضيف اسمه لقائمة المثقفين الشهداء الذين كانت الأيدي الخفية للاحتلال تلتقطهم واحدا تلو الآخر لادراكها التام خطر الكلمة يخطها قلم أديب أو مفكر ولو في شكل منشور محدود التوزيع، ولم يكن سهلا أن يخفى على ادارة الاحتلال وجيوشه ما يمكن أن يمثله (العمودي) من خطر سواء في نشاطه السرّي أو العلني وهو الذي كان علما متميزا في الساحة الثقافية والسياسية والقضائية، وفوق ذلك «كان أديبا لامعا، راجت أشعاره وأخباره، وذاعت كتاباته وخطبه ومواقفه في الأمور الأدبية وفي القضايا السياسية والاجتماعية»[2].

ورغم بطش الاحتلال، انتصر الانسان الجزائري وخلق واقعا جديدا تراجع فيه بكل أسف ذلك الدور الريادي الذي كان للمثقف كما غاب ما كان يحظى به من تقدير يمدّه بالطاقة ويحثّه على الاستمرار.

* * *

(1) محمد الأمين العمودي: الشخصية المتعددة الجوانب، ص: 23.
(٥) على بعدة عدة كيلومترات، شرق مدينة (البويرة).
(2) الأديب الشهيد الأمين العمودي كما عرفته، محمد الصالح رمضان، مجلة: الثقافة، عدد: 43. 1398 هـ — 1978م.

نصوص للعمودي

1 ـ فخـــر...

حـالي استحـال وفاقنـي الأقـــران | مذ غـاب عنّـي الأصفـر الرّنّــان
أخفـى بنـو غبراء نـور حقيقتـي | واحبّتـي نـقضوا العهـود وخانــوا
جار الزمان عليّ في شرخ الشبا | ب، وفاتنـي مـا يفعـل الشبـــان
أنا كـوكب يمشي الهوينـا حـينما | أمّ الكـــواكب عاقــه الـــدوران
أو روضه، أدبي وعلمـي ورقهـا | وزهورهــــا، وشمائلي الأفنـــــان
الواكـف الهتـان نـدى أرضهـا | فاشتـقّ منـه الـورد والـريحان
لما زهت بين الحدائـق وازدهت | أخنـــى عــــليها الخادع الخوان
وتـداولت عنها الريـاح عواصفـا | فتمـــزّقت وذوت بها الأغصان
فضّلتنــي يــارب إذ علمتنـــي | وكسوتنــــي خلــــلا بها أزدان
الشكـر للنعمـى يوفرهـا ومـن | أسبـاب سلب النعمـة الكفـران
لا ابتغـي لـبس الثيــاب وانما | خير اللبـاس فصاحـة وبيـــان
فإذا كتبت يقال أمطرت السما | أوفـهت قيـل تفجّـــر البركان
وإذا نظـمت أتـيت قـراني بما | لم يـأتهم قـبلي بـــه حسان
ان عاب قولي أو تفوّه ناطقـا | بالقـــدح فيمـــا أدّعيــــه لسان
فـرسائلي الغــراء ضاع أريجهـــا | لي حجّـة وقصائـدي برهـــان
اني أرى الدنيـا تفاقـم بأسهـا | واشتـدّ فيها الـزور والبهتـــان
وأرى الحيــاة ضئيلـة فنعيمهـــا | متكـدّر، وسرورهـــا أحـــزان
فسئمتها، وسئمت حتى ذكرهـا | ذكـر القبائـح تركـــه احسان
يا صاح هذى الدار دار اذاية | يـأوى اليها جاهــل وجبـــان
ان الاذاية من لـئيم شرّ مـا | حملتـــه في أعبائهـــا الأزمـــان
قد كدت أغرق في خضمّ مصائبي | وأمـوت لـولا الصبر والسلـوان
بالصبر أدفع جحفل الحدثان عن | نفسي وليس يروعني الحدثـان
أمشي على مهل وثغرى بـاسم | زأر الغضنفر أم عوى السرحان
ما ساءني الا انحطاطي في الورى | والانحطـــاط مذلـــة وهـــوان
ما همّتي الاكثار من مال ولا | عشق العـذاري القاتـل الفتـان
بل همّتي المجد المؤثل والعلا | انـي بذيـن مغـرم هيمـــان

(الشعر الجزائري. صالح خرفي. ص: 103 من الملحق) عن
ـ(شعراء الجزائر في العصر الحاضر) محمد الهادي الزاهري، مطبعة النهضة. تونس. 1927.

2 ـــ رأى العمودي في تعليم الفتاة:

أنا لا يروقني أن أرى الفتاة المسلمة من حاملات البكالوريا(٠)، أو من أعلام الدكاترة، بل حسبي أن أجدها تعرف الضروري من تعليم دينها، وتتقن كيفية الانتفاع بحقوقها، كما تتقن أداء واجباتها بكافة أنواعها، وتعلم مع ذلك ما هي الشروط اللازم توفّرها في البنت البارة، والزوجة الصالحة، والأم المثلي، فتعلمها حينئذ يجب أن يكون عربيا اسلاميا قبل كل شيء...

على أنني لا أحكم بمنع ارسال بناتنا الى المكاتب الفرنسية قبل تجاوزهن السنّ الذي يجوز فيه ذلك، ومع الاحتياط التام، والتحفظ الحقيقي بما يلائم عوائدنا وأخلاقنا الخاصة بنا».

(المقالة الصفحية الجزائرية، د. محمد ناصر، م: 1، ص: 243)
(عن جريدة الاصلاح، ع: 8، 1926/10/28م

* * *

---

(٠) طبعا هذا مرتبط بطبيعة الوضع الاجتماعي يومئذ. والظروف المحيطة بالكاتب. ووضع المرأة نفسها، والنظرة الى مهمتها الأساسية في مجتمع سليم متوازن.

3 ــ «قضية التعليم العربي الحر»:

تحت هذا العنوان الفرعي لعنوان رئيسي عام في مجلة الشهاب لشهر ذي الحجة 1354 هـ ــ مارس 1936م، الجزء: 2ظ، المجلد: 11، ص: 673 كتب العمودي النصّ التالي الذي يظهر فيه العمودي (الصحفي) والعمودي (رجل القضاء) وفوق كلّ ذلك العمودي الوطني، هذا زيادة على ما عكسه النص حتى بجزئياته، مما كان يجرى من صراع في ذلك المحيط. وما كان يدور في نفوس الوطنيين، والجهود التي كانت تبذل من أجل هوية الجزائر العربية المسلمة.

وقد صدر الموضوع في ركن:
«شؤون جزائرية» بالشهاب كما هو مبيّن أدناه في نهاية النص التالي:

شــؤون جزائرية

قضية التعليم العربي الحرّ:

قد صدر في شهر أكتوبر الأخير من المحكمة الجناحية بوهران حكم يتعلق بقضية التعليم العربي الحر بالجزائر ــ ولهذا الحكم أهمية لا تنكر وبودنا لو تقتدي المحاكم الأخرى بمحكمة وهران في جميع المسائل الاسلامية عموما، وفي مسألة التعليم العربي خصوصا.

ننشر اليوم نصّ هذا الحكم ونعلق عليه بما يأتي مع الوعد بالكتابة مرة أو مرارا أخرى في هذا الموضوع المعتبر والادلاء بحجج دامغة قانونية وسياسية على أن الاضطهادات والتضييقات التي يكابدها الآن معلمو اللغة العربية بالمكاتب الحرّة من الظلم التي تمر الأيام والليالي ولا يوجد لها مبرر.

1 ــ صرحت المحكمة الوهرانية بأن القانون الدولي المؤرخ بـ 30 أكتوبر سنة 1886 المنظم التعليم الابتدائي بالمكاتب الرسمية والحرة لا يتعلق

الا بالمحلات الحرة التي يتعلم فيها الأروبيون ما يمكنهم تعلم بالمكاتب الابتدائية الرسمية وبعبارة أوضح: لا يعد جناية في نظر القانون الدولي المذكور الا فتح مكتب حر يعتبر التعليم الذي ينشر فيه مزاحما أو مخالفا لبرنامج التعليم الجاري به العمل في المكاتب النظامية الدولية ــ وعندما نعود الى الكتابة في الموضوع ــ ان شاء آلله ــ نبين ما يقصده واضعو القانون المذكور، وقد أصابت المحكمة في الحكم ببراءة المتهمين مستندة على أن التعليم بمركز الاصلاحية عربي بحث ــ والعربية غير داخلة في برنامج التعليم الرسمي وعلى ان ناشريه غير أروبيين ومزاوليه غير أروبيين.

2 ــ قانون لانديجينا المؤرخ بـ 15 جوليت سنة 1914 منسوخ بقانون 4 فيفري 1919 ولا يسوغ لقاضي الصلح تطبيقه على كل من هو مقيد بقوائم الانتخاب.

وها هو نصّ الحكم المذكور:

«حيث أن الأمر الصادر من السيد قاضي الاستنطاق بوهران يوم 12 جوليت سنة 1935 يقتضي احالة المسميين الزاهري محمد السعيد ولد البشير وسعد الهاشمي علي ولد بوشقور على المحكمة الجناحية بتهمة فتح غير قانوني لمكتب حر.

«وحيث ان الواقع يشهد بأن دروس اللغة العربية ألقيت خارج أوقات التعليم بالمكاتب الرسمية وتلقاها بمحل الجمعية الاصلاحية فريق من الأولاد الصغار ومن الكهول».

وحيث ان هذا التعليم يزاوله المسلمون خاصة الا عددا قليلا من الأروبيين» وحيث ان التهمة الموجهة على الشخصين المذكورين تتعلق بفتح وادارة مكتب حر بغير مراعاة الموجبات المنصوص عليها بالفصلين 37 و 38 من القانون الدولي المؤرخ بـ 30 أكتوبر سنة 1886 وبالفصلين 49 و 51 من الأمر الدولي المؤرخ بـ 18 أكتوبر سنة 1892».

«وحيث ان التهمة تتعلق في آن واحد بفتح مكتب حر معد للتعليم الابتدائي الخاص بالأروبيين (قانون 30 أكتوبر 1886) وبفتح وادارة مسلم جزائري لمكتب عربي حر بغير رخصة من عامل العمالة (أمر 18 أكتوبر 1892)».

«وحيث ان المتهمين: الأول سعد الهاشمي بصفته رئيس سابق للجمعية الاصلاحية والثاني الزاهري محمد كأستاذ مكلف بالدورس المذكورة — اجابا بما مفاده أن الموجبات المنصوص عليها بالقانونين المشار اليهما لا تلزمهما مراعاتها لأن التعليم الذي قاما بنشره لم يقصدا به سوى فعل الخير ولم يزاوله سوى الكهول من المشتركين في الجمعية الصغار من أبناء أولئك المشتركين، وان اجتماع التلاميذ — كبارا كانوا أم صغارا — بهذه الصفة، ولهذا الغرض لا مقابلة ولا شبه بينه وبين فتح مكتب».

«وحيث — فيما يخص تطبيق القانون الدولي المؤرخ بـ 30 أكتوبر سنة 1886 ان عدد الأروبيين الذين حضروا دروس الاصلاحية تافه جدا بحيث لا يسوغ اعتباره بحال — وحيث — علاوة على ذلك — ان اللغة العربية غير داخلة في مواد برنامج التعليم بالمكاتب الابتدائية الرسمية — وبناء على ذلك فمن يمعن نظره بانصاف في نفس التهمة يجدها غير ثابتة ولا مؤسسة على ما قرر في قانون 1886».

«وأما ما اعتبره الاتهام مخالفة للأمر الدولي المؤرخ بـ 18 أكتوبر سنة 1892 فليس للمحكمة الجناحية حق النظر فيه لأن تلك المخالفة من المسائل الداخلة تحت حكم قانون «لانديجينا»، كما هو مبين تحت عدد 6 بالجدول الأول الملحق بالقانون الدولي المؤرخ بـ 15 جوليت سنة 1914، ولا نظر فيها الا لقاضي الصلح دون غيره».

فبتلك الأسباب ومن أجلها:
حكمت المحكمة الجناحية حكما علنيا حضوريا معقبا:

1 ــ ببراءة سعد الهاشمي على ولد بوشاقور والزاهري محمد السعيد ولد البشير من تهمة فتح مكتب حرّ حسب منطوق القانون الدولي المؤرخ بـ 30 أكتوبر 1886 وبان لاعقاب ولا خطئة من أجل ذلك.

2 ــ وبأن لا نظر لها في التهمة الناشئة عن مخالفة الفصلين 49 و 51 من الأمر الدولي المؤرخ بـ 18 أكتوبر انتهى نصّ الحكم..

والذي نشير به على اخواننا في كافة أنحاء القطر هو أن يتمسكوا كل التمسك بهذا الحكم الصريح العادل وأن يطلبوا بكل الحاح الرجوع اليه والعمل به مهما أشكل الأمر واحتدم الخلاف بين الادارة والقائمين بنشر التعليم العربي في القطر الجزائري العربي المسلم(٥).

(٥) الشهاب، ج: 12، م: 11، غرة ذي الحجة 1354 ه ــ مارس 1936م.

المصادر والمراجع

(1) المقالة الصحفية الجزائرية: نشأتها، تطوّرها، علامها، من 1903 الى 1931، المجلد الأول، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1398هـ ــ 1978م.

(2) الشعر الجزائري، صالح خرفي، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع. الجزائر، بدون تاريخ.

(3) الصحف العربية الجزائرية، من 1847 الى 1939، د. محمد ناصر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع. الجزائر 1980.

(4) محمد الأمين العمودي: الشخصية المتعددة الجوانب، محمد الأخضر عبدالقادر السائحي، م. و. ك. الجزائر، 1988.

(5) مجلة الثقافة ب، ج: 12، م: 11؛ لشهر ذي الحجة 1354 هـ ــ مارس 1936، الجزائر.

الأديب الشهيد: عبدالكريم العقون

1959 ـ 1918

الأديب الشهيد: عبدالكريم العقون

هذه احدى(*) وقفات التقدير لأولئك الأدباء المجاهدين الذين بذلوا بسخاء بدون ضجيج ولا اعلان كما يسود هذه الأيام، بذلوا لوطنهم بسخاء في وقت كان بذل القليل شيئا غير هيّن. بينما بذل الكثير من أدبائنا الشهداء أكثر من القليل، بل بذل بعضهم كثيرا كثيرا.. انتهى هذا الكثير ببذل الرّوح في سبيل الوطن ومضوا في استشهادهم هانئين مطمئنين سعداء بارضاء الضمير والوطن الذي فنوا فيه حبّا و لم ينتظروا منه شيئا، في حين أصبح هذا الوطن العزيز يعطي في عهد الاستقلال بعضا منا الكثير ولا يعطونه (هم) الا النكران والجحود في كثير من المواقف التي تسيء له ولقيمه الحضارية وتضحيات أبنائه، لكن عزاءنا في هذا أن هذا النكران يكاد يكون محصورا في فئة مقطوعة الجذور بواقع شعبها وقيمه، يجد هذا الاحساس تعويضا له في فئة مؤمنة بوطنها تعمل حسب امكاناتها لرفعته وسؤدده مثلما فعل أولئك الأدباء الشهداء الذين جاهدوا الاحتلال الفرنسي وناهضوا مشاريعه حتى اللحظة الأخيرة من حياتهم، ومن أولئك الأدباء الشهداء الذين أحبّوا وطنهم ومضوا الى القبر في صمت قانعين بالاستشهاد في سبيل وطنهم (عبد الكريم العقون) الذي نخصّه بوقفة هذا اليوم تحية له في ذكرى وفاته.

لقد ولد الشهيد (عبدالكريم العقون) يوم 8 مارس سنة 1918 ببرج الغدير (برج بوعريريج) حيث زاول تعليمه هناك ليتتلمذ بعد ذلك في قسنطينة

(*) كلمة أذ يعت من القناة الأولى في الاداعة الجزائرية، في شهر ماي 1980.

على ابن باديس من 1933 الى 1936 انتقل بعد ذلك الى تونس حيث التحق بجامع الزيتونة، فأحرز هناك على شهادة (التحصيل) ليعود على أثر ذلك الى الجزائر كي يعمل في التعليم مدرّسا ومناضلا في الوقت نفسه بلسانه وقلمه، وقد اشتدّ احساسه بواقعه وواقع وطنه المرير المكبّل بقيود الاستعمار، فيقول في احدى قصائده:

فإذا هممت بأن أحطّم قيدي المضني العسير
خارت جهودي فانثنيت وعندي الألم المريـر
أرنـو الى مستقـبلي بـبصيرة تهدي الـبصير
فلكم وددت بأن أرى مستقبلي حرّا طهـور
أخطو الى حيث الأمـاني آمنا كـلّ الشرور
أحظى بآمـال عـذاب هاجـرا دنيـا الغـرور

هذه النغمة الحزينة التي تشتم منها رائحة اليأس الذي يلملم أطرافه ترقبا لأيّة سانحة لسحق الواقع الأليم جعلت الشاعر في قصيدة أخرى يلوذ بالله، وبالرسول ليمدّ بروحه هذا الشعب المغلوب على أمره، يضطهده عدوّ غاشم ويدفع ببنيه الى الحرب، لا ليحاربوا دفاعا عن وطنهم الجزائر بل ليحموا الاستعمار من السقو ط فيقول:

يا رسول الاله كم ذا يلاقي بعـدك المسلمـون مـن آلام
قد غدوا في يد العدوّ سلاحا ليـذود العـدا بـه ويحامـي

وهو في ذلك يتألم لغدر المحتلّ الفرنسي الذي جنّد الشباب الجزائري في الحرب العالمية الثانية ليدافع هذا الشباب عن العلم الفرنسي مقابل وعود استعمارية لم تلبث ان تمخضت عن سراب وأكاذيب بعدما وضعت الحرب (العالمية الثانية) أو زارها، فأعلن الشعب الجزائري غضبه في مظاهرات صاخبة تدين الاحتلال وتلوّح للمستقبل، فكانت مظاهرات 8 ماي 1945 خاصة في (قالمة) و (خراطة) و (سطيف) ليسقط فيها من الشهداء

خمسة وأربعون ألف شهيد وهو رقم مذهل عبّر عن شيئين اثنين: ضراوة المحتلّ وعنف مواجهته ومدى حقده المكين على الشعب الجزائري من جهة: واستعداد الشعب الجزائري للبذل في سبيل حريته واستقلاله، وهكذا يغدو هذا الحدث ذا فعل كبير في النفوس يجد جزءا هاما من التعبير عنه في قصيدة لعبد الكريم العقون، يقول في الجزء الأخير منها:

يا شعب لا تحزنك آلام بها   ترقى الى أوج الكمال وتفخر

وكانت الأيام كفيلة بنضج قومي في فكر عبدالكريم العقون وقد اكسبته المعايشة اليومية للأحداث خبرة بالاستعمار ونياته ومشاريعه المختلفة، وهي الخبرةالتي عمّقت وعيه بأهداف الاستعمار العالمي في ضرب الأمة العربية، فامتزج لديه الاحساس الحاد بما يبيّته الاستعمار في وطنه وبين صهيونية عالمية مدعومة غربيا تندفع نحو فلسطين لانشاء وطن لها هناك، وهذه الرؤية من الاستجابات القومية العفوية في الأدب الجزائري النضالي، وهكذا يتشوّق (عبدالكريم العقون) الى المستقبل بتفاؤل يطمح فيه الى تحرير وطنه واندحار الصهيونية، فيقول في احدى قصائده:

سينقشع الغيم المخيّم عن شعبي   فيغدو ضحوكا مشرق الأفق كالغرب
ويحظى بآمال عذاب جميلة   وكم من جنى عذب لدى الأمل العذب
ويخلع أغلالا لا ثقالا يجرّها   ويجلو ظلام الظلم بالزار والوثب
يؤمّل أن يحيا عزيزا مظفرا   سريع الخطى للمكرمات وللذّبّ
يجاهد أعداء الحقيقة جهده   ويرميهم مثل الشياطين بالشّهب
دماء بني العرب استفاقت فأيقظت   نفوسا فثارت تطير مع السرب
لقد أو قودها ثورة عربية   بجيش همام كالصواعق منصب

وهكذا تسمح هذه المواقف لعبدالكريم العقّون بأن يحتل خانة معيّنة في دفاتر مخابرات الاستعمار، ويكون بذلك جديرا بأن يوضع تحت المراقبة

لما يأتيه من قول وفعل، ولما يصدر منه، ويصبح ذلك ضرورة شديدة الحيوية بعدما اندلعت الثورة المسلّحة في 1954، تلك الثورة التي هيّأ مناخ تربتها المثقف الجزائري المناضل ضمن الحركة الوطنية، وكان واحدا من حداتها بل كان الجندي والقائد والعامل في كل موقع من مواقع الحياة اليومية عاملا طموحا لتحرير بلاده، الأمر الذي لم يكن هيّنا على الاستعمار أن يتسامح فيه، فامتدّت يده الى المثقفين تخنقهم وتختطفهم وتغيّبهم بأساليب مختلفة أبسطها السجن والتوقيف وأكثرها شيوعا الاختطاف والاغتيال والاعدام. وهذه الحالة الأخيرة هي التي شملت الأديب الجزائري الشهيد عبدالكريم العقون رحمه آلله، الذي كان واحدا من شهداء ثورة 1954 المجيدة، فلم يمهله الاستعمار ولم يهمله بل سرعان ما امتدت يده إليه، وهكذا قبضت قوات الاستعمار على عبدالكريم العقون في 15 جانفي 1955 فألحق به الأذى والعذاب ثم أعدم في نهاية الأمر بالدويرة من ولاية: (تيبازة) رميا بالرصاص بتاريخ 13 ماي 1959، فكان واحدا في قافلة الشهداء الطويلة... وواحدا من المثقفين المستنرين الذين أحبّوا بلدهم... وماتوا في سبيله.

نماذج من إنتاج العقون

1 ــ حصن جديد(*):

في «الدشرة المباركة العامرة، الحالمة بين أحضان جبل القلعة و «دمروش» و «كاف الطلبة» الذي كان في الماضي يردّد تراتيل المقرئين للقرآن فتنبعث منه أصداء متموجة علوية، تهيمن على النفوس، وتنحني لها الرؤوس، وتشتفي بها الصدور، فتسرى في الجسم قشعريرة خوف من الوعيد ومرح من النفحات المغرية المنعشة.

هناك على مقربة من «برج الغدير» الزاهي بحدائقه الغناء، والتياه بجداوله المترفرفة المتدافعة ببطء على جذوع الصفصاف المياد والتي يسمع خريرها من بعيد فتطرب له الأسماع وترقص له القلوب ويهدهدها أغاريد الطيور هنا وهناك كجوقة منعشة سحرية تأسو الجراح، وتبعث الأفراح، وتحيي الآمال والأحلام.

في هذا الجوء الحالم هبّ أبناء هذه «الدشرة» العامرة على صيحات رجال «جمعية العلماء» وكان أول هتاف أيقظها من سباتها العميق هو هتاف أستاذنا الجليل الشيخ البشير الابراهيمي... الذي هو من تلك الجبال الشمّ والذي حدا برجال «الدشرة» وأبدى لهم فكرة تأسيس «مدرسة» بقريتهم العتيدة تضمّ شتات أطفالهم، وتغذّي عقول ناشئتهم، وتزيح عنهم ظلام الجهل الحالك المخيف...

لهذا كلّه نهض أحباء العلم، وأنصار الفضيلة، فشيّدوا معقلا للغة الضاد وأبناء الضاد، وقد تمّ ــ والحمد لله ــ بفضل المجهودات الجبارة التي بذلت في سبيله، وأضحى يلوح كعروس ترفل في أبرادها القشيبة، وعليها روعة الجلوة، ومهابة الطلعة.

عبدالكريم العقون

(*) البصائر، س: 2، ع: 297، في 21 ربيع الثاني 1374 هـ ــ 17 ديسمبر 1954.

2 ـ من وحي البحر(٥)

ها أنا اليوم وقفت أنا جيـ ك ـ أيا بحر ـ فاستمع لنشيدي
فكلانـا في موقـف نتناغـى بأغـان سحريـة الترديـد
انك اليـوم مـؤنسي وسميري يا نجيّي في قفر هذا الوجود
سكنت نفسي الحزينة وارتـا حت الى حسنك البديع الفريد
آثرت قربك الحبيب على كـ ـلّ رفاقي قديمهم والجديد
علّها في جوارك اليوم تنسى ما تعانيه من بلاء شديد
هل أرى فيك بلسما لجروحي أو ألاقي تحرّرا من قيودي
أم كلانا قد أرهقته اللّيالي بصروف ما فوقها من مزيد؟
جئت أقضي النهار فيك لعلّي واجد فيك مفزعا للشريد
شاديا للعباب، للمنظر الفا تن، للموج، للصّدى الممدود

....

أنت سرّ من الطبيعة مغر بجلال وكبرياء عنيد

....

أنت مغرى بالغيد ان جئن يوما عاريات وباديات النهود
عابثات بمائك الأزرق المغري نشاوي بحسنك المعبود
يتملّين فيك مرآة سحر شعّ في عمقها حصى كالعقود
أنت رمز الخلود والحسن فاسلم رمز حسن على المدى وخلود

عبد الكريم العقون

---

(٥) البصائر، سلسلة: 2، ع: 13، في 26 ذي الحجة 1366هـ ـ 10 نوفمبر 1947.

3 — بني العرب هذا يومكم(*)

سينقشع الغيم المخيّم عن شعبي فيغدو ضحوكا مشرق الأفق كالغرب
ويحظى بآمال عذاب جميلة وكم من جنى عذب لدى الأمل العذب
ويخلع أغلالا ثقالا يجرّها ويجلو ظلام الظلم بالزأر والوثب
يؤمّل أن يحيا عزيزا مظفّرا سريع الخطى للمكرمات وللذّبّ
يجاهد أعداء الحقيقة جهده ويرميهم مثل الشياطين بالشهب
دماء بني العرب استفاقت فأيقظت نفوسا فثارت كي تطير مع السرب
فأرواحهم للشعب صارت رخيصة وقد بذلوا القاني المطهر للشعب
مشوا بمناياهم نشاوى كأنهم يلاقون عيدا في ربيع المنى الخصب
لقد أوقدوها ثورة عربية بجيش همام كالصواعق منصب

....

بني العرب هذا يومكم فتجلّدوا وذودوا عن الأوطان بالصارم العضب
فأوطانكم ملهى فأخلصوا اليها وذودوا عن حماها مدى الحقب
إلى م الونى والظلم فينا محكم سئمنا حياة الذّلّ والسّجن والنّهب
فهيّا أعيدوا مجدكم وتراثكم وكونوا فداء للبلاد وللصّحب
فما بال شمل الشعب أمسى مضعضعا وقد صار شمل الغرب ملتئم الشعب
وما باله أمسى ينام على القذى وعهدي به في الخطب مجتمع القلب
فيا أيّها الأحزاب هبّوا واجمعوا شتاتكم فالشعب قد صار في كرب
فأعداؤكم يستثمرون اختلافكم ويرمونكم بالجهل والطيش والعجب
فعار على شعب الرسول تشتّت وعار عليه أن يحيد عن الدّرب

° °

ويا شعب ولّ وجهك الشرق واعتبر بجامعة العرب الموحدة الركب
وما نحن الا من سلالة يعرب وعبد مناف جدّنا وبنو كعب
وما الشرق الا منبع النور والهدى ومعقل أسد آلله في الموقف الصعب
ألا فاقتفوا آثارهم وتحالفوا تحالفهم، عيشوا جميعا على الرحب

عبدالكريم العقون

(*) البصائر، سلسلة: 2، ع: 43، في 6 رمضان 1367 — 12 جويلية 1948.

الشيخ البشير الابراهيمي
مصلحا وثائرا
. 1889 ــ 1965 م

البشير الابراهيمي: مصلحا ومفكّرا(٭)

أولا ــ الابراهيمي وجهوده:

ان الحديث عن البشير الابراهيمي هو جزء من الحديث عن فترة هامة في حياة الجزائر المكافحة، عرف الوطن فيها محنة الاستعمار، وتلون أساليب المقاومة والنضال. احتل مكانة فكرية بارزة لفتت أنظار الجميع، وبوأته مكانة بين أعلام الفكر في العالم العربي.

قبل الحديث عن مساهمته في اليقظة الفكرية أودّ أن أتحدث عن حياته، فهي جزء من الحديث عن مواقفه. وقد آثرت أن أقسمها الى أربع فترات لأن كل فترة كانت ذات طابع خاص، ليس فيما يتعلق بالأحداث فقط، بل فيما يخص مواقفه وفكره أيضا.

الفترة الأولى:

الفترة الأولى تمتد من 1889م الى 1920م. فقد ولد محمد البشير الابراهيمي يوم 14 جوان 1889 بدائرة سطيف حيث تلقى تعليمه الأولي، فحفظ القرآن الكريم ودرس بعض المتون في الفقه واللغة العربي، وكما كان شائعا ــ نظرا لتفوقه ــ تولى التدريس لبعض زملائه. وفي سنة 1911 م توجه نحو المشرق العربي فمرّ بالقاهرة حيث تعرّف فيها على بعض شعرائها

(٭) أصل الموضوع محاضرة ألقيت بمناسبة ذكرى وفاة الابراهيمي في سينما «الاتحاد» بمدينة «بوسعادة» ونشرت بالعدد: 250 من مجلة «العربي» في الكويت، الصادرة بتاريخ: سبتمبر 1979 مع اضافات كثيرة بعد صدور المجلد الرابع من آثاره آخر الثمانينات، فأوليتها اهتمامًا سنة 1988م.

ومفكريها، وبعد نحو ثلاثة شهور قصد المدينة (المنورة) بالحجاز فأقام فيها وتفرغ للدراسة كطالب، مترددا على أساتذة اللغة العربية والدين وعلى مكاتب المدينة، فدرس واطلع على الكتب القديمة والحديثة، برغبة ملحة في التحصيل والاطلاع فبحث دارسا وقرأ مستظهرا وطالع متفهّما نحو خمس سنوات، فوعي ما قرأ وتمثله. خلال ذلك وصل الى هناك ابن باديس من الجزائر (1913م) فتمّ التعارف بينهما، جمعهما حبّ الوطن ووحدة الآمال فتواصلت لقاءاتهما واتصلت مدة اقامة ابن باديس هناك يتحدثان عن الوطن ومستقبله.

عاد ابن باديس الى الجزائر أما البشير الابراهيمي فقد انتقل سنة 1916م الى دمشق يقول عن هذه المناسبة... «خرجت من المدينة فيمن خرج الى دمشق في أخريات سنة ست عشرة ميلادية»، وفي دمشق اشتغل الابراهيمي بالتدريس. وحاضر في النوادي والمساجد حتى أواخر سنة 1920 عندما عاد الى الوطن مودعا تلاميذه وهم يذكرون جميله، فقال عن هذه المناسبة بعد ذلك بثلاثين سنة «... يا يوم الوداع ما أقساك، لا أنسى بعد ثلاثين سنة ولن أنسى ما حييت موقف الوداع... وتلامذتي الأوفياء يقدمون الي بخطوطهم كلمات في ورقات».

الفترة الثانية:

بعودة محمد البشير الابراهيمي الى الجزائر ـــ تبتدىء الفترة الثانية من حياته، فشرع في التعليم كزميله وصديقه عبدالحميد بن باديس، واستمرت علاقتهما التي بدأت في الحجاز تتوطّد ومشاوراتهما واتصالاتهما تتسع، فلما كانت سنة 1931 أسست جمعية العلماء المسلمين الجزائريين في 5 ماي كردّ فعل على الاستعمار الذي عمل للاحتفال بالعيد المئوي للاحتلال، وانتخبت الجمعية عبدالحميد بن باديس رئيسا لها والبشير الابراهيمي وكيلا فواصل الرجلان عملهما مع سائر أعضاء الجمعية

وازدادت مسؤولياتهما وأسست الجمعية صحف «الشريعة» و «السنة» و «الصراط» ثم «البصائر» التي صدرت سنة 1935م والتي استطاعت أن تنقل صوت الجمعية خارج الجزائر، فقال عنها أحدهم في المشرق العربي «طلعت عنا البصائر، من عاصمة الجزائر، فأسمعت العالمين الشرقي والغربي صوتها العالي المرفوع».

واصل البشير الابراهيمي نشاطه ضمن الجمعية كشخصية بارزة مؤثرة حتى كانت الحرب العالمية الثانية فأبعدت السلطات الاستعمارية بعض أعضاء الجمعية وفرضت على بعضهم الاقامة الجبرية، كما اعتقلت آخرين في السجون فأوقف ابن باديس في قسنطينة وأبعد الابراهيمي الى «آفلو» بالغرب الجزائري حيث أوقف أيضا، وبعد نحو أسبوع فقط توفي ابن باديس. أفرج عن البشير الابراهيمي سنة 1943 فاستمر في ممارسة عمله كرئيس لجمعية العلماء بعد وفاة ابن باديس. وأثناء حوادث ماي 1945 التي مات فيها الالآف من أبناء الجزائر برصاص الأعداء، في هذه الحوادث قيد الابراهيمي الى السجن مثل الالآف من الجزائريين الذين طالبوا بحقهم في الحرية والحياة.

ثم أعلنت الحكومة الاستعمارية عفوها العام فكتب الابراهيمي بعد ذلك عن هذه المناسبة يقول عن الحكومة الاستعمارية «.. كأنها رأت أن عدد القتلى لم يبلغ النصاب المقرر فحكمت محاكمها العسكرية على العشرات بالاعدام ونفذته فيهم»، أما عن اطلاق سراح المعتقلين فيقول «..اطلقوا سراحنا باسم العفو العام والامتنان كأننا مجرمون الحفنا العفو، لا مظلومون برأتنا العدالة».

بعد هذه الحوادث التي كشف فيها الاستعمار عن وجهه الحقيقي ونياته الحاقدة استأنف الابراهيمي نشاطه رئيسا للجمعية فأعاد صدور جريدة «البصائر» سنة 1947 بعد توقف دام أكثر من خمس سنوات.

الفترة الثالثة:

لقد كانت حركة جمعية العلماء مرحلة هامة في يقظة المجتمع الجزائري وكان أثرها أبرز في الميدان الاصلاحي والتعليمي مما ساعد على خلق مناخ فكري أخذ في الانتعاش تدريجيا. لكنه بقي في حاجة الى عناصر وطنية تشيع فيه روح الحياة أكثر.

من أجل ذلك سافر البشير الابراهيمي سنة 1952 الى بعض البلدان العربية والاسلامية ملتمسا من بعض حكوماتها أن تخصص منحا دراسية للطلبة الجزائريين، ولم يشأ البشير الابراهيمي أن تتوقف مهمته عند هذا الحد فعمل على التعريف بالجزائر وهو يحن اليها من بعيد حيث كتب من هناك..

«أيها الوطن الحبيب.. إخوتك في الوطن العربي الأكبر رفاق سفر ولكنهم ساروا بالأمس وخلفوك، وذكر بعضهم بعضا ونسوك، فلتهنأ اليوم ان واحدا من أبنائك ألحقك بالسائرين... وذكر بك الناسين، فلهجت بك الألسنة... فلتقر عينك بابنك، أما الشوق اليك فحدث عنه ولا حرج» لقد «غبت عن الجزائر سنة وبعض السنة ولكنني ما غبت عنها بروحي دقيقة ولا بعض الدقيقة».

في هذا الحديث الى الوطن يتجلّى الاحساس تجاهه والشعورنحوه خاصة عندما يقول: «حي الجزائر عني ياصبا واحمل إليها مني سلاما تبارى لطافته = أي لطافته لطافتك، أنت يا صبا ريح وكان فيك قطعة، من كل روح، يجد فيك كل غريب أنسا... أد التحية عني للجزائر التي غدت وربت وانبتت القوادم في الجناح، واسلفت الأيادي البيضاء، وأشربت من الطفولة جب العروبة والاسلام».

وعندما اندلعت الثورة الجزائرية في أول نوفمبر 1954م كان البشير الابراهمي ما زال لم يعد الى الجزائر لهذا بقي خارج الوطن ومد يده للثورة

وعمل في خدمتها. في هذه الفترة من حياة الابراهيمي احتل مكانتين في كلتيهما يمثل الجزائر، مكانة سياسية ومكانة فكرية، فهو في الأولى يعمل متنقلا لخدمة الثورة الجزائرية، وفي الثانية انتخب عضوا مراسلا سنة 1954 في كل من المجمع العلمي بدمشق والمجمع اللغوي بالقاهرة، وفي هذه المناسبة هنأه الشاعر الجزائري محمد العيد آل خليفة بقصيدة منها:

حي الرئيس الا ريحي شمائلا العبقري فواضلا وفضائلا
غرس المدارس في الجزائر فازدهت بالنّشء والتفت عليه خمائلا
جاب المشارق رائدا لبعوثها.. فصفت عند النزول مناهلا
ثم انتحى صوب الكنانة فانبرى فيها بأسواق الخطابة جائلا
المجمع اللغوي فيها اختاره علنا باجماع الشيوخ مراسلا
اخجلت أقطاب البيان فمن يكن سحبان أوقسا يلاقك باقلا
لا زلت في فلك المعارف كوكبا قطبا يلوح لنا وبدرا كاملا

وهكذا بقي الابراهيمي خارج الوطن طيلة سنوات الثورة، فلما تحررت الجزائر وأحرزت على الاستقلال (1962) عاد الى وطنه ليشهد الاستقلال بكل جوارحه، ذلك الاستقلال الذي قال عنه يوما انه «جنة لا يعبر اليها الا على جسر من الضحايا» وقد أحرز الشعب الجزائري على استقلاله بعد أن دفع ثمنا له أكثر من مليون ونصف من الشهداء.

الفترة الرابعة:

أما الفترة الرابعة فهي فترة النهاية، شيخوخة تحد من الحركة والنشاط، ونسيان أو تناس وتنكر له من البعض، عاد الابراهيمي الى وطنه، واتصل بالأمة الجزائرية في أول صلاة أمّ فيها الجمهور بمسجد «كشاوة» الذي أعيدت له صفة المسجد بعد أن كان الاستعمار قد حوّله الى كنيسة، كان ذلك الاتصال بالجمهور عندما انطلق صوت الابراهمي بواسطة المذياع عبر الأثير في خطبتي الجمعة، فأعادت كلماته للكثيرين من رفاقه وغيرهم

أعذب الذكريات وأحلاها، لكن الصمت لا يلبث أن يفرض نفسه عليه، فعانى وتألم. وفي 19 ماي 1965 توفي الابراهيمي، فودعته الأمة الجزائرية بقلوب حزينة، وعيون دامعة عليه كشخص من رجالها الاصلاحيين، وأحد بناة نهضتها الفكرية، من الذين عملوا لاصلاح شعب واسهموا في تكوين شبابه وارشاده وتثقيفه.

أغمض البشير الابراهيمي عينه في بلاده، وحاز قبرا في ثراها كما كان يتمنى. انتهى كشخص من الحياة، وبقي في ماله من أعمال وآثار بين الناس.

البشير الابراهيمي في مواجهة الاستعمار:

كان البشير الابراهيمي الشخصية الثانية البارزة بعد ابن باديس فكان ساعده وعضده في الحركة الاصلاحية، فعمل لتأسيس المدارس وتعميمها، وخلفه بعد وفاته رئيسا لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين، فكان في مستوى المسؤولية، واصل المسيرة التي بدأها ابن باديس عاملا من أجل ايقاظ النفوس الخاملة، مندداً بالبدع المتفشية، ناصحا للأمة بضرورة الاتحاد والتآزر، داعيا لنبذ الخلافات الحزبية الضيقة والقضاء على الروح الاقليمية المتفشية في كثير من النفوس المتحجرة معرضا بالصراعات الشخصية التي تخدم الأفراد والاستعمار، وليست في صالح المجتمع الجزائري وتطوره ساعيا من أجل تكوين شباب الوطن ثقافيا، وتوجيهه عقديا، مناوئا للاستعمار في نطاق وسائله الفكرية وحدود استخدامها.

تبرأ الابراهيمي من أن يوصف بالسياسي، وان جمعية العلماء أيضا ليست جمعية سياسية ولكنها جمعية دينية. وسواء أقال الابراهيمي هذا عن اقتناع وصدق أو قاله تجنبا لمضايقات العدو فإنه لما لحقه الاستعمار ولاحق أعضاء الجمعية باسم السياسة فان الابراهيمي جهر بالقول: «... ولنكن علماء وسياسيين ولنكن كل شيء يحمي أمتنا، ويحمي ديننا ولغتنا... مادمت لا تجد صاحبك الا حيث تكره فمن العدل الا يجدك صاحبك الا حيث يكره».

يهاجم البشير الابراهيمي الاستعمار في عنف حينا وفي لين أحيانا حسب الموقف والظروف «جاء الاستعمار الدنس الجزائر يحمل السيف والصليب ذلك للتمكن وهذا للتمكين، فملك الأرض واستعبد الرقاب».

كان البشير الابراهيمي كشخصية وطنية فوق الاعتبارات الفردية، فحتى في تصديه لبعض حكام الاستعمار أو بعض العاملين الى جانبه من الجزائريين يخاطبهم كمتكلمين أو عاملين باسم الاستعمار.. «... نعمد في مقاومتنا الى المبادىء لا الى الأشخاص، ولا نتوّجه في حربنا الى رجل الاستعمار بل الى الاستعمار الذي يتكلمون باسمه».

كان للبشير الابراهيمي صوته الواضح المعبر عن مشاعر الأمة الجزائرية، أو عن أغلبية وطنية، يستجيب للأحداث اليومية ويتخذ منها موقفا وله فيها رأي. «أبدأ بما شئت واختم بما شئت من النظم والقوانين التي تساس بها الجزائر تجدها كلها دائرة في مبادئها وغاياتها على محور واحد: هو احتقار المسلم الجزائري وبغضه...هلم تجد الاستعمار يقول لك أنا أحق منك بالتصرف في دينك... فقد أصبحنا لكثرة ما بلونا من سرائر السياسة الأستعمارية وعجمنا من أعوادها نفقه كثيراً من اتجاهاتها ومراميها».

لن ننكر أبدا الأثر الذي أحدثته التنظيمات الوطنية الأخرى في سبيل بعث وطني لكن جمعية العلماء كانت أكثر تأثيرا في الجمهور لطابعها الديني الذي يشد اليها جماهير المواطنين، خاصة عندما ترى هذه الجماهير ان الدين غدا وسيلة لاثبات الشخصية الوطنية التي من بين دعائمها اللغة الوطنية. كان للجمعية أثرها في مختلف الأوساط في المدن والقرى فاستجابت الفئات الشعبية تبذل الاعانات المادية وتقدم الهبات لبناء المدارس وتعليم العربية الشيء الذي غاظ الاستعمار وأثاره. فإذا كان يصعب عليه منع المقبلين على التعليم العربي فإنه حاول أن يقيد هذا التعليم، فالمدارس لا تفتح الا برخص، والمعلمون لا يباشرون عملهم الا بشروط تخضع للظروف والملابسات، والمعلمون هم عرضة للمضايقات والدعوات الى السجون.

يقول الابراهيمي في احدى هذه المناسبات... «كأن التعليم جريمة يترتب عليها العقاب... بدأت دعوة المعلمين تترى، ونحن نقدر انها ستعم. وان أول المطر قطر، وان الأحكام ستكون بالغرامة، فالسجن، ولكننا سندخل هذه المحاكم برؤوس مرفوعة وسنتلقى هذه الأحكام بنفوس مطمئنة بالايمان، وحسبنا شرفا ان يكون ذلك في سبيل ديننا ولغتنا... وحسب الاستعمار ديمقراطية أن يحاكم معلمي العربية والاسلام» و «يحرم الاستعمار الفرنسي التعليم على مسلمي الجزائر ويفرضه على أبنائه في وطنه، فأعجب لشيء واحد يحرم في وطن ويفرض في وطن، ومن عرف الاستعمار معرفتنا به لم يعجب ولم يندهش خصوصا في وطن كالجزائر لغته العربية ودينه الاسلام».

عمل العدو منذ احتل البلاد من أجل كسب الكثيرين من المواطنين، ليساعدوه على خنق كل حركة أو التعمية على أي محاولة تهدف لليقظة فنسج الاشراك لاصطياد ضعفاء العقيدة واجهد نفسه في ضرب ستار حول الجزائر ليعزلها عن الدنيا كي تغرق في الظلام الذي تعشش فيه البدع والضلالات، وعرف دور الدين فسعى لاجتذاب أصحاب الزوايا والتأثير عليهم، وما كان له أن ينجح في قليل أو كثير من ذلك. كان الابراهيمي دائما مترصدا لمثل هذه المحاولات ليقابلها بجرأة ويكشفها، ويحذر الأمة ويرشد الضالين.

الأستاذ المرشد:

في الفترة الثانية من حياة الابراهيمي عمل أستاذا ومرشدا بعد عودته من المشرق، ثم سافر في الفترة الثالثة سنة 1952 حرصا على مستقبل الطلبة، وفي أثناء اقامته هناك طيلة عشر سنوات كان الأب العطوف للطالب الجزائري.

هؤلاء الطلبة الذين كانوا يسافرون للدراسة خارج الجزائر كان يعلق عليهم الابراهيمي آمالا كبيرة، وكان وهو في الجزائر لا يفتر في اسداء

النصح لهم وتذكيرهم بواجباتهم نحو وطنهم، فمثلما أعطى من اهتمامه للتعليم داخل الجزائر لم يهمل الطلبة وهم خارج الوطن. قال في احدى كلماته التوجيهية يخاطب الطلبة: «...ها أنتم هؤلاء تبوأتم من مدارسكم ميادين جهاد فاحرصوا على أن يكون كل واحد منكم بطل ميدان... كنا أول من نام وآخر من استيقظ... نهدم ونرفع الانقاض ونبني ونعمر في آن واحد».

ثم يخاطب الطلبة الجزائريين خارج الوطن... «أعيذكم بالله وبشرف العلم أن تعودوا والى الوطن كما فارقتموه بنصف قارىء وربع قارىء، وعشر قاريء «ثم يضيف»... أنتم — يا أبناءنا — بواكير نهضة علمية وقد أظل زمانها، وظهرت تباشير فجرها الصادق... والعلم هو أساس الوطنية وقطب رحاها ومركز دائرتها، ودليل سيادتها... لاحق لكم في الوطن بل الحق كله للوطن عليكم».

وما كان يغيب عن الابراهيمي النزعات أو التيارات التي يمكن أن تجرف الطالب وتصرفه عن هدفه... الأساسي وتضلله، فيكون بذلك قصر في حق وطنه. يقول في مثل هذه المواقف يخاطب الطلبة الجزائريين: «ان لصوص العقول أفتك من لصوص الأموال، وأشد منهم عبثا وافسادا.. أعيذكم بالله وبشرف العلم وبأمانة الوطن أن تنفقوا من أوقاتكم في غير الطلب والتحصيل للعلم... ان هذه الأمة يا أبنائي هي أمتنا وهي رأس مالنا وهي مناط قوتنا، ومظاهر أعمالنا. فعلينا أن نراعي شعورها في غير واجب يترك أو محرم يؤتى».

ويقول الابراهيمي أيضا: ان «من أراد أن يخدم هذه الأمة فليقرأها كما يقرأ الكتاب وليدرسها كما يدرس الحقائق العلمية، فإذا استقام له ذلك استقام له العمل وأمن الخطأ وضمن النجاح والتمام له... إنّني جربت ودرست وأنني قرأت هذه الأمة وفهمتها» درس المجتمع الجزائري فكان لسانا

معبرا عنه أيام محنته دفاعا عن قيمه وعقيدته، وقوميته، ورفض كل محاولة تدعو الى الاطمئنان للعدو المحتل أو التعاون معه: «يعذر النائم ولا يعذر المستيقظ، والأمة نامت نوما طويلا وثقيلا... أفاقت الأمة الجزائرية افاقة غير منتظمة لأن الأحداث التي سببت لها النوم حقنتها بأنواع شتى من المخدرات، ولم يهمل التشهير بكل نزعة تكون سببا في زرع الخلافات في أوساط الشعب الجزائري «أصل دائنا التفرق والخلاف، ومن الخلاف تشعبت شعب تلتقي معه في الاثر والنتجية، والشر والضر، فاذكر الخلاف تذكر التخاذل والأنانية ووهن العزائم والتفريط في المصالح الوطنية، وأذكره تذكر كل مرض عقلي نعانيه».

الابراهيمي والعالم العربي والاسلامي:

وعن حسه العربي والاسلامي: ... «قومي هم العرب أولا، والمسلمون ثانيا، فهم شغل خاطري وهم مجال سرائري وهم مالئوا ارجاء نفسي» وقد أساءه أن تكون هناك أقطار عربية أو اسلامية اسما لا فعلا، لا تفعل ما يخدم العروبة أو الاسلام.. «هذه ممالك العروبة والاسلام كثرت أسماؤها وقل غناؤها، وهذه أحوال العرب والمسلمين الذين يقبل عليهم العيد فيقبل بعضهم على بعض يتقارضون التهاني ويتعللون بالاماني، أفلا أعذر إذا لقيت الأعياد بوجه عابس ولسان باك، وقلم جاف، وقلب حزين؟».

ويتجاوز بعد ذلك اظهار الاستياء الى الدعوة الصارخة لتغيير الوضع «نأسى عليك يا شرق ان تتقاذفك الاقدار فتنقلب من عبادة الأصنام الحجرية الى عبادة الأصنام البشرية، فمتى تنهض بمن يكسر هذه في الآخرين كما كسرها محمد في الأولين كما اهتم بالقضية الفلسطينية ودعا الى العمل من أجل تحرير فلسطين ملحا على ضرورة تواجد الفلسطينيين في المقدمة «أعمال عرب فلسطين مقدمة، فأين الكتاب؟ وطليعة فأين الكتائب؟ وواجب فأين ما لا يتم الواجب الا به؟».

خــلاصـــة

كانت ثقافة الابراهيمي ثقافة متينة، درس كتب التراث، وتمثلها فكان لها أبرز الأثر في كتاباته. ولم تكن كتاباته مجرد صدى هذه الثقافة التقليدية بل فيها ابتكار وأصالة، تستوحي التراث لكنها تعبر عن وجدان صاحبها، وتعكس ذاته، متانة في العبارة وقوة في الأداء ورشاقة في الصياغة، يميل الى السجعة لكنه لا يخضع لها، بل يخضعها لمقصده الذي يريده لأداء المعنى كاملا لا لمجرد اكتمال الشطرة أو الوحدة.

من أقواله في مثل هذه المواضيع... «أيها الاعراب هل فيكم بقايا من حرب أم محارب، دبت بينكم العقارب وأنتم أقارب، فتكدرت المشارب وتقوضت المضارب، وغاب المسدد في الرأي والمقارب».

لقد أحب الابراهيمي وطنه وأخلص له وأحب أمته وتعلق بها، ناصحا وموجها، فكانت شخصيته مؤثرة في الاصلاح والثقافة والتربية والأدب، وكان له دوره البارز ومواقفه الواضحة، فاحتل مكانة خاصة، في الوطن وخارجه.

ثانيا ــ آثار الشيخ محمد البشير الابراهيمي

1 ــ المجلد الأول:

واجب المثقفين نحو الأمة:

اكتمل نشر الأعمال الكاملة للشيخ محمد البشير الابراهيمي أو كاد بصدور المجلد الرابع في هذه السنة (1987)(٥) وهي جميعا تغطي رحلته الفكرية والنضالية عبر الكلمة والورق.

أمّا المجلدات الأخرى فقد اختلفت تواريخ صدورها، وكان المجلّد الثاني منها أسبق للنشر، في القاهرة أولا سنة 1963، وفي الجزائر بعد ذلك أكثر من مرّة.

لقد أشرف الشيخ محمد البشير الابراهيمي بنفسه في حياته على طبع الجزء الثاني من آثاره واختيار مادته، وهو الجزء الذي ضمّ مقالاته التي كان يكتبها افتتاحيات لجريدة البصائر في سلسلتها الثانية بين سنة 1947 و 1953، لذا حمل هذا الجزء ــ بشكل خاص ــ اسم (عيون البصائر) وهو يمثّل مرحلة هامة من حياته السياسية والفكرية عموما.

ابتدأت هذه المرحلة بعد خروجه من السجن الذي قاده اليه الاستعمار الفرنسي بعد حوادث 8 ماي الرهيبة سنة 1945. أما الأجزاء الأخرى فقد بدأت تصدر بعد وفاته عن المؤسسة الوطنية للكتاب في الجزائر بعناية خاصة من تلامذة الشيخ محمد البشير الابراهيمي جمعا وترتيبا، وإعدادا للطبع.

(٥) حديث أذيع من القناة الأولى في الاذاعة الجزائرية، سنة 1987.

وقد صدرت الطبعة الأولى للجزء الأول سنة 1398 هجرية (1978م) عن الشركة الوطنية للنشر والتوزيع (التي صارت تحمل اسم المؤسسة الوطنية للكتاب أخيرا) وهو جزء «يشتمل على ما كتبه في المرحلة الأولى من حياته في الحقل الوطني بعد عودته من المشرق العربي في العشرينات من هذا القرن، حيث أقام حوالي عشر سنوات في المدينة المنوّرة ثم في دمشق دارسا ومدرّسا، وحيث شارك في النهضة العلمية والأدبية والقومية في سوريا» ج 1 ص: 5.

يحوى هذا الجزء مقالات نشرت في السلسلة الأولى من جريدة (البصائر) وفي الشهاب وغيرهما، كما حوى خطبا ومحاضرات وغيرها، من هذا الغير عمله المعروف الذي يحمل عنوان «رسالة الضّبّ» وكذلك «رواية الثلاثة» التي لبست حلّة أدبية مطبوعة بالدعابة والنكتة في صياغة شعرية، غطت أربعا وأربعين صفحة، زيادة على مقدمة في سبع صفحات أبرزت الظروف التي كتبت فيها هذه الأرجوزة المطوّلة، وهي الظروف التي كان فيها الشيخ سجينا، وقد كان الأب والأستاذ للأشخاص الثلاثة الذين حملت الرواية الرقم دلالة عليهم «تمثل حالة ثلاثة بين الأساتذة لا يدفعون عن فضل ولا أدب ولا ذكاء، وما فيهم الا بعيد الأثر في الحركة الاصلاحية، واسع الخطى في ميدان تعليم الناشئة وتربيتها. وكان لهم شيخ يقارضونه برّا ببر وتكرمة بتكرمة» (ص 282) لكن شيطان المال سرعان ما يتسلّل حاملا معه كل الشرور، حتى بات أمر الواحد من الثلاثة أكثر حبّا للفرنك من سواه، كما عبّر عنه الشيخ على لسان واحد من أولئك الثلاثة الذين صار الثمن الخاص بطابع البريد مشكلة لهم، فالفرنك عند ذلك الواحد كما يقول:

أعزّ عندي من وحيد أمّه كلّ المنى في ضمّه وشمّه

وهو ما يبرز الدور الكريه الذي يلعبه المال في افساد العلاقات بين النّاس، ذلك أن أشخاص «الرواية» هم أشخاص واقعيون جدا، ذكرهم

الشيخ بأسمائهم.. مداعبا منكّتا، اعلانا في النهاية: لرأي وموقف، وما تخضع له النفوس من امتحان في الظروف العسيرة، وهو أن قصد بذلك الدعابة مع تلاميذه الأصدقاء فقد عكس واقعا لا تخلو منه حياة الناس، وان لم يكن ذلك بالضرورة من طبع الأشخاص الواقعيين الذين ورد ذكرهم.

والشيخ محمد البشير الابراهيمي بقدر ما هو كاتب اجتماعي هو أديب مفكّر من الدرجة الأولى بشهادة أعماله نفسها كما تجسّدها آثاره الحافلة بمختلف القضايا، ويلفت نظرنا بشكل واضح في الجزء الأول من آثاره موضوع ذو أهمية خاصة وهو بعنوان «واجب المثقفين نحو الأمة» في صفحة 348، وفيها اشارة الى أن الموضوع هو «من محاضرة ألقاها في أحد نوادي تلمسان في الأربعينيات ووجدت مسودّتها بين أوارقه»، وهذا يعني أنه ألقاها حين كان يقيم هناك للتدريس والوعظ والارشاد استجابة لطلب السكان الذين عرضوا قبلا على ابن باديس في أن يقيم بينهم فاقترح ــ لارتباطه بطلبته في قسنطينة ــ محمد البشير الابراهيمي الذي رحّب به السكان، وقد تفاعلوا مع دعوة جمعية العلماء ونهجها ممّا سبّب متاعب جمّة للشيخ البشير في مهمته ممّا تطلّب نضالا شارك فيه المواطنون بكل استماتة واخلاص.

في موضوع «واجب المثقّفين نحو الأمة» بدا احساس الشيخ الابراهيمي شديدا بدور المثقّف، ومكانته، وهو «الرجل المهذّب، والمستنير الفكر المجوهر العقل المستقل الفكر في الحكم على الأشياء، الجاري في تفكيره على قواعد المنطق لا على أسس التخريف، المطّلع على ما يمكن من شؤون العالم وتاريخه الملمّ بجانب من معارف عصره» ص: 352 وهو تعريف حرص على ما ينبغي للمثقف من عدّة لأن دوره في مسيرة المجتمع ذو أهمية كبيرة لاعتبار المثقّفين «في الأمم الحية هم خيارها وسادتها وقادتها وحرّاس عزّها ومجدها» كما يقول: «تقوم الأمة نحوهم بواجب الاعتبار والتقدير، ويقومون هم لها بواجب القيادة والتّدبير». وهو هنا يحدّد مكانة المثقّف في مجتمع متحضّر يجلّ علماءه لا يذلهم أو يتجاهلهم ويهمّشهم، لأن الأمم

المتحضّرة كانت دائما «تابعة لعلمائها وأهل الرأي والبصيرة فيها، تحتاج اليهم في أيّام الأمن وفي أيام الخوف، تحتاج اليهم في الأمن لينهجوا لها سبيل السعادة في الحياة ويغذّونها من علمهم وآرائهم بما يحملها على الاستقامة والاعتدال، وتحتاج اليهم في أيام الخوف ليحلّوا لها المشكلات المعقّدة ويخرجوها من المضائق محفوظة الشرف والمصلحة» 353.

وهنا حدّد الشيخ محمد البشير الابراهيمي دور المثقفين خاصة في محيط صحّي له قيمه الاجتماعية والحضارية، خال من ضروب التعفّن والفساد والفوضى بمختلف أشكالها وألوانها، وهو ما يسهم في النجاح لجهود المثقفين في محيط يعتبرهم، لأنهم كما يقول «هم حفظة التوازن في الأمم، وهم القومة على الحدود أن تهدم، وعلى الحرمات أن تنتهك وعلى الأخلاق أن تزيغ، وهم الميزان لمعرفة كلّ انسان حدّ نفسه، يراهم العامي المقصّر فوقه فيتقاصر عن التسامي لما فوق منزلته. ويراهم الطّاغي المتجبّر عيونا حارسة فيتراجع عن العبث والاستبداد».

لم يكن الكاتب «طبقيا» كما يفهم بين سيّد وتابع، ولا كما قد يفهم بعض الأدعياء والطفيليين ولصوص الشعارات بين الانتهازيين والوصوليين، لكنه ينظر الى الأمور بميزان العقل في الفرق بين مثقّف له دور حاسم عام، وجاهل له دوره المحدد المختلف، لاعتبار كلّ امرىء وامكاناته، حيث يكون الفرق بين موهوب يجب تشجيعه وحمايته لصالح وطنه في النهاية وبين خامل له حيّزه على قدر امكاناته الفكرية والذهنية. هذا يعني بشكل ما الحرص على قيام مجتمع يشجع أبناءه على طلب العلم والمعرفة، لا مجتمع يسخر من الثقافة وأصحابها، الوضع الصحي في مجتمع متطوّر يشجّع على الطّموح الشرعي لخير الانسان المصونة كرامته والوطن المزدهر بفضل مثقّفيه وعلمائه. من هنا يأتي التعريض بمجتمع يسود أراذله، ويطغى فيه تجار وسماسرة ومهربون ويعاني المثقف في وضعه، ،ومن قيمه نفسها مما يعود بالضرر على الفرد والجماعة، فيقول «ولا أضرّ على الأمم من الفوضى في الاخلاق، والفوضى في مراتب الناس».

غير أن الشيخ الابراهيمي لا يعفي المثقف منن مسؤولية ما يحدث، كما لا يعفيه من التقصير في استكمال عدّته، فيتساءل: «هل فينامثقفون بالمعنى الصحيح الكامل لهذه الكلمة؟» يجيب بصراحة وعينه دائما على الوضع الذي كان عليه حال الشعب الجزائري: «الحق أنه يوجد في الأمة الجزائرية اليوم مثقفون على نسبة حالها وعلى حسب حظّها من الاقبال على العلم وعلى مقدار الوسائل التي تهيأت لها في ذلك، ولكن المثقفين منا قليل جدا لا في الكمّ والعدد ولا في الكيف والحالة، ولا نطمع في زيادة عدد المثقفين الاّ إذا زاد شعور الأمة بضرورة التثقيف وتهيأت أسبابه وأكثر ممّا هي متهيأة الآن، ولا نطمع في زيادة الكيفية الا إذا توحدت طرائق التثقيف وجرت على ما يوافق روح الأمة في دينها وعقائدها الصحيحة وتاريخها ولغتها وجميع مقوّماتها، واتّحدت الأهواء المتعاكسة واتّفقت المشارب المختلفة في الأمة وصحّت نظرتها للحياة وصحّ اختيازها لطرقها المناسبة لوجودها» هنا يصل الشيخ الابراهيمي الى أمّ المعضلات في حياة المجتمع الذي تتجاذبه ثقافتان مختلفتان، فيقول: «آفة الآفات وعلّة العلل في ثقافتنا على ما هي عليه من النقص في العدد وفي الحالة: أن عندنا ثقافتين مختلفتين تتجاذبان من أمام ومن خلف، احداهما ثقافة اسلامية أساسها دين الأمة وقوامها اللسان العربي تقوم بها طائفة، والثانية ثقافة أوروباوية أساسها اطّراح الأديان وقوامها اللّسان الفرنسي تقوم بها أخرى، وبين الثقافتين تفاوت يكاد يصيّرنا أمّتين لا أمة واحدة، ولو اشترك الفريقان في اللّسان المعبّر لهان الأمر ولحصلت بعض الثمار المطلوبة من الثقافة».

وللشيخ البشير الابراهيمي على كلا الفريقين مآخذ غير المأخذ الخاص بالتمزّق الذي أحدثته مواجهة بين لغتين، لغة الوطن والانتماء ولغة الاحتلال، ويبقى الوضع في جميع الحالات غير طبيعي بل خطير خاصة عندما تكون لغة المحتلّ في موقع قوّة ولغة المجتمع والوطن في موقع ضعف

مما تترتّب عنه مفاسد كثيرة، من أكبر هذه المفاسد كما يقول الابراهيمي «الاختلاف في وجهات النظر، فتختلف الآراء في المصلحة الواحدة على رأيين متناقضين، وفي المفسدة الواحدة كذلك، وهنالك تنقلب الحقيقة ويصير المثقّفون بلاء على الأمة ويصيرون داءها بعد أن كانوا دواءها، وأعداءها بعد أن كانوا أولياءها» ص: 354.

* *

2 ـــ المجلد الثاني...

ونموذجان من الجانب الأدبي

يحتلّ المجلّد الثاني من آثار الشيخ محمد البشير الابراهيمي أهمية كبيرة، للموضوعات التي اشتمل عليها ولمستواها الفكري والفنّي، زيادة على أنه انتقى مقالاته بنفسه، وهو يعكس جوانب مهمة من فترة معيّنة من تاريخ الجزائر بعد الحرب العالمية الثانية حين كانت الأرض حبلى بالحدث الأكبر، الذي ولد في أوّل نوفمبر 1954. ضمّ هذا المجلّد المقالات التي كتبها بين سنة 1947 و 1953 أي بعد الافراج عنه من السجن حتى انتقاله الى المشرق العربي في مهامّ ثقافية استمرّ يواصلها هناك بعد قيام الثورة المسلحة، ومعظم المقالات في المجلد الثاني كتبت افتتاحيات لجريدة «البصائر» في سلسلتها الثانية، لذلك أطلق عليه المؤلف عنوان «عيون البصائر» حين أعدّه للطبع، وهو الجزء الوحيد الذي نشر في حياة المؤلف بالقاهرة، ثم أعيد طبعه في الجزائر بالشركة الوطنية للنشر والتوزيع سابقا (المؤسسة الوطنية للكتاب حاليا).

تنوّعت مقالات المجلّد الثاني تنوّعا كبيرا: في الدين والسياسة والتاريخ والاجتماع والأدب، فعالج المؤلف كثيرا من أمّهات القضايا التي كان يفرضها الواقع الرازح تحت نير الاستعمار الفرنسي الطاغي، فعالج في ذلك قضايا الدين والسياسة وعلاقتهما بالحكم، ودور جمعية العلماء التاريخي في الوقوف أمام ضروب المسخ الاحتلالي، وعملها لمحاربة البدع والاحتلال، مثل محاربتها للدجّالين وتجّار الشعارات الدينية، كما عالج دورها في اشاعة الفهم الصحيح للدين والوطنية ودور اللغة العربية وعاء حضاريا للشخصية الوطنية في الجزائر العربية المسلمة التي أدرك فيها الاستعمار الفرنسي ما تقوم به اللغة

العربية في صيانة الشخصية الوطنية وما يقوم به الدين الاسلامي من دور في حماية المجتمع والوطن من المسخ والتشويه، فحاربهما بضراوة من أجل التنصير وفرض لغته الفرنسية لغة حياة وعمل ومعاملات، ولم يهمل الشيخ النضال المستميت لجمعية العلماء الى جانب القضية الفلسطينية، حيث أبرز الخطر الصهيوني المتنامي وما على العرب من مهامّ لردع الطغيان الصهيوني المدعوم غربيا وأميريكيا.

كما عالج قضايا الوحدة العربية، ودور رجال الفكر والسياسة، مثلما عالج مشاكل الشباب والزواج، والأعراس وغيرها من المشاكل الاجتماعية، وغير ذلك كثير جدّا ممّا انفعل به الكاتب وعبّر عنه بحرارة شديدة أبرزته ذا شعور بالمسؤولية التاريخية والاجتماعية والأدبية، وهو ما يجعله في النهاية مفكرا من الطراز الأول: احساسا بمالا يحسّه سائر الناس في مجتمع يتعرض لهجمة فرنسية غربية لطمس شخصيته الوطنية، بالتركيز على هدفين رئيسيين في الهجوم الحاقد على «العربية» و «الاسلام».

ورغم التنوّع الكبير في مقالات الشيخ محمد البشير الابراهيمي في هذا المجلّد من آثاره في الأمور السياسية والدينية والتاريخية والاجتماعية فقد بدا تميّزه واضحا في بعضها، ومن أهمّ ما تميّز في ذلك: فكرا وأسلوبا موضوعاته الأدبية، وممّا يلفت النظر في هذه موضوعان أدبيّان، أحدهما بعنوان «تحية غائب كالآيب» وثانيهما بعنوان «مناجاة مبتورة لدواعي الضرورة».

أما المقال الأول فهو صروة أدبية زاخرة بما اعتمل في نفس الكاتب من مشاعر وأشواق للجزائر حين سافر خارجها سنة 1952 عبر بعض البلدان العربية والاسلامية فكتب من هناك هذه المقالة التي نشرت في العدد 229 من البصائر سنة 1953م يحيى الوطن ويعبّر عن شوقه اليه قائلا: «حيّ الجزائر عنّي يا صبا... واحمل اليها منّي سلاما تباري لطافته

لطافتك، وتساري اطافته اطافتك، فقديما حمّلك الكرام الأوفياء مثل هذه التحية الى من يكرم عليهم أو ما يكرم عليهم، فحملتها روحا وأدّيتها بوحا، وأعلنتها شذى وفوحا، وكنت بريد الأرواح الى الأرواح بألفاظ غير مكتوبة ومعان غير مكذوبة» ص: 482.

«أنت يا صبا ريح وكأنّ فيك قطعة من كل روح، يجد فيك كل غريب أنسا وكل حبيب سلوى، وكلّ مكروب تنفسيا، خلال كلها جلال، وما ذلك الرّوح الذي يجده الواله في أنفاسك الاّ أنفاس المحبّين تمتزج بأنفاسك، فيجدونها بردا على الأكباد وبشاشة في الأسارير ورضى في السرائر... لئن كان في الرياح لواقح للأشجار ففيك وحدك لقاح النفوس، ولئن كان فيك ما يحرق الورق ففيك وحدك ما يطفىء الحرق». ص: 483.

يحمّل الكاتب الصبا تحيّته للجزائر تنفيسا عن مكابدة الشوق وتعبيرا عن الحبّ المكين واخلاصا ووفاء للأرض التي أنجبته ولاخوان الصدق العاملين من أجل عزة الوطن وسؤدده. فيقول مناجيا الصبا: «أدّ التحيةَ عنّي للجزائر التي غذت وربّت وأنبتت القوادم في الجناح وأسلفت الأيادي البيضاء وأسدت العوارف الغرّ، وأشربت من الطفولة حبّ العروبة والاسلام، وأخذت باليد الى رياضهما ففتقت اللّسان على أشرف لغة وسعت وحي آلله وفتحت القلب لأكمل دين جمع الرّوح والمادّة، ثم أورثت — فيما أورثت من مآثر العرب وفضائل الاسلام — أنفا حميا، وفؤادا ذكيا ولسانا جريئا، وهمّة بعيدة واباء للمشارب الكدرة، وقناة لا تلين الاّ للحقّ، وذيادا عن حرمات الحمى والدّين ونفسا لو تراءت لها زخارف الدنيا من وراء الدّنايا ما خاضتها اليها وروحانية أحد طرفيها في الأرض والآخر في السماء تأمر في ذلك كلّه وتنهى.

ثمّ عمّم التحية الى كل من تديّر الجزائر من اخوان الصدق وأحلاف الحق: من علماء جلاهم الاسلام سيوفا وبراهم سهاما وقوّمهم رماحا، ثم

وحّدتهم العقيدة على غاية وجمعهم على بساط، وألف بينهم الجهاد في ميدان. فاجتمعت قلوبهم على هداية بها وألسنتهم على دعاية اليها، وأيديهم الاصلاحية على بناء لها».

وبعد البوح بمشاعر الاخلاص والوفاء والعمل من أجل الجزائر يخاطبها قائلا: «خطت الأقدار في صحيفتي أن أفتح عيني عليك وأنت موثقة، فهل في غيب الأقدار أن أغمض عيني فيك وأنت مطلقة، وكتبت الأقدار عليّ أن لا أملكك من أرضك شبرا، فهل تكتب لي أن أحوز في ثراك قبرا» ص: 485.

وقد كتب آلله للشيخ أن يغمض عينيه في الجزائر وهي مستقلة رغم تلك الظروف الصحية التي ترافق فترات التحوّل، كما حاز في ثراها قبرا تشيّعه في 20 ماي 1965 الى مثواه الأخير جموع غفيرة من المواطنين بمن فيهم تلاميذه وأصدقاؤه الذين لم يتخلّوا عنه، ولم تفعل الظروف فعلها في نفوسهم.

وقد ختم الشيخ تحيته بهذه الصورة بين ماضي الجزائر التاريخي عزيزة الجانب وحاضرها تعاني الأغلال، وتطلّعها لقهر قوى الظلم والطغيان، فيقول:

«أيها الوطن الحبيب.. أما الشوق اليك فحدّث عنه ولا حرج، وأما فراقك فشدة يعقبها الفرج، وأما الحديث عليك فأزهار تضوّع منها الأرج... وسلام عليك يوم لقيت من (عقبة) وصحبه برّا، فكنت شامخا مشمخرا، ويوم لقيت من (بيجو) وحزبه شرّا فسلّمت مضطرا وأمسيت عابسا مكفهرّا، للانتقام مسرّا، وسلام عليك يوم تصبح حرّا، متهللاً مفترّا، معتزا بالله لا مغترا» ص: 487.

صورة أدبية.. كوّنت لوحة زاخرة بالظّلال والأعماق جعلتها المشاعر والكلمات الجيّاشة بالصدق والاخلاص والحب والوفاء أكثر حركة...

وأبعد أثرا في النفس فجّرتها لحظة صفاء، وشوق فجّرت كوامن النفس وما تمور به من أحاسيس وطنية ارتدت حلّة شعرية زاهية بالألوان مكتنزة بالأبعاد الكبرى من منظور تاريخي حضاري أدبي.

أما مقال «مناجاة مبتورة لدواعي الضرورة» فقد كتبه الشيخ محمد البشير الابراهيمي وهو موقوف بقرية (افلو) حين انتهى اليه خبر وفاة الامام (عبدالحميد بن باديس) في 16 أفريل سنة 1940، وقد نشر المقال بعد ذلك في العدد 76 من (جريدة البصائر) سنة 1949م بعدما حذف منه الشيخ «كثيرا مما لا تسمح الظروف بنشره». كما أشار الأستاذ محمد الغسيري يومئذ في تقديمه لكلمة الرثاء هذه، لذلك أطلق عليها المؤلف اسم «مناجاة مبتورة، لدواعي الضرورة» فالبتر أو الحذف اقتضته ظروف الرقابة الاستعمارية الفرنسية يومئذ على المطبوعات، غير أن ذلك الحذف لم يخلّ بمشاعر الكاتب في تدفقها، وتعبيرها عما صار يحسّه الرجل بوفاة ابن باديس.

وهكذا يبث الكاتب السلام على القبر الذي يضمّ ابن باديس كما يبثّه على آثاره وجهوده، فيقول: سلام «على الجدث الذي التأمت حافتاه على العلم الجمّ والفضل العدّ، وواری ترابه جواهر الحجا والذّكاء والعزم والجدّ، وطوى البحر الزّخار في عدّة أشبار فأوقف مالا حدّ له عند حدّ، واستأثر بالفضائل الغزر، والمساعي الغرّ والخلال الزهر، فلم يكن له في الأحداث ندّ وأصبح من بينها المفرد العلم كما كان صاحبه في الرجال العلم الفرد.

وسلام على مشاهد كانت بوجوده مشهودة وعلى معاهد كانت ظلال رعايته وتعهّده عليها ممدودة، وعلى مساجد كانت بعلومه ومواعظه معمورة، وعلى مدارس كانت بفيضه الزاخر ونوره الزاهر مغمورة، وعلى جمعيات كان شملها بوجوده مجموعا، وكان صوته الجهير كصوت الحق الشهير مدويّا في جنباتها مسموعا» ص: 654 ــ 655.

وبعد حديث عن جهوده، وصيته في الشعب الجزائري يعرّج للحديث عن تلاميذه وزملائه من رفاق النضال الصّامدين في الحركة الاصلاحية. «وسلام على اخوان كانوا معاه بناة الصّرح، وحماة السرح، وكانوا سيوف الحق التي بها يصول وألسنة الصدق التي بها يقول، أبت لهم عزّة الاسلام أن يضرعوا أو يذلّوا، وأبت لهم هداية القرآن أن يزيغوا عن مناهجه أو يضلوا، وأهلك العالم زلل العلماء فتقاسموا بشرف العلم أن لا يزلّوا، تشابهت السبل على الناس فاتخذوا سبيل آلله سبيلا، وافترق الناس شيعا فجعلوا محمدا وحزبه قبيلا».

ثم يعود الكاتب لمناجاة القبر: «ياقبر، ما أقدر آلله أن يطوي علما ملأ الدنيا في شبر، ياقبر، ما عهدنا قبلك رمسا وارى شمسا، ولا مساحة تكال بأصابع الرّاحة ثم تلتهم فلكا دائرا وتحبس كوكبا سائرا. يا قبر، قد فصل بيننا وبينك خط التواء لا خط استواء فالقريب منك والبعيد على السواء. يا قبر، أتدري من حويت، وعلى أيّ الجواهر احتويت؟ انك احتويت على أمة في رمّة، وعلى عالم في واحد». ص: 657.

هذه النداءات وما لحقها وصحبها من صيغ عبّرت بوضوح عن عمق الاحساس في نفس الكاتب بالخسارة الجسيمة لوفاة (ابن باديس) ولمكانته وأهميته في مسيرة الشعب الجزائري المجاهد.

يخاطب الكاتب الفقيد في قبره قائلا: «قولا لصاحب القبر عنّي: يا ساكن الضّريح: نجوى نضو طليح صادرة عن جفن قريح وخافق بين الضلوع جريح... يا ساكن الضريح متّ فمات اللّسان القوّال، والعزم الصّوال، والفكر الجوّال، ومات الشخص الذي كان يصطرح حوله النقد ويتطاير عليه شرر الحقد، ولكن لم يمت الاسم الذي كانت تقعقع به البرد وتتحلّى به القوافي الشّرد... ولا الدويّ الذي كان يملأ سمع الزمان ولا يبيت منه الاّ الحق في أمان.

مات الرسم وبقي الاسم، واتفق الودود والكنود على الفضل والعلم. وعزاء فيك لأمة أردت رشادها، وأصلحت فسادها ونفقت كسادها وقوّمت منآدها، وملكت بالاستحقاق قيادها. وأحسنت تهيئتها للخير واعدادها وحملتها على المنهج الواضح والعلم اللائح حتّى أبلغتها سدادها، وبنيت عقائدها في الدين والحياة على صخرة الحق، ومثلك من بنى العقائد وشادها. أعليت اسمها بالعلم والتعليم، وصيّرت ذركها محلّ تكريم وتعظيم وأشربتها معاني الخير والرحمة والمحبّة والصدق والاحسان والفضيلة، فكنت لها نعم الراحم وكنت بها الرحيم.

ولقد حييت فما كانت لفضلك جاحدة، ومتّ فما خَيّبَتْ من آمالك الا واحدة». ص: 659.

مشاعر حبّ وتقدير ووفاء، مشاعر منسكبة في مجرى أدبي مفعم بالصدق والاخلاص للرابطة النبيلة التي جمعت الرجلين في خدمة الوطن وأبنائه، تعليما واصلاحا وارشادا وتوعية اعدادا للخلاص من الاحتلال الرابض بكلكله على الشعب الجزائري.

- ذكر الكاتب روح التآزر التي كانت تسود المجتمع، واستجابة الشعب الجزائري للفكر الاصلاحي، والعمل للنهوض تجاوزا لواقع الاحتلال والتخلف. وقد قال أن هذه الأمة لم تخيّب من الآمال الا واحدة؟ فما هي هذه «الواحدة» التي بقيت «غامضة»؟

شرحها الكاتب وهو يعدّ كتابة هذا النّص قائلا: «هي القيام بثورة جارفة تكتسح الاستعمار الفرنسي، وتنتزع بها منه حريتها واستقلالها، فهذه هي الأمنية التي كنّا نتناجى بها ونعمل لتصحيح أصولها، وقد حققت الأمة الجزائرية الماجدة هذه الأمنية بعد نحو أربع عشرة سنة على أكمل وجه». ورد هذا في الهامش من صفحة 569، وهو ما يؤكد الخطى المرحلية التي كانت تخطوها الحركة الاصلاحية ضمن الحركة الوطنية اعدادا للثورة المسلحة التي وافت في أول نوفمبر 1954 لتجبر الاستعمار الفرنسي على الاعتراف باستقلال الجزائر في 5 جويلية من سنة 1962م.

3 ــ المجلّدان: الثالث والرابع(٥)

صدر المجلّدان الثالث والرابع من آثار الشيخ محمد البشير الابراهيمي عن الشركة الوطنية للنشر والتوزيع التي صارت تحمل اسم (المؤسسة الوطنية للكتاب)، ظهر المجلد الثالث سنة 1982 حسبما هو وارد في رقم النشر بالطبعة الأولى، وظهر الرابع سنة 1985 مع نفس الملاحظة السابقة، غير أن ظهورهما في المكتبات تأخر عن ذلك كثيرا، وهذا لا يهمنّا هنا، تهمّنا مادة هذين المجلّدين.

وأول ملاحظة نسجّلها ونحن نتتبّع مادة الكتابين أنها كتبت في فترة مشدودة كثيرا الى الفترة التي كتبت فيها مادة المجلد الثاني، مع تميّز خاصّ يتعلق بالظروف وبمستوى المادة الفكري والفني في المجلّدين معا، وهو أقل بشكل عام من مستوى المادة في المجلّد الثاني، بصرف النظر عن بعض الاستثناءات المحدودة، ثم يتميّز المجلّد الرابع بأمر خاص وهو أن مادته كتبت كلّها خارج الجزائر، كما نشر أكثرها أو أذيع أو ألقي محاضرات خارج الجزائر، في صحف ومجلات واذاعات وجامعات: عربية ــ اسلامية.

هذا يعني أساسا أن المادة في المجلد الثالث كانت تتخذ من جريدة (البصائر) منبرا لها بمخاطبة الجزائريين وغيرهم، في حين أن معظم المادة في المجلّد الرابع اتّخذت لها مجلة «الأخوّة الاسلامية» و «المسلمون» ثم «المنهل» و «منبر الشرق» و «الارشاد» وكذلك جريدة «الأهرام» كما ألقي بعضها محاضرات في معهد الدراسات العربية العالية بجامعة القاهرة تحت عنوان عام (الاستعمار الفرنسي للجزائر فيما بعد الحرب العالمية الأولى».

---

(٥) حديث بثّ من القناة الأولى في الاذاعة الجزائرية 1988.

هذا يعني أن مادة المجلّد الثالث نشرت بـ(البصائر) وحدها بينما نشر الجزء الأقل فقط من مادة المجلد الرابع في البصائر من جوان 1952 وأكتوبر 1954م، والجزء الأكبر في غير البصائر، فاحتلّت مادة (البصائر) (مئة وأربعين صفحة) من بين أربع مئة وعشر صفحات (410ص)، أما الفترة فبقيت ذات صلة بتلك الفترة التي غطّتها مادة المجلد الثاني التي استمرت من 1947 الى 1953م، وهكذا نجد مادة المجلّد الثالث ظهرت في (البصائر) بين جويلية 1947 وفيفري 1952، وقد سافر بعد ذلك ببضعة أيام (7 مارس 1952) الشيخ البشير الابراهيمي الى الشرق ولم يعد الاّ بعد الاستقلال، سنة 1962م، وقد كانت مادة هذا المجلد: مقالات وخطبا، ومحاضرات وتعليقات، وحتى شعرا.

أما مادة المجلّد الرابع فقد كتبت كلّها بين سنة 1952 و 1954م ويبقى الموضوع في ذلك كلّه: الجزائر في صراعها مع الاستعمار، في التعريف بها وبقضيتها، وآمالها، وطموحها الى التحرّر وعملها للاستقلال، ودفاعها عن انتمائها الوطني العربي الاسلامي.

من نفس المنطق كان الاهتمام ببعض الجوانب البارزة على السا حة في المغرب العربي وفي المشرق، مثل كفاح ليبيا وتونس، والصّراع في فلسطين وعليها. وهي موضوعات قومية خاصة منها قضية فلسطين التي تواجدت في معظم هذه المجلّدات من الأعمال الكاملة للشيخ محمد البشير الابراهيمي رحمه الله، وهو أمر يحتاج الى اهتمام خاص ودراسة علمية جامعية لابراز فكر الشيخ البشير الابراهيمي في القضايا القومية سواء في عمقها العربي أو في عمقها الاسلامي أو فيهما معا.

وإذا كان من السهل حصر موضوعات المجلّدين الثالث والرابع عدّا فإنه ليس ممكنا الاقتراب من حصرها فكرا في مثل مقال أو حديث كهذا. فقد تعدّدت القضايا التي عالجها الكاتب وتنوّعت الاهتمامات حيث يتعانق

الجانب السياسي والجانب الاجتماعي وغيرهما، في قضايا المجتمع والاستعمار في الجزائر، في مستوى محلّي أو عربي أو دولي.

ومن بين ما يستوقفنا في المجلد الثالث موضوع الخلاف في رمضان صوما وافطارا، حيث كتب الشيخ مقالا سمي بيانا نشر ووزّع في الشعب في بداية شهر رمضان سنة 1366هـ ونشرته البصائر في عددها الأول من سلسلتها الثانية سنة 1947م، وكان المقال بعوان «نصيحة دينية» أردف العنوان بكلمة أخرى هي «تقدمها جمعية العلماء للأمةالجزائرية الاسلامية» فالنصيحة باسم الجمعية التي هو رئيسها، عن مشاكل التفرق والاختلاف.

يقول الكاتب في مقاله: «ان التفرق شرّ كلّه، وشرّ أنواع التفرق ما كان في الدين، وأشنع أنواع التفرّق في الدين: ما كان منشؤه الهوى والغرض، ونتيجته التعادي والتباغض، وأثره في نفوس الأجانب السخرية من الدين والتنقص له واتخاذ أعمال أهله حجة عليه، وما أعظم جناية المسلم الذي يقيم من أعماله الفاسدة حجة على دينه الصحيح، وما أشنع جريمة المسلم الذي يعرّض بسوء عمله دينه الطاهر النقي للزراية والاحتقار.

أيها المسلمون الجزائريون...

في كل عام تفتون في دينكم مرتين، فتختلفون في الصوم اختلافا شنيعا، وتتفرّقون في الافطار تفرقا أشنع، وكلما جاء شهر رمضان الذي تصفّد فيه الشياطين انطلقت من بينكم شياطين تدعوكم الى التفرّق في شعيرة لم تشرع الاّ للجمع وتزّين لكم الاختلاف في الدين باسم الفقه في الدين.

ولو كان تفرّقكم في الصوم والافطار مبنيا على اعتبار صحيح، وعلى أسباب ضرورية — كعدم العلم بالرؤية مثلا — لهان الأمر، ولكان لكم بعض العذر، ولكنه في الأغلب مبني على جمود، وعناد مقصود... ثم انتهى بكم العناد واللّجاج الى شر ما تقع عليه العين من تفرق واختلاف، وهو

أن البيت الواحد يضمّ صائمين ومفطرين فضلا عن القرية الواحدة، والصائم يرمي المفطر بالموبقات والمفطر يرمي الصائم بالشناعات، وبين هذين ضاعت الحرمة الحقيقية والحكمة الحقيقية...

ان آلله تعالى ما شرع هذه الشعائر عبثا وانما شرعها لحكم جليلة أعلاها جمع الأمة على الدين لتجتمع في شؤونها الدنيوية، وتوحيدها في عبادة آلله لتتربّى على الاتحاد في مصالحها العامّة المشتركة.

يا للعجب، أيكون الشهر الذي جعله آلله مقويا للارادات ومشدّدا للعزائم ومطّهرا للأرواح ومهيأ لنفحات الخير والرحمة والمحبة سببا للفتور والضعف ومدبّا للبغضاء والعداوة. أتجعلون من هذا الشهر الذي جعله آلله جامعا للقلوب على الأخوة وللأرواح على الطهر وللمشاعر على الاحسان وسيلة الى التفريق والتشتيت؟ «ص: 12.

ويضيف بعد هذا بقليل: «لا عذر لكم في الاختلاف في هذا الزمن الذي قارب بين أجزاء الأرض وقرّب بين أفراد البشر، وسهّل نقل الأخبار وصحّح مقاييس العلم وضبط موازين الأشياء وأحكم الاتصال بين الناس وأعان على فهم حقائق الدين».

وهذا ليدعو الى الاعتدال والثقة في أخبار الاذاعات الاسلامية والبرق والهاتف «إذا عرف الصوت وتعدّد الناقل» كما يقول، مضيفا: « لا تجعلوا الحدود الاقليمية التي وضعها المخلوق حدودا فارقة في الشعائر التي وضعها الخالق... صوموا وافطرا على أخبار اذاعة تونس، فما تنوس الا جارة قسنطينة وعلى أخبار إذاعة الرابط، فما الرباط الى جار وهران، وعلى أخبار إذاعة الجزائر فما الجزائر الأ قلب هذا الشمال الاسلامي العربي» ص: 13.

وتبقى قضية الدين وعلاقتها بالنهوض الوطني من التخلف والتحرّر من الاستعمار من النقاط الهامة في الجزء الثالث من آثار الشيخ

الابراهيمي وهو يوظف الموضوع بعد البعد الوطني في عمقه الاسلامي الأعم كما نرى في قوله: «انك لترى للمسلمين وجودا في كل قطر، وتسمع عنهم نبأ في كل ناحية، ولكنهم متفرقون في زمن أصبح فيه التكتل شرطا للحياة، ومتباعدون في وقت أصبح فيه التقارب أساسا للقوة، ومتناكرون في عصر أصبح فيه التعارف أقوى وسائل التعاون. ومنصرفون عن الجامعة الاسلامية الواسعة الى جوامع أخرى ضعيفة الآفاق من جنسية واقليمية في هذا الزمن الذي يتداعى فيه أتباع الأديان القديمة ومعتنقو النحل الحديثة الى التجمع حول المبادىء الروحية أو الفكرية» ص: 274.

أما أول موضوع في المجلد الرابع من (الآثار) فهو بعنوان «رحلتي الى الأقطار الاسلامية» وهو موضوع كتبه الأديب، وأرسله، فنشر في ستّ حلقات من جريدة (البصائر) وهو في البدء يذكر الدواعي للرحلة، مثل دراسة أحوال المسلمين، والاتصال المباشر بعلماء الدين، ودراسة أحوال الحكومات الاسلامية القديمة والناشئة، و «نفسية شباب الأمم الاسلامية المتباعدة الديار» وهي دواعي تنّوع محتواها، كما تنّوعت مقاصدها المباشرة وغير المباشرة، العامة والخاصة، قدّم لها الكاتب بكلمة معبّرة دالة قائلا: «دواعي هذه الرحلة كثيرة ولكنها ترجع الى أصل واحد. ومثيراتها في نفسي قديمة العهد، تتصل بما ركب في طباعي من حبّ الاطلاع والبحث، خصوصا في شؤون الشعوب الاسلامية، وكانت تذودوني عن هذه الرحلة — كلما هممت بها — الأعمال الداخلية لجمعية العلماء، وما هي بالقليلة، وعدم موافقة اخواني عليها، حرصا منهم على تلك الأعمال أن تختلّ أو تتعطّل، ونحن معشر هذه الطائفة نعد من سعادتنا وسرّ نجاحنا أننا لا نتحرّك الا عن اتفاق، ولا نسكن إذا سكنّا — إلا عن اتفاق، فلما توافرت الدواعي أذن لي اخواني فكانت الرحلة» ص: 13.

من بعيد شرع (الابراهيمي) يكتب رحلته، التي قدم لها بتحية عطرة ودّا وصفاء لاعداد جيل المستقبل لقهر الجهل والتخلف وبثّ الوعي الوطني والديني في نفوس الشباب والشعب.

وبعد ما طال غياب الكاتب، اختلّت صلاته بقرائه في (البصائر) فكتب في جويلية 1954 من هناك مقالا ذا دلالة هامة عن شخصيته وفكره افتتحه بقوله: «يعزّ عليّ أن أنقطع عن الكتابة في البصائر هذه المدة الطويلة وأن أهجر أحبّ ميدان من ميادين العمل الى نفسي وهو صفحات (البصائر) فلقد كنت أجد من اللذّة في ذلك العمل مالا أجده في غيره من أعمالي العمومية، وأحسّ للكلمة أكتبها في البصائر من حسن الوقع والارتياح مالا أجده للمحاضرة تهزّ الجمهور وتصيب مواقع التأثير منه فكأنّ الاتصال الروحاني بيني وبين القارئين أوثق وأعمق منه بيني وبين السّامعين» ص: 107.

وقد أخذ نشاط الشيخ الابراهيمي في الخارج عبر البلدان الاسلامية ومنها العربية منعرجا جديدا، في فكره، وفي العمل من أجل الجزائر، وهو ما تحدّد بوضوح بعد اعلان الثورة المسلحة في الجزائر يوم الفاتح من نوفمبر 1954، وقد تولّى مكتب جمعية العلماء الجزائريين بالقاهرة ومعه الشيخ الفضيل الورتلاني وباسم المكتب كانت للرجلين مواقف جادة في نصرة القضايا العربية والاسلامية، زيادة على القضية الجزائرية التي خدمها في صلاته بالبلدان الاسلامية ومنها الأقطار العربية، حيث كان يلحّ في لفت الأنظار للجزائر خاصة لجهود جمعية العلماء التي كانت في حاجة الى العون المادي والمعنوي، من هذا المنطلق كانت رسالتاه المذكّرتان الى مجلس الجامعة العربية، احداهما في جانفي 1954 والثانية في أوت من نفس السنة. كتب في مطلع المذكّرة الأولى يخاطب رئيس الدورة في العراق، الدكتور محمد فاضل الجمالي قائلا:

«أرجو من فخامتكم أن تقرأوا هذا البيان بامعان وأن تعرضوه على مجلس الجامعة وأن تتولّوا بيانه والدفاع عنه مشكورين.

كاتب هذا البيان إلى فخامتكم والى مجلس الجامعة الموقّرة هو رسول أمة عربية مسلمة في الجزائر تعدّ أكثر من عشرة ملايين من النفوس، وتجاهد الجهاد العنيف في سبيل عروبتها واسلامها» ص: 225.

وقد تحدّث الدكتور محمد فاضل الجمالي بعد ذلك في مقال نشره سنة 1972 ف مجلة (جوهر الاسلام) في عددها السادس من سنتها الرابعة قائلا: «كان العلامة الشيخ محمد البشير الابراهيمي رئيس جمعية العلماء الجزائريين من كبار المجاهدين الذين عملوا على حماية العروبة والاسلام في الجزائر، وكان له الفضل في تعريف المشرق العربي بكفاح الجزائر من أجل الحرية والاستقلال. كان لي شرف التعرّف عليه لأول مرة في (باريس) سنة 1951 حيث اجتمعت الجمعية العمومية للأمم المتحدة، وقد وجدت فيه آنذاك ينبوعا فيّاضا من ينابيع العلم والايمان، وكان يترجم علمه وايمانه الى لغة الجهاد والعمل. ومما زلت أتذكّر الخطاب الذي ألقاه في حفل أقمته على شرف نيل ليبيا للاستقلال في باريس في بداية سنة 1952 حيث قال ما مآله: ان الجزائر سوف تلحق بجهادها شقيقاتها، وسوف تظهر من البطولات وتقدّم من التضحيات من أجل حريتها واستقلالها من سيرفع رأس العروبة والاسلام عاليا» ص: 253. هذا الأمل ترجمته الجزائر الى فعل، حيث كان الانجاز الكبير في اعلان الثورة المسلحة في أول نوفمبر 1954 التي تكفّلت بتحقيق انجاز أكبر هو الاستقلال الوطني الذي افتكته الجزائر بفضل تضحيات أبنائها المخلصين على كل الجبهات الفكرية والسياسية والعسكرية.

محمد بن العابد الجلاّلي: الأديب المجاهد

1890 ـــ 1967

محمد بن العابد الجلاّلي: الأديب المجاهد

1890 ــ 1967

تنفّس الأديب المعلم الصحفي السياسي: (ابن العابد) أجواء النهوض الوطني واليقظة في مواجهة الاحتلال الفرنسي في النصف الأول من القرن العشرين، واندفع مشاركا بقلمه وفكره وسلوكه في حركة اليقظة الاصلاحية: معلّما: ذا تأثير سحريّ مذهل في تلاميذه، وصحفيا: قديرا يعالج القضايا الوطنية والدولية بروح مسؤولة، في أسلوب تنّوع بين الجدّ في مثل (المنتقد) و (الشهاب) والهزل في (أبي العجائب) وسياسيا: انتهى به المطاف الى قرار بحمل السلاح في نوفمبر 1954 لمقارعة الاحتلال الفرنسي باللغة التي لم يحسن (المحتلون) الاصغاء لغيرها، فكان جهاد الرجل على أكثر من جبهة تتجسّد جميعا في جهوده الأدبية، نبضا حيّا في مقال أو قصة أو خاطرة أو مسرحية.

ولد (السماتي محمد بن العابد الجلالي) في مدينة (أولاد جلال) سنة 1890م حيث حفظ القرآن الكريم، وتلقى تعليمه الأولي في اللغة العربية على أبيه (الشيخ العابد) إمام المدينة ــ القرية، انتقل بعد هذه الفترة في نهاية العشرينات من عمره الى قسنطينة بعد أن توقفت الحرب العالمية الأولى. في قسنطينة تتلمذ على الشيخ (عبدالحميد ابن باديس) وشرع يوثق صلاته بالحركة الثقافية والاصلاحية، ويتعرف على رجال الثقافة والفكر والاصلاح، لم يلبث حتى وجد نفسه في المعمعة: معلّما في مدارس جمعية العلماء وكاتبا في الأدب وفي الشؤون الوطنية والدولية كجبهة مكشوفة أمام الاحتلال الذي تضاعف طغيانه واشتدّ بطشه كما تجسّد في مجازر 1945 التي ارتكبتها قوات الاحتلال، فأزهقت الأرواح بالألوف التي تجاوزت

الأربعين مما أقنع (محمد ابن العابد) أكثر بالطريق الصعب الطويل، فانضمّ لحركة (الانتصارات للحريات الديمقراطية) كجبهة سياسية، عبرها الى معانقة الفجر الصبوح، ليكون أحد المجاهدين في نوفمبر 1954 هازئا من ثقل السنين على كاهله طموحا للحرية العذراء «بكل يد مضرجة تدقّ» فشدّ باصرار على سلاحه وايمانه حتى وقع في يد عدوّه، فعرف هذه المرّة (أساطين) السجون التي تشدّ بقبضة الرهبة والفزع على النفوس، لكن القبضة الحديدية تفتت أمام إرادة الثوار وعون آلله في 1962م فخرج (ابن العابد) الى الحياة العامة، لا الى القصور: يحتال وينهب (كما فعل ثوار وأدعياء) ولا الى الواجهات السياسية يهرّج ويتآمر (كما فعل محترفو السياسة: قدماء وجددا) بل عاد الى موقعه النضالي الشريف معلما، حتى آخر لحظة من القدرة على هذا العطاء السخي الشريف النظيف، فلقي ربه على ذلك في اليوم الثاني من شهر فيفري سنة 1967.

يتّضح مما سبق ان التعليم والكتابة كانا لحمة وسدى كوّنا معا قطب الرّحى في جهاده، فمدينة (العلمة) أول من استقبله سنة 1925 معلما، تلاها انتقاله الى (مدرسة التربية والتعليم) في قسنطينة سنة 1930 حين أسسها (ابن باديس) وبعد الحرب العالمية الثانية استقبلته مدرسة (بسكرة) معلما ومديرا، ثم مدرسة (عين مليلة) بادارة الشاعر (محمد العيد) وهي المدرسة نفسها التي عاد الى التعليم فيها وادارتها بعد الاستقلال «نحو ثلاث سنين الى أن عجز تماما عن العمل فانتقل الى مسقط رأسه (أولاد جلال) حيث أمضى بقية أيامه»(1).

أما نشاطه الثقافي فقد انطلق عبر الصحافة منذ شرع في العمل مع (ابن باديس) في جريدة (المنتقد) سنة 1925، ثم في (الشهاب) وفي

---

(1) محمد الصالح رمضان، ابن العابد الجلاّلي شخصيته وجانب من تفكيره، مجلة الثقافة، عدد: 82، س: 14، شوال ذو القعدة 1404هـ ـــ يوليو ـــ أغسطس، الجزائر 1984. أنظر: نحات، عدد: 2، سنة 1، الجزائر 1968م.

هذه الأخيرة كان ينشر قصصا بتوقيع (رشيد) ذات أبعاد سياسية أحيانا. وقد أسّس مع (أحمد بوشمال) و (محمد منياي) جريدة أسبوعية: أسمها «أبو العجائب»(*) سميت «نشرة فكاهية نقدية تهذيبية» صدر أول عدد منها في 24 ماي 1934م.

وقد لجأ الشيخ (محمد بن العابد الجلالي) رئيس تحريرها الى الأسلوب الساخر الفكه كشكل لمعالجة القضايا السياسية، ونقد الأمراض الاجتماعية بطريقة الرمز والاشارة، فكانت أغلب مقالاته «تتناول بالنقد اللاذع والسخرية المريرة المظاهر الاجتماعية الشاذة، وقد كان الجلالي معروفا بمعالجته لهذه المظاهر منذ أن كان متجولا لجريدة (المنتقد) في سنة 1925 تحت عنوان (وقفات) كما كان ينتقد وضعية المستعمر وحكامه، أو وضعية الخرافيين والمبتدعين من رجال الطرق»(1).

وبالاضافة الى نشاطه الصحفي، والأدبي (في الصحافة أيضا) فقد ترك الكاتب آثارا في مجال التأليف كأعمال، منها:

1 ــ تقويم الاخلاق، 1927، الجزائر.
2 ــ الأناشيد المدرسية، 1939، تونس.
3 ــ مضار الجهل والخمر والحشيس والقمار، مسرحية في أربعة فصول، كانت مخطوطة فأدرجها (مرتاض) في ذيل بحثه كاملة(2)!؟

(*) الأول: مديرها، والثاني: صاحب امتيازها، أما (ابن العابد) فرئيس للتحرير مع بروز اسمه بهذه الصفة متبوع بالقول «مع نخبة من الشباب».

(1) د. محمد ناصر، الصحف العربية الجزائرية من 1847 الى 1939، ص: 187، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر 1980م.

(2) عبدالمالك مرتاض: فنون النثر الأدبي في الجزائر، 1931 ــ 1954، ص: 462، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1983م.

لقد كان (ابن العابد) المعلم والصحفي والسياسي والأديب المفكّر في كل ذلك وطنيا مخلصا تعلق بحب بلاده وأمته «فجاد لهما بكل ما يملك من علم وأدب وخلق طيلة حياته»[1].

وحين تتكامل آثار (ابن العابد) تبرز الرجل كاتبا فنّانا، أديبا ملهما الناجح مع تلاميذه، السياسي الغاضب الذي قد يراوغ ولكنه لا يهادن، الأديب الذي يوظف أدبه وفنّه وعلمه لتوعية تلاميذه، وتطوير عمله الصحفي، ومقارعة خصمه السياسي حتى بالرمز والسخرية، كما نرى في حديثه عن (زلزال) بقسنطينة حين كان «يتكلم عن خنق الحريات تحت الحكم الاستعماري»[2] حيث بات في مقدور الأرض أن تتنفّس، بينما حُظِر ذلك على (أبي العجائب) الذي أراد له المحتل أن يكون حجرا لا حسّ له ولا شعورا.

☆ ☆ ☆ ☆

(1) محمد الصالح رمضان، ابن العابد الجلالي شخصيته وجانب من تفكيره، الثقافة، عدد: 82.
(2) د. محمد ناصر، الصحف العربية الجزائرية، ص: 188.

– من انتاج ابن العابد:

(1) حوار بين أربع فتيات

ف1: أعـددت مـاذا للمـآل؟
يعنـيك يـاذات الـدلال
لمن اعتنـــوا بحياتنـــا

ف2: أعددت أشرف ما ينال
أعـددت قلبـا خافقـا
يهوى الفضيلة ما يـزال
ولسوف يحمـد قومنـا
في جيلنا عقبـي النـوال

ف1: لله مـا أعـددت يـا من ذكرها في الناس فال
الطفـل نسخـة أمـه يـدو لـديها كالهلال
جودى له ممّا قـبست ووجهيـه الى الكمـال

ف3: البـيث روض بـاسم أمّ البـنين لـه جمال
وهـم عصافير بـه وغدا هـم أسد النّصال
ان قال قوم ذا خيـال قومـي لتحقيـق الخيـال

ف1: من ذا يكابر في الضحى؟
ف3: فلقـد يعدّ مـن المحال.
ف4: ماذا؟ أصبح في الدجـى يبدو أم السحر الحلال؟
يدلي لنا زهر المنى؟
ف2: ماذا عنيت من السؤال؟
ف4: أعنـي حديثا قـد حـلا منكنّ أشهـى ما يقـال
مـا ان سمعت بمثلـه

(1) ف2: كم في البشائر من مثال

ستريــن (سرتــا(*)) جنــة غنّــاء وارفــة الظــلال
تهفـو القلـوب لذكرهـا ولعزّهـا تعنـو الجبـال

ف4: يهنـي البـلاد فتـاتها أضحت تفكّـر في المآل
ولديك من فصحى اللغات مهذّبــا ذات الجلال
بشراك يـا جيـل اقتبـل عهدا كفيـلا بالـوصال

ف3: غذّى من الاسلام طفلك يغتــذى جــمّ الخصال
فلكــم غــدت آدابــه نــورا لمعــتسف الضلال
غلــبت عوائــده على أخلاقـه ولـذا استحـال

ف1: رخـو الفـؤاد مفكّكـا أسنـى رغائبـه انـفصال
يسخو بأشرف ما لديه إذا دعــي الاّ بمال
والدّيـن والفصحـى هما أقـوى روابـط الاتّصال
فخذي بهديهما غـلامك تأمنـي عقبـي الوبـال
ويطير ذكرك مع شعاع الشمس في جوّ (الشمال)

ف2: روح الجنــان يهزني أم سحر ربّات الحجال
مهـلا فـديت نفوسكـن الطيبـات مـن الـزّوال
فالـفضل يرجـع كلـه للأمّهــات وللرّجــال
فهـم الذيـن تحمّلـوا مـا لايطـاق لـه احتمال
مـن أجلنا وسعـوا بنـا . سعيـا حثيثـا للمعـال
جـادوا لتهذيب الفتـاة بكـلّ مـرتخص وغـال

الجميع

: يافخرنــا، يــا عزّنــا دمتم لتقـريب المنـال
فعليكم ــ بعد الا له ــ وصالح العمـل اتكـال
خـذ باقـة حيّـي بها يا عيـد زينة الاحتفـال
من طيّب الغرس الـذي طـابت بـه لهم الفعـال
عــد بالأمــاني انّنــا نرجـو لها حسن اقتبـال

قسنطينة، عيد الأضحى 1357هـ.

(*) (سرتا) اسم من أسماء مدينة (قسنطينة) قديما.

2 ـ نصّ من (آبي العجائب) في التعريض بالاستعمار وما يمارسه من قهر ومصادرة الحريات:

«شعر الناس في قسنطينة بزلزال خفيف بعد زوال 15 أيار، فسأل أبو العجائب عن سببه، فقيل له ناشيء عن تنفّس الأرض من شدّة الحرارة التي في جوفها، وأبو العجائب كما تعلمون من الحيوانات ذات الكبد الرطبة، ومع ذلك فهو محجّر عليه التّنفّس، فكان من الطبيعي أن يهيّج هذا الخبر في نفس أبو العجائب الحسّاس غضبا شديدا، وفي الوقت نفسه رآه فرصة مواتية لتقديم احتجاجه ضدّ هذا التصرف. لماذا يرخص للأرض وهي جماد أن تتنفّس ولا يرخص لي أنا؟ إذن فخير لي أن نقلب حجارة...»

3 ـــ من قصصه

الصائد في الفخ

(الشهاب، ج: 3، م: 11، غرة ربيع الأول 1354هـ ــ 3 جوان 1935م)

في صباح يوم من أيام الربيع نهض... من فراشه مبكرا، وشد منطقة الفشك على خصره، واحتمل بندقيته واستتبع كلبه ثم انسل من كوخه من دون أن تشعر به والدته عائشة واخته الصغيرة حدة، ثم يمّم ناحية من نواحي جبل «أوراس» القريبة من محلّ سكناه، وكان كل همه أن يصيب بعض أفراخ من الحجل أو بعض الأرانب يروح بها الى أمه كي تطبخ له ولأخته منها طعاما شهيا، وكان شابا في مقتبل العمر لم يجاوز الثانية والعشرين من سني حياته، مملؤا فتوة ونشاطا، شجاعا لا يعرف الخوف الى قلبه طريقا، وكان يقدر انه في حصن حصين من سلاحه وقوه بنيته، فسقط من حسابه حراس الغاب الذين أرصدتهم المصلحة لكل من يحمل سلاحا أو ينصب فخّا أو يرعى غنما أو يقطع شجرا، ومن تجرأ على شيء من ذلك فالعقاب ينتظره بالدمار وخراب الديار، كل ذلك حرصا على حياة الشجر والوحش... والحق ان الشجر والوحش هناك تتمتع بكامل الحرية والاستقلال ولو ان تلك الحرية وذلك الاستقلال كانا منتزعين من حرية البشر واستقلالهم، فهناك حرية الى أقصى حدود الحرية، وهناكعبودية الى أقصى حدود العبودية كذلك! فما أسعد الشجر والوحش! وما أشقى الانسان!

لم يكن هذا فقط ما سقط من حسابه، بل سقط من حسابه ما هو أهم، سقط من حسابه تلك الحبائل السحرية، من بنات أوراس، المنبثة في أنحاء الجبل لاصطياد القلوب وسحر العقول.

فكأن «الكاهنة» كانت تغار على بناتها وتخشى أن تمتد اليهن يد الغير بالمسخ والقلب، فزودتهن بهذا الحرز السماوي الخالد، الذي لخصته من كتاب الطبيعة، أو كأنها أفرغت الطبيعة كلها في بوتقة وابرزتها مصغرة فيهن، فالليل، هو ما استرسل من تلك الذوائب على الأطراف، والفجر هو مالاح من تحت تلك الفروع الفاحمة، والورد هو ما تفتحت به الخدود، والاقاح هو ما ابتسمت عنه ثغورهن، والغصن هو ما تثنى به القوام.

وقد يعنيك وأنت تشاهد هذا الابداع أن تبحث في تلك الطوالع عن أثر للمساحيق والتواليت التي تراها تغمر وجوه وابدان بنات.... فلن تستطيع الحصول على شيء من ذلك... انما الطبيعة وحدها تطالعك من وراء الوجوه، وتناجيك أناهبة الله الخالصة، انا مصدر الالهام، انا التي دست ذلك التراب الملون الذي تعبدونه في وجوه... وارتفعت عن ذلك الغش «المعبود» بأرواح الحب النبيلة الى مقام التضحية، وما دعوى الحب الا سخافة إذا لم يسندها برهان التضحية.... التضحية بالروح... وبالروح فقط...

• •
•

ويل أمه!! من ذا يخلصه من شرك هذه الانسية في شكلها الملائكية في روعتها؟

إذا كان قد قدر له الخلاص من حراس الغاب وغطرستهم بطريقة بسيطة اهتدى اليها فلن ينجو أبدا من شرك هذه الانسية الذي أوقعه فيه جهله وغروره. وهب انه يحمل قلبا كقلب خاله «المسعود بن زلماط» وارادة كإرادته فلن يستطيع مغالبة هذا التيار القاهر اللهم إذا كان هناك حادث فوق المنتظر قد ادخرته له العناية الالهية لمثل هذه الساعة.

مشى متمهلا، شأن من يتحسس الصيد، وقد طال به السير وأدركه التعب والملل، ولم يصادف في طريقه شيئا، وكانت الشمس قد ارتفعت عن الأفق، فجلس الى ظل شجرة يستجمع قواه ويستزد راحته، وقد استعان على ذلك بشبابته التي كانت لا تفارقه، وما أن نفخ فيها صوتا أو صوتين حت يحمل الأثر على سمعه صوتا فيه رقة الأنوثة ولطف الطفولة يطارحه صوت شبابته، وما عتم هذا الصو ت ان نفذ الى مكامن الاطمئنان من نفسه فاستفزها، والى السواكن فحركها، فالتفت يمينا وشمالا يبحث عن مصدر الصوت فلم يجد غير قطيع من المعزى مبعثرا هنا وهناك يرعى العشب، فتملكه الذهول، واستولت عليه وحشة كتلك الوحشة التي تثيرها الوحدة، وتبعثها الذكريات العميقة المجهولة. انه لغارق في بحر من التأملات المضطربة وإذا بذلك الصوت نفسه يعود فيناديه، محمود... محمود.. فالتفت وراءه نحو الصو ت وإذا بفتاة رائعة الجمال مقبلة عليه بابتسامة عمت كل اجزاء طلعتها، كابتسامة من ظفرت بضالة عزيزة طال عليها انشادها، فسلمت عليه ورد عليها، وقد ارسل فيها نظرة الفاحص المتعرف، لأنه وجد في حافظته صورة تشبه تماما ان تكون صورة هذه الفتاة. فمتى ارتسمت هذه الصورة في ذهنه؟ وأين؟ ومن تكون هذه الفتاة؟.. وقد أدركت هي هذه الحيرة في ملامحه، فبادرته بقولها:

ــ كأنك لا تعرفني .. أنسيت يا محمود...؟

ــ عفوا.. مثلك لا ينسى.. ولكن ضعف الذاكرة هو الذي أوقعني فيما ترين من الحيرة، فهل تتفضلين بازاحة هذه الحيرة عن خاطري وأني أجد فيك راحتي وسعادتي، بل أجد فيك جزءا متمما لوجودي... عجّلي فدتك نفسي...

ــ أنا فاطمة بنت الهاشمي، الذي كان مرابطا في المركز الفلاني وقد مات والدي منذ سنوات في السجن بتهمة ممالأته لخالك المسعود بن زلماط،

أيام كان الجبل كله من باتنة الى خنشلة الى بسكرة يموج بأحاديث بطولة ابن زلماط، ومع أنه ــ رحمه آلله ــ لم يسفك دم (برىء) و لم يزهق نفسا ظلما، و لم يرزأ أحدا في ماله بغير حق، فقد زعزع الجبل، بل القطر كله، شعبا وحكومة، واقتطع لنفسه من التاريخ نحوا من ست سنوات كان فيها الآمر الناهي في طول الجبل وعرضه. أتذكر إذ جاء يوما الى منزلنا، وجاء بك معه، فجمع اليه أعيان القرية واغنياءها، ولما حضروا خاطبهم بقوله: أتعلمون ان غدا هو عيد الأضحى، وانه يوم كرم آلله فيه الأمة الاسلامية، وجعله مظهرا من مظاهر عنايته بها. فيه تجتمع القلوب وتزول الاحن، ويتجلى فيه السرور بأجلى مظاهره، وتبدو فيه الاشتراكية الحقة في أبهى حللها؟ فقالوا: نعم. ثم قال لهم: كم عدد منازل قريتكم هذه؟ فقالوا له: مئة وأحد عشر منزلا. فقال: اني سأعود غدا الى القرية لمشاركة اخواني في سرورهم، ويجب أن أجد كل منزل يستقل أهله بذبيحتهم ومؤنة يومهم، فتنظروا فيمن كان عاجزا سددوا عجزه، اسمعتم؟

فقالوا كلهم: سمعنا وأطعنا.. ولما رجع في الغد وجد كل شيء على ما يرام. أتذكر هذا؟

ــ نعم..: أذكره.. وأذكر شيئا آخر حضرني الآن بهذه المناسبة
ــ ما هو؟

ــ كنت وإيّاك في ويوم من أيام طفولتنا نلعب بالحجارة، نبني منها بيوتا وبراحات ومآوي للحيوانات، كأننا الأمل يجول في خاطر عاشق، أو أشباح الصور الجميلة تتردد في خيال شاعر. فلم نشعر الا وشقيق أمي المسعود بن زلماط ووالدك عمي الهامشي يقفان علينا ضاحكين مغتبطين بعملنا الصبياني. فقال لي عمي الهامشي: اتحب فاطمة يا محمود؟. فقلت له: أي وآلله.. ثم قال لك: وأنت يا فاطمة اتحبين محمود؟ فقلت له مثل ما قلت له أنا.. فالتفت الي عمي الهامشي وقال لي: هي لك وأنت لها من

الآن.. اتذكرين هذا؟.. ولأمر ما اختارت هذا الجواب المختصر الحازم من بين تلك الأجوبة الكثيرة التي كانت تتزاحم على لسانها في تلك اللحظة السعيدة. فأرسلته هكذا ممزوجا بابتسامة ساحرة: ليكن ما أردت وأراد والدي.. ثم افترقا على أن يتلاقيا صباح الغد في هذا المكان.

وقبل أن يصل محمود الى منزله التقى فجأة مع ثلاثة من حراس الغاب راكبين خيولهم وأسلحتهم على ظهورهم، فقال له الضابط: ألك إذن بحمل بندقيتك هذه والاصطياد بها ومع انه لا إذن لديه يخول له ذلك فقد أجاب من غير تردد: نعم سيدي، فقال الضابط: أرني الاذن، فطلب مقابلته خصيصا، وبعد لحظة افترقا متصافحين، وقد نادى الضابط، رفيقه فاتبعاه وأخذوا طريقا، وأخذ محمود طريقا عكسيا الى منزله بسلامة...

وفي الغد جاءت فاطمة الى الموعد، وبدل أن تجد محمودا وجدت شقيقته حدة ترعى قطيعها، فسألتها: أين محمود؟

ــ لقد أصبح مضعضعا أثر ليلة قضاها البارحة مسهدا.. ومع ذلك وقد حاول جهده أن يتحامل على ضعفه ويسوق القطيع. لكن والدتي منعته منعا باتا، وأمرتني أنا أن أسوق القطيع بدلا منه.

ــ هل تمكن مقابلته الآن؟

ــ نعم.. وفي كل وقت.

تركت فاطمة قطيعها عند رفيقتها حدة، وانطلقت تعدو نحو المنزل الذي يسكنه محمود، فوجدته مسندا رأسه الى صدر أمه وهو في حالة تحمل على الاشفاق. وما أن رآها حتى انتعش ورفع رأسه كأن لم يكن به شيء. فسلمت عليهما وردا عليها، فعجبت عائشة لهذا الأمر الذي لم تعرف له سببا، مرض مخطر يكاد يكون مؤيسا تذهب به مقابلة خفيفة كهذه. ان في الأمر لسرا.. ثم تركت المكان وذهبت لتحضر قرى لهذه الضيفة الميمونة الطلعة التي جاءتها بالشفاء لعزيزها.

والواقع انها هيأت لهما فرصة ثمينة لاتمام الأمر الذي بدآه بالأمس. وليس ذلك الأمر غير التفكير في ايجاد طريق يؤديهما الى إحكام العلاقة الزوجية. ولم يكن هذا الطريق صعبا ولا ملتويا بالقدر الذي كان يتصوره محمود، فان الكهل شعبان ـــ عم فاطمة وكافلها ـــ رجل طيب القلب، خصوصا وقد كان صديقا مخلصا لوالد محمود ولخاله، ولم يكن هو له أولاد ذكور يمكن أن يؤثرهم بفاطمة على محمود، فالأمر سهل وبسيط جدا.

في أثناء غيبة عائشة، وعند ما خلا بهما المكان انتهزت فاطمة الفرصة فخاطبت محمودا:

ـــ محمود... أين شجاعتك وشدة مراسك؟

ـــ حقا.. كنت شجاعا شديدا المراس.. ولكن قبل أن أقع في أسرك، أما الآن فقد أصبحت أشعر أن حياتي تتوقف على شيء هو في قبضتك وطوع إرادتك، فانظري كيف تسعدين كائنا مثلك، قد ملكتك الأقدار زمامه، وكل ليله أن يسعد طول حياته بجوارك!!

ـــ لقد قصدت أمي باختصار جوابي لك ان أقرب ذهنك فهم الحقيقة التي يشترك شعورنا بها، فتجلد واطرد عنك الوساوس وسيكون كل شيء وفق مرادك، انما عليك أن تقنع والدتك بضرورة زيارة منزلنا لمقابلة عمي شعبان ووالدتي صفية، سينبني على هذه الزيارة وعلى هذه المقابلة كل شيء لتحقيق رغبتنا المشتركة... وكذلك كان..

وبعد ساعة قضتها بين محمود ووالدته في مناجاة وأنس وتناول ما أحضر لها ودعتهما شاكرة، وتولت وهي تضرب يدا بيد وتقول: ما رأيت كاليوم أعجوبة، الصائد في الفخ(٭).

رشيد

(٭) (الشهاب، ج: 3، م: 11).

المصادر والمراجع

(1) الشهاب: ج: 3، م: 12، في ربيع الأول 1354هـ ــ جوان 1935م.
(2) الثقافة، عدد: 82، السنة: 14 شوال ــ ذو القعدة 1404 ــ يوليو ــ أغسطس، الجزائر، 1984م.
(3) لمحات، عدد: 2 السنة: 1، الجزائر 1968.
(4) أبو العجائب، 24 ماي، الجزائر 1934.
(5) الصحف العربية الجزائرية من 1847 الى 1939، د. محمد ناصر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر 1980.
(6) فنون النثر الأدبي في الجزائر: 1931 ــ 1954، عبد المالك مرتاض، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر 1983م.
(7) روحي لكم، محمد الأخضر عبدالقادر السائحي، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر 1986م.

مالك بن نبي

1322 هـ ـــ 1905م

1393 هـ ـــ 1973م

مالك بني نبي

1322 هـ ــ 1905 م

1393 هـ ــ 1937 م

المفكر الاسلامي الجزائري (مالك بني نبي) من الكتّاب العرب القلائل المتمكّنين الذين عالجوا قضايا الانسان المعاصر، ومظاهر التخلّف والتّطور في المجتمعات الحديثة، كما بحثوا في أوجه الاصلاح التي يمكن أن تحقق النهوض بالبلدان التي تخلّصت من أغلال الاحتلال العسكري.

بدأ مالك بن نبي يندفع في هذا الاتجاه منذ شبابه خاصة في قسنطينة وهو يتابع عن كثب باهتمام الطّلعة الحركة الاصلاحية بقيادة (عبدالحميد بن باديس) فسعى الى التعرّف على رئيس الجمعية وبرامجها، ولم تلبث نفسه حتى امتلأت بشوق وطني لأمة مزدهرة في وطن سعيد، أخذ ذلك منحنى له أشمل حيث صار الهمّ العربي والاسلامي جزءا من حياته، بل اتّسع ذلك ليشمل العالم الثالث كلّه متجاوزا حدود الجنس واللغة والدين. كما برز ذلك في مختلف مواقفه وبعض كتبه مثل كتاب (فكرة الافريقية الآسيوية). وقد تبوأ مكانته العالمية من بين المفكرين عن جدارة واستحقاق كمفكر له انتماؤه الحضاري: عروبة واسلاما.

وقد ناضل في هذا الاطار باستماته حتى وافته المنية في العاصمة الجزائرية سنة 1973 مخلّفا تراثا ثقافيا بمستوى علمي رفيع.

ولد المفكّر العربي الجزائري في أول جانفي 1905 بقسنطينة، وصحب أسرته الى (تبسة) حيث زاول تعليمه الابتدائي، ومنها انتقل

للدراسة الثانوية في قسنطينة حيث بات أقرب من الحركة الاصلاحية بقيادة (ابن باديس) مع اعجابه الخاص بالطيب العقبي، كما أعطاه جوّ هذه المدينة والمدرسة الثانوية الفرنسية فرصة أكبر لتلقي الأفكار والاحتكاك بقضايا السياسة والفكر، وهو ما عبّر عنه في الجزء الأول من مذكّراته (مذكّرات شاهد القرن) ففي السنة الدراسية 1921 ـــ 1922 تجد صورة جانبية من ذلك الصراع مع الاحتلال منعكسة في علاقة ادارة الثانوية ومديرها الفرنسي مع أبناء المواطنين في مواجهة أبناء المحتلين، كما تجد الأصداء السياسية تنتهي الى سمع الطالب (مالك بن نبي) فينفعل بها، ويتفاعل معها وتحفّزه للمعرفة والاستكشاف توقا الى الحرية في وطن مزدهر: «كانت قصة الغازي مصطفى كمال وعصمت اينونوفي ضمائرنا مرادفة للتحرّر والخلاص في الوقت نفسه، كان الميل الى تركيا ينتشر في البلد كله، ولكنه كان منتشرا في الوسط المدرسي على وجه الخصوص أيضا. وقد أخذ المدير (دورنون) يطرد من يعد من (الاتراك الفتيان) من مؤسسته... كان الشرق الحديث والقديم يناديني ويدعوني بألوان عظمته وصنوف بأسه. وكانت ذكرياته المثارة تبكيني أو تسحرني وتشغفني حبّا، ولكنها كانت تشدّني بأيّ حال الى شيء ما.. مخبوء وكامن في نفسي كنت أشرع ـــ أو أكاد ـــ في وعيه. وكانت الدروس نفسها ولاسيّما مع أساتذتنا العرب تنمّي هذه الروح وتحفظها سليمة، وكنّا نجد شيئا ما أكثر لدى الشيخ المولود بن الموهوب وهو أستاذ في المدرسة ومفتي المدينة، فقد حفظ في فكره وروحه تلك الطوية التي وضعها فيه تعليم معلّمه الشيخ عبدالقادر المجاوي ونقلها من بعد الى تلك الأجيال من المدرّسين الذين كنت منهم والذين وجدوا أنفسهم من بعد منخرطين في الحركة الاصلاحية الناشئة في الجزائر حينذاك...

دروس الشيخ موهوب في علم الكلام وسيرة النبي، ودروس الشيخ ابن العابد في الفقه كانت قوّة مذكّرة تردّ فكري الى وسط عادل. زد على ذلك أن الشيخ عبدالحميد كان يستمرّ في تزيين دروسه بتأملاته حول

اتجاهات المجتمع الفاسدة وعيوبه وشطط الادارة. وكانت تأملاته هذه تبعث فينا حماسة منقطعة النظير.

وأذكر على وجه الخصوص في خاتمة المطاف اني اكتشفت في مكتبة النجاح كتابين أعتبرهما أبعد المنابع وأكثرها تعيينا لوجهتي الفكرية، وهما: (الفشل الأخلاقي للسياسة الغربية في الشرق) لأحمد رضا، و (رسالة التوحيد للشيخ محمد عبده التي ترجمها مصطفى عبدالرزاق بالتعاون مع مستشرق فرنسي الى الفرنسية.

أخال أن ذينك الكتابين طبعا جيلي كلّه في المدرسة بطابعهما، وأنا مدين لهما بتحوّل فكريّ منذ تلك الفترة بأية حال»[1].

هذا جزء من صورة عما كان يموج به محيط (مالك بن نبي) الطالب في ثانوية قسنطينة، ليكون البذرة في نفس الفتى الذي استطاع بعد ضروب من الاحباط دامت خمس سنوات أن يلتحق بكلية للهندسة في باريس (1930) يتخرج منها بعد العناء والمكابدة[2] بدرجة مهندس في الكهرباء.

لكن شغلته هندسة الأوطان والنفوس عن مجال الكهرباء، فاعتنق قضايا الانسان المعاصر وهمومه خاصة في الوطن العربي والعالم الاسلامي، فقام برحلات لمعظم أقطار العالم الرئيسية، في الشرق وفي الغرب، كألمانيا والصين و (روسيا) و (أمريكا)، زيادة على البلدان العربية والاسلامية كأندونيسيا و (مصر) التي أستقر فيها ابتداء من سنة 1956 حتى سنة 1963 حين رجع الى الجزائر، فعيّن مديرا للتعليم العالي الذي كان يتجسّد في الجامعة المركزية بالجزائر، ومكث في منصبه بالجامعة المركزية حتى سنة

(1) مذكرات شاهد القرن، مالك بن بني، تـ :مروان القنواتي، ط:1، ص: 102 ــ 107، دار الفكر، بيروت، 1969م.

(2) راجع مذكرات شاهد القرن (الطالب) مالك بن نبي: تـ المؤلف نفسه. ط: 1، ابتداء من صفحة: 9. دار الفكر بيروت، 1970م.

1967 عندما استقال أملا في التفرّغ لقضايا الفكر والثقافة، ليواصل الطريق الذي بدأه في التأليف منذ كان في (مصر) وفي هذه الفترة كان قد أنهى الجزأين من (مذكرات شاهد القرن)[1] وقد انطلق من جديد يكتب ويحاضر متنقلا بين الجزائر وبعض الأقطار العربية والاسلامية، وقد جعل في بيته بالجزائر (ندوة) يقصدها رجال الفكر والثقافة، غير أن خيبة الأمل — فيما — يبدو كانت قاسية عليه، خيبة أمل في أنظمة سياسية عربية واسلامية، لم تستطع التكفل بالمشروع الحضاري في النهوض بأمتها، زيادة على المتاعب الشخصية التي حاصرته في وطنه أو في خارجه، من أنظمة لا تريد أن تسمع للمفكرين، وانما تريد أن تملي عليهم ما يزكّي خططهم ومشاريعهم وسياساتهم الضالة المضلّلة.

مع ذلك صمد الرجل حتّى وفاته في 1973/10/31م بالجزائر مخلفا وراءه تراثا فكريا زاخرا، في قضايا أمته العربية والاسلامية تمثل في عدة مؤلفات تجاوزت عشرين كتابا، يعالج معظمها أهمّ القضايا المعاصرة في عالم الانسان الحديث، في الوطن العربي خاصة ((تأملات في المجتمع العربي)) وفي العالم الاسلامي عامة ((مشكلة الأفكار في العالم الاسلامي)). ومنها ما يتجاوز محيطه العربي والاسلامي ليصير له بعده الدولي عموما، ربّما مثل ذلك كتابان رئيسيان هما ((مشكلة الافريقية الآسيوية في ضوء مؤتمر باندونغ))[2] و ((شروط النهضة))[3]. ومن هذه المؤلفات ما هو جزائري

---

(1) كتبها بالفرنسية، ترجم الجزء الأول مروان القنواتي، أما الجزء الثاني فقد نقله الى العربية المؤلف نفسه. صدر الجزء الأول بدون أضافة ما للعنوان (مذكرات شاهد القرن) أما الجزء الثاني فقد برز فيها عنوان فرعي متميز (الطالب).

(2) الطبعة الأولى: دار الفكر القاهرة، 1357هـ 1957م، الطبعة الثانية: دار الفكر، بيروت، 1391 هـ — 1971م. ولم يذكر هنا المترجم، لكنه ذكر (عبدالصبور شاهين) في طبعة 1985 عن دار الفكر (دمشق) بإشراف (ندوة مالك بن نبي).

(3) ترجمة كامل مسقاوي وعبدالصبور شاهين، دار الفكر، ط : 3، 1969م.

خالص «آفاق جزائرية: للحضارة، للثقافة، للمفهومية»[1]، وفي هذا الكتاب يبقى ظلّ القضايا الافريقية "والآسيوية، مثل القضايا الاسلامية، والعربية. هذه أمثلة قليلة من أعماله الكثيرة، مثل (الظاهرة القرآنية) (البناء الاجتماعي الجديد) (مشكلة الثقافة) (المعركة المفاهيمية في البلدان المستعمرة) و (حديث في البناء الجديد) وهذا الأخير عبارة عن محاضرات نهض بجمعها (عمر كامل مسقاوي) ونشر في بيروت[2].

وقد تولّى ترجمة هذه الأعمال الى العربية غيره، وقد بدأ يتجه في آخر حياته لترجمتها بنفسه كما فعل في الجزء الثاني (الطالب) من (مذكرات شاهد القرن) رغم أنه كان في مقدوره الكتابة مباشرة باللغة العربية مع بعض الجهد، خاصة أنه بدأ التجربة منذ 1960 بكتابه ((الصراع الفكري في البلاد المستعمرة)) وهذا الكتاب كما يصرّح المؤلف نفسه هو ((أوّل محاولة للمؤلف في كتابة اللغة العربية مباشرة، فشأنها شأن كلّ محاولة: انه لا يمكنها أن تكون في صورة مرضية))[3]. لذا بادر المؤلف يومئذ بالاعتذار للقاريء عمّا قد يفتقد من رونق أدبي عند كتاب العربية الجيّدين بالخصوص.

وقد كان كتابه ((المسلم في عالم الاقتصاد))[4] من آخر كتبه، انتهى منه في مارس 1972 وصدر بعد وفاته، وهو يتكوّن من مقدّمة وثلاثة أبواب.

في الباب الأول يعرض لبعض العلاقات الاقتصادية والاختيار الاسلامي بين المناهج، والباب الثاني حاول فيه أعطاء صورة عن توزيع

---

(1) ترجمة الطيب الشريف، مكتبة النهضة الجزائرية، بدون تاريخ، (نزل الكتاب الى المكتبات في الصنف الثاني من الستينات).

(2) منشورات المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، بدون تاريخ.

(3) الصراع الفكري في البلاد المستعمرة، مالك بن نبي، دار الفكر، بدون تاريخ.

(4) دار الشروق، بيروت، 1976.

الامكانيات الاقتصادية في العالم، وحدود التغيير الاقتصادي لهذا التوزيع والأسس الحضارية لذلك. أما الباب الثالث والأخير فقد عنونه بـ«شروط الانطلاق» تتمثل في ستة عناصر هي على النحو التالي:

ــ دور المال في اختزان العمل ــ الاستثمار المالي والاستثمار الاجتماعي ــ تحقيق الديناميكية الاقتصادية على أساس مبدئي ــ الأساس الأخلاقي لعمليتي الانتاج والتوزيع ــ المعادلة البيولوجية والمعادلة الاجتماعية لفرد في التجارب الحديثة ــ ضرورة الاكتفاء الذاتية..

ينطلق المؤلف في كتابه من تفكيره كعربي ومسلم ومفكر من العالم الثالث بعيدا عن أي أقليمية ضيقة فتعبيره «بلادنا» يعني العالم العربي والاسلامي معا. وقد رأى أن المسلم أضحى تابعا ومقلدا للأفكار التي صاغت تجارب غير تجارية، وخبرات أجنبية عنه، فأمسى العنصر الوطني المثقف مشلولا، فهو في موقف اختيار وتفضيل «بين آدم سميث وماركس» بينما كانت القضية ولا زالت قضية تطعيم ثقافي للمجتمع الاسلامي يمكنه من استعمال امكانياته الذهنية والجسمية، وبصورة عامة تجعل كل فرد فيه ينشط على أساس معادلة اجتماعية تؤهله لا نجاح أي مخطط اقتصادي، (ص 9) فإذا صار الاقتصاد في الغرب «ركيزة أساسية للحياة الاجتماعية وقانونا جوهريا لتنظيمها» فانه في الشرق ظل على عكس ذلك حتى ان نظرية ابن خلدون التي تناولت العوامل الاقتصادية في التاريخ «قد ظلت حروفا ميتة في الثقافة الاسلامية حتى نهاية القرن الأخير» (ص 16) لاحجام مجتمعنا عن وضع نظرية «كما حدث في المجتمع الغربي حين وضع الرأسمالية والشيوعية» وقد بقي المجتمع الشرقي متشبثا بالزهد كمثل أعلى منذ قرون، فأهملت النظرية وانفصل المبدأ عن العمل في حين كان الواجب يقتضي ترابطهما، فكثرت حاجات المسلم وقلت وسائله، وبقي يرتجف خوفا من الجوع، وقد غذى الاستعمار فيه هذا الخوف ونماه ليخدمه. ويعطي المؤلف أهمية للمبدأ الاقتصادي وتلاؤمه مع الظروف الاجتماعية، فاشتراكية وسائل

الانتاج مثلا «لا ترجع الى أي مبدأ مذهبي بل الى ضرورة تحددها ظروف خاصة بالوسط وبامكانياته المالية» (ص 33). ورغم أمله الكبير في جهود العالم الاسلامي الحالية فإنه يلح على ضرورة النظرة الواقعية والموضوعية في احتياجات المجتمع المسلم، ويبقى على أصحاب الاختصاص تحمل مسؤولياتهم في النهوض بمجتمعاتهم، ولو تدبر هؤلاء الاختصاصيون قوله تعالى: ﴿**ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم**﴾ لأدركوا ان الآية تنصب على ارادة الانسان واتجاهه عندما يدرك معنى جديدا لوجوده في الكون، ولو تدبروا بعض الدراسات المتعمقة في البحث عن جذور الاقتصاد لوصلوا الى ان الاقتصاد «ليس قضية انشاء وتشييد مصانع فحسب، بل هو قبل ذلك تشييد الانسان وانشاء سلوكه الجديد أمام كل المشكلات» (ص 70). وذلك يرجع لارتباط عالم الاقتصاد بالقيم الحضارية، فلا يمكن للمرء أن يتصور خطة تقتنع بالأرقام ان لم يكن انجازها أخذ في الاعتبار قيمة الانسان في رتبة القيمة الاقتصادية الأولى بشرط أن تكون ارادته شرارة مقتبسة «من ارادة حضارية» والقضية بعد ذلك بالنسبة للعالم الاسلامي «ليس قضية امكان مالي ولكنها قضية تعبئة الطاقات الاجتماعية، أي الانسان والتراب والوقت، في مشروع تحركها ارادة حضارية لا تحجم أمام الصعوبات» (ص 85). وتتمثل شروط الديناميكا الاقتصادية في صورتين مسلمتين اثنتين: (1) ـــ لقمة العيش حق لكل فم. (2) ـــ العمل واجب على كل ساعد. الأولى يفرضها الاختيار لمبدأ معين يلتزمه المجتمع، والثانية ضرورة تفرضها المسلمة الأولى «كشرط لاستمرار التفاعل بين الانتاج والاستهلاك» (96). ورغم التجارب الكثيرة فان المجتمع الاسلامي «أجدر من يحقق له وللانسانية التجربة التي تعيد الى عالم الاقتصاد اخلاقياته ويتلافى بذلك الانحرافات الاباحية التي تورطت فيها الرأسمالية كما ينجو من ورطة الماركسية المادية التي سلبت الانسان ما يميزه عن الالآت والأشياء» (ص 101) ويرى المؤلف أن أولى من يقوم بهذه التجربة هي: الجزائر وليبيا ومصر وسوريا، وقد لاحظ المؤلف في هذا الباب الأخير الترابط بين

القيم الاقتصادية والاخلاقية، وكذلك العلاقة بين الحق والواجب، والانتاج والاستهلاك، وكل وطن كفيل بحل مشكلاته أو بعضها على الأقل داخل حدوده. وعلى الأمة الاسلامية وفي مقدمتها الأمة العربية أن تعيد النظر في اقتصادها تجنبا للتبعية وللخطأ الذي قد يضطرنا تصحيحه للرجوع الى الوراء بعد أن يكون الآخرون قد قطعوا أشواطا أخرى، فحاجة البلاد العربية شديدة لاعادة النظر في حياتها الاقتصادية لتحقيق حلقة اقتصادية كاملة داخل حدودها طبقا لفكرة العيش للجميع والعمل على كل فرد. وفي استطاعة العالم العربي أن يعيد للتراب وظيفته وبوسائله حتى في الميدان الفني إذا قرر استعادة العقول العربية المغتربة لأسباب مختلفة. ويعطي المؤلف مثالا على شروط التكامل داخل المجتمع العربي بليبيا ومصر والكويت «ان ليبيا على سبيل المثال لها متّسع من التراب، ومصر لديها فائض من العدة البشرية، كما للكويت فائض من المال المعطّل، لو اجتمعت هذه العوامل الثلاثة في خطة تجريبية لاردك العالم العربي كلّه شروط الاقلاع والاكتفاء الذاتي هي تحت يده عندما يريد النهوض الاقتصادي بتعميم التجربة الثلاثية التي أشرنا إليها، حتّى تصير هذه التجربة لبنة عربية في أساس الحضارة الاسلامية الجديدة» (ص 125)، فالعالم العربي يتمتع بامكانات هائلة يعوزها التآز والاستغلال والتفاهم وحسن الاستثمار.

فهل يمضي الضالون بعد هذا وغيره في التيه، وفي (التدلوح) بين غرب، وشرق، لكل منهما اختياراته وظروفه؟

هذا هو السؤال الذي بقي مطروحا منذ النصف الثاني من السبعينات.

* * *

نصوص من مؤلفات (مالك بن نبي)

1 ــ لم تكن أفكاري قد اتّسقت بعد مع وضعي الجديد منذ نزلت في صبيعة من شهر سبتمبر 1930 بمحطة ليون بباريس، الشيء الوحيد الذي قرّرته هو أنني لا أعود هذه المرة الى الوراء مثلما عدت المرة الأخيرة بعد النكسة التي أصابتني مع رفيقي قاواو في صيف 1925( ).

تذكّرت زميل الدراسة ذاك الذي كان هو الآخر قد استولى عليه حلم الآفاق البعيدة مثلي والذي يضطجع الآن في مقبرة سوق أهراس بعد أن عاد من باريس في 1923م بمرض صدري فتذكّرت أنه سكن أثناء اقامته الباريسية بحي كورسيل قرب تلك الحديقة الجميلة التي أعطت اسمها للحي... تذكرت أنه كان يكاتبني من هذه الناحية فتعمّدت التوجّه اليها... وصرت أنتقل من فندق استنفذ تأجير غرفه الى الآخر بحثا عن غرفة، والقدر يسوقني حتى وجدت بعيدا عن كورسيل في المنطقة العاشرة من باريس غرفة مناسبة في فندق متواضع قرب باب السان دونيس في شارع صغير تؤمّه بنات السؤ المترقبات للزبون المتوقع في كل ذي بنطلون من المارة، فينادونه( ).

هل تأتي يا عزيزي؟

ولا ريب أنني كنت في نظرهن ببدلتي الخارجة عن الذوق المألوف بلونها المشرق أحد نزلاء الأرجنتين أو البرازيل، أعني المشحون بالدولارات، فكانت دعوتهن تقرع أذني كلما خرجت من الفندق أو عدت اليه.

( ) ورد خطأ في النص العربي سنة 1935 (أي الضبعة العربية).

( ) هكذا في الأصل، بدل ينادينه.

هكذا استقبلتني باريس بوجه بناتها الطائشات الكاسيات العاريات العارضات لزينتهن وعرضهن دون أيّ شعور بالاثم.

ولكن لباريس وجوه أخرى لا يكتشفها المرء عند نزوله... ولقد ألقت بي خطواتي.. قرب معهد الدراسات الشرقية فاغتنمت الفرصة لتسجيل اسمي للامتحان المزمع اجراؤه في منتصف أكتوبر أو في أوائل نوفمبر... لقد بدأت بحياتي اليومية فرتبتها في انتظار يوم امتحان الدخول الى معهد الدراسات الشرقية بحيث أتناول وجبة الغداء قرب محطة كادية للقطار الجوفي في مطعم صغير مع زبائنه العمال الذين يأتي كل رهط منهم في لباس مهنته حسب عادة القوم ليتناولوا قطعة لحم على الطريقة الانجليزية (بفتك) يضيف اليها الذوق الفرنسي بعض بطاطس مقلية مع زجاجة نبيذ.

بدأت هكذا في الوسط العمالي ملاحظاتي عن الحياة الفرنسية الشيء الذي لم يتح لي أثناء اقامتي الخاطفة في صيف 1925...

ها أن يوم امتحان الدخول لمعهد الدراسات الشرقية قد أتى، وكنت في هذه الفترة قد حوّلت مسكني من الفندق الأول الى آخر أقرب منه، الى باب سان دونيس في شارع القمر حيث توجد مدرسة اللاّ سلكي قريبا من مسكني الجديد.. ولم أكن أشعر أن الأقدار كانت تنسج خيط حياتي...

ونودى علينا، ولم تبد لي أية صعوبة في الاختبارات، ولكن النتيجة كانت خيبة أمل: لم أنجح... بل لقد طلبني مدير المعهد وفي هدوء مكتبه الوقور شرع يشعرني بعدم الجدوى في الاصرار على الدخول لمعهده فكان الموقف يجلي لنظري بكل وضوح هذه الحقيقة: ان الدخول لمعهد الدراسات الشرقية لا يخضع بالنسبة لمسلم جزائري لمقياس علمي وانما لمقياس سياسي.

ونزلت كلمات المدير على طموحي نزول سكين المقصلة على عنق المعدوم، فكان هذا الفصل الأول من خيبة الأمل وعدم جدوى العمل

وحدي، وفي ذلك اليوم لم يتحطم فقط أملي بل شعرت أن حلم والدتي ووالدي تحطّم أيضا على صخرة الارادة المقررة في خفاء الدوائر التي تسهر على المصالح الاستعمارية العلية. لقد أدركت في تلك اللحظة نفسها ما سيتبع عبارات المدير من نتائج عملية دون أن أحلّلها، إذ لم أكن بعد قد اكتسبت خبرة هذا التحليل الذي يريني اليوم بكل وضوح درجة القرابة بين هذه العبارات وما قاله لي قبل سنة مدير شؤون الطرق بمدينة تبسة عندما سألته عن شروط المساهمة في المزايدة التي تجري كل سنة تحت إشرافه لتصليح الطرق، أو لفتح طرقات جديدة في الناحية، وقد اهتممت حينئذ باستغلال وسيلة نقل كانت لديّ أستطيع بها نقل موادّ الطرق من أحجار وغيرها.

ولكن عوض أن يدلي الي بالمعلومات المطلوبة أدلى اليّ سيادته بنصيحة:

ـ ألا تبيع ما عندك من وسائل نقل الى مسيو كانبون أو مسيو سبيتري؟ فان المزايدة بين أيديهما.

واليوم بعد أربعين سنة أرى بكل وضوح أن الرجلين المدير المتواضع لشؤون الطرق بتسبة والمدير المحترم لمعهد الدراسات الشرقية انما كانا يتكلمان لغة واحدة ـ لغة الاستعمار، فهذا حرمني من أن أصبح مقاولا في مصلحة الطرق، وذاك حرمني من فتح مكتب محاماة بتبسة بعد سنوات الدراسة بباريس.

ولم أكن أشعر أن الأقدار كانت تحيك أمرها بطريقتها، ولا أتذكر اليوم كم مرّ عليّ حينذاك من وقت عشته وأنا لا أعلم كيف أوجّه خطواتي، وذلك قبل أن يزورني صديقي الفنّان، وإذا برونيه يزورني فقصّ عليّ ملاحمه الغرامية كعادته وقصصت عليه قصّتي... كنا متكئين على حرف نافذة الغرفة المطلة على شارع القمر إذا بفوج من طلبة مدرسة اللاسكلي يخرج، وإذا برونيه يقول لي بعد لحظات تيه:

ـــ لماذا يا صديقي لا تغيّر اتجاهك وتنتسب الى هذه المدرسة؟ لم يكن ذلك ليخطر ببالي، ولكنني أدركت أهمية الاشارة:

ـــ أتصحبني يا رونيه الى مكتب المدرسة نسأل عن شروط الانتساب؟

وانطلقت يحركني ايمان الوارد على دين جديد فكانت هذه الفترة الدراسية بالنسبة لي بحيث لم تهيّئني فقط لدخول مدرسة اللا سلكي، بل غيرت جذريا اتجاهي الفكري... أسكنت في نفسي شيطان العلوم.

(مذكرات شاهد القرن ـــ الطالب)
ص: 10، 11؛ 12، ثم 27 ـــ 31.

* * * * * *

2 ــ من (فكرة الافريقية ــ الآسيوية)

«لقد أدّى مؤتمر باندونغ أجل أعماله حين جمع العناصر الموزعة الصالحة لأن تنسجم في كل. أي في تجربة قد تقلب حياة الشعوب الأفروسيوية. ولكن مواجهة المشكلات لا تعني حلها، كما أن جمع «كومة» من المواد دون تأليفها في هيكل عضوي لا يكون منها آليا هذا الحل، فان كومة من الأشياء لا تنشيء بالضرورة «كلا» متجانسا. والعناصر المجتمعة في باندونغ لا يمكن أن تنتج تأليفا لو لم توجد الظروف المؤثرة، أي العامل الذي يخلق ظاهرة التاريخ. فبين الضرورة المنطقية والامكان التاريخي يوجد مجال لسؤال سابق يجب أن نجيب عنه أولا.

ان امكان الحل سيكون في الواقع بعيد الحصول إذا ما تقيدنا بحقائق الجنس، أو اللغة، من طنجة الى جاكرتا، ففي هذه الحالة تصبح الفكرة الأفرسيوية ضربا من محاولة المحال، ولن تكون سوى نوع من الترف العقلي فيما لو وجب أن تقوم على أساس عنصري لغوي:

ان اللغة والجنس ليست عناصر عديمة الأهمية في الواقع الانساني، ولكنها بعيدة عن ان تمثل الشروط الحتمية لجعل هذا الواقع في مستوى حضارة.

وفضلا عن ذلك فان التاريخ لا يتحدد ضرورة باللغة أو بالجنس. فان الحضارة الغربية التي اتخذناها مقياسا في هذا الميدان، ليست ثمرة لغة أو جنس، بل اننا نجد حتى في حدود المستوى القومي شذوذا عن القاعدة حين نلاحظ الوضع في سويسرا مثلا، حيث لا يربط بين العناصر التي تكونها، لا الجنس ولا اللغة، وإذن فان امكان الحل موجود مع احتلاف

اللغات أو الأجناس وهو يقوى مع المستوى الذي ندرس فيه القضية. فإذا كانت وحدة اللغة أو الجنس ضرورية لتكوين أمة، فان هذا الشرط ليس محتوما لتكوين حضارة تولد وتنمو وتكتمل في ظل تنوع اللغات والأجناس.

فكلمة «الغرب» التي تعتبر في هذا الصدد أساسا للمقارنة. لا تعني وحده عنصرية أو لغوية، وانما تعني مركبا ثقافيا معينا، فمن واشنطن الى موسكو. وحتى الى طوكيو، أي خلال هذا التنوع الهائل في اللغات والأجناس، نجد أنفسنا أمام مركب ثقافي يضع طابعه الخاص على مصير الانسان، وعلى المنظر الذي يحوطه. فإذا ألقينا نظرة على هذا المنظر ونظرة أخرى على الخريطة، فسنرى اطرادا مكانيا وثقافيا معينا يمثل مركبا هو «الحضارة»، فامكان الحضارة يتحدد إذن بجغرافية المكان، وبنوع الثقافة، فلكي نرفع الكتلة العربية الآسيوية من مستوى التلفيق والاصطناع السياسي الى مستوى مفهوم الحضارة، يجب أن نأخذ في اعتبارنا عاملين هامين: الرجل والمنظر الذي يشمله، أي حامل الثقافة واطاره الذي يحيط به.

والفكرة الأفروسيوية هي المركب النفسي الزمني الذي ينتج عن هذا التحول من اطار لفظة سياسية بسيطة الى فكرة أساسية قادرة على تحريك الواقع التاريخي، حين تشكل الانسان، والاطار المحيط به.

وبهذا يمكننا أن نواجه المشكلة في شكلها المزدوج: نواجهها من الداخل حين ننظر الى الفكرة الأفرسيوية بالنسبة لعناصرها الداخلية، فهي ضرورة لكي تتاح للرجل الأفروسيوي فرص غنية للنمو، وهي أيضا ممكنة بقدر ما يكون هذا الرجل قادرا على خلق ثقافته كيما يحل مشاكله العضوية.

ويمكننا أن نواجهها من الخارج بالنسبة لحقائق الوضع العالمي، فبالنسبة للأهداف الانسانية في مجموعها تعتبر الأفرسيوية ضرورة القرن لكي تتيح للسلام بعض الفرص حين تلقي في الميزان بمواردها الروحية. وان فكرة (عدم العنف) لضرورية لحل مأساة القرن العشرين، وهذه الضرورة المنطقية تخلق امكانا طبيعيا حين توجّه نشاط الشعوب في طريق السّلم، وحين تؤثّر في توجيه الأمم المتحدة.

(فكرة الافريقية الآسيوية)

ص: 24، 125، 126

3 ـــ «...عندما نتاول فصلا من الصراع الفكري تعترضنا حالات تدلّ فعلا على أن قوة الاستعمار في الوسائل يتخللها أحيانا ضعف في التفكير يجب أن نعيره أيضا بعض الاهتمام كما نهتم بالعناصر التي تدلّ على قوته.

فعلى سبيل المثال ليتصور القارىء، أنه دعي يوما ليحاضر وأنه اختار احدى مشكلات البلاد الافريقية الأسيوية كموضوع لمحاضراته.

فمن المعلوم على ضوء ما قدمنا أن موضوعا كهذا جدير بأن يثير اهتمام مراصد الاستعمار فوق أي موضوع آخر لأنه يتصل بالمشكلات التي تناولها، مباشرة أو ضمنيا مؤتمر باندونج، أي بالمشكلات التي تكّون أهم نشاط سياسي في منتصف القرن العشرين وأهم مركز للتفكير الاجتماعي في عصرنا.

وعليه فنكون من البسطاء أن لم نقدر مبدئيا أن المراصد المختصة ستكون، بصورة أو بأخرى. على أهبة للقيام بمهمتها وهذا من بديهيات الصراع الفكري في البلاد المتخلفة. ثم نجد فعلا في صحافة اليوم الذي يلي المحاضرة تعليقا طويلا على موضوعها، دون أن يذكر اسم المحاضر مرة واحدة، أو يذكر انه تعليق على محاضرة معينة، وانما يقوم صاحب هذا التعليق بدور تمثيلي، شاهدنا أدوارا مثله في الطريق. خلال التجربة الطويلة فنراه يفور غضبا على موضوع المحاضرة، فيستخف صاحبها الذي يتناول موضوعا سخيفا كهذا الخ.. ثم يتنازل ويعطف على هذا الغبي فيتبرع عليه بالحقيقة التي لم يهتد اليها في محاضرته غير الموفقة، فهذا دور كامل بجميع تفاصيله من الأدوار التي يخصص لها الاستعمار بعض الممثلين.

فلو كانت ليد الاستعمار رائحة لاكتشفنا بأنوفنا بعض الحقائق الخاصة بالصراع الفكري دون أي اجهاد لعقولنا ولاكتشفنا مثلا أن الظروف التي أحاطت بمحاضرة كهذه كانت كلها تعبق بهذه الرائحة منذ توجيه الدعوة الى المحاضر، الى ظهور التعليق الصحافي الغريب على المحاضرة نفسها...

وليس في هذا كله أية غرابة... انه الصراع الفكري في البلاد المستعمرة...

ومهما يكن من أمر. فان غرضنا في هذا الفصل الوصول بقدر الامكان. الى بعض الحقائق التي لم نصل اليها في الفصول السابقة(*)

(*) الصراع الفكري في البلاد المستعمرة ص: 74، 95.

المصادر والمراجع

(1) فكرة الافريقية الآسيوية في ضوء مؤتمر باندونع، مالك بن نبي، دار الفكر، ط: 2، بيروت، 1971. ط: 3، 1981.

(2) شروط النهضة، مالك بن نبي، ترجمة عمر كامل مسقاوي ــ عبدالصبور شاهين، دار الفكر، ط: 3 سنة 1969.

(3) الصراع الفكري في البلاد المستعمرة، مالك بن نبي، دار الكفر، 1979.

(4) آفاق جزائرية، مالك بن نبي، ترجمة الطيب الشريف، مكتبة النهضة الجزائرية، الجزائرية، الجزائر، بدون تاريخ.

(5) مذكرات شاهد القرن، مالك بن بني، ترجمة: مروان القنواتي، دار الفكر، ض: 1، بيروت، 1969م.

(6) مذكرات شاهد القرن (الطالب) مالك بن نبي، ترجمة المؤلف، دار الفكر، ط: 1، بيروت، 1970.

(7) حديث في البناء الجديد، مالك بن نبي (جمع وترجمة عمر كامل مسقاوي) المكتبة العصرية، صيدا بيروت، بدون تاريخ.

(8) شخصيات جزائرية، د. عمر بن قينة، مطبعة البعث، ط: 1، الجزائر، 1403هـ ــ 1983م.

(9) مجلة (الثقافة) عدد: 18، الجزائر، ديسمبر ــ جانفي 1973م.

* * *

مولود فرعون: الأديب المناضل

1913 ـ 1962

مولود فرعون: الأديب المناضل

1913 ــ 1962

الأديب المناضل بفكره وقلمه (مولود فرعون) واحد من أبناء الجزائر الوطنيين الذين حلموا بالثورة ابان الاحتلال الفرنسي للجزائر، ثم رأوها واقعا يتفجر كالبركان فيطيح بالاستعمار البغيض بعد سبع سنوات ونصف من الكفا ح الضاري، خرج هذا الأديب من أعماق الفئة الجزائرية المحرومة في عهد الاحتلال وشق طريقه الشائك في الحياة بنضال مستميت حتى اعتالته في 15 مارس من سنة 1962م عناصر مجرمة من المنظمة الفرنسية الفاشية (أويس O.A.S) تنفيسا عن حقدها على الجزائريين لما بذلوا من تضحيات أجبرت الحكام الفرنسيين على الجلوس الى المفاوضات التي أفضت الى تحديد الخطوات لاستقلال الجزائر الوشيك مما صعب احتماله على غلاة الاستعمار في الجزائر، فجّن جنونهم وأطلقوا العنان لحقدهم من أجل المزيد من سفك الدماء قبل حلول 5 جويلية 1962م موعد اعلان الاستقلال، فكان (مولود فرعون) واحدا من ضحاياها الذين يعدون بالألوف مما أضيف لرصيد الثورة من دماء وتضحيات ثمنا للحرية والاستقلال فمن هو (مولود فرعون)؟

هو واحد ــ كما قلت من تلك الفئة الفقيرة في وطننا التي شقت طريقها بعناد على درب الحياة، فصارعت فقرها وواقعها المتخلف وبصرها مشدود الى الأمام تمسكا بقيم وسعيا لمثل، تعمل وتتعلم متجاوزة واقعها البائس حتى حققت ذاتها عاملة متفانية، ارتبط لديها العلم بالعمل كضرورة تراها سبيلا لكل رقي حضاري، فتعطي العمل بخساء من عرقها وتوثق صلتها بالكتاب سبيلا الى النور والتطور على مختلف المستويات، حتى أن (مولود فرعون)

سقط شهيدا وفي يده كتاب كما قيل، فكان القارىء الطلعة والكاتب المبدع من الذين تركوا للمكتبة الجزائرية كتابات مختلفة ثرية بكل أبعادها الحضارية والتاريخية والاجتماعية مما ليس هنا مجال الحديث عنه.

فقد ولد (مولود فرعون) في قرية (تيزي هيبل) بولاية (تيزي وزو) يوم 18 مارس 1913م من عائلة فقيرة اضطر فقرها أباه الى الهجرة مرات عديدة بحثا عن العمل، لكن هذا الفقر لم يصرف الطفل ولا أسرته عن تعليمه، فالتحق بالمدرسة الابتدائية في قرية (تاوريرت موسى) المجاورة، فكان يقطع مسافة طويلة يوميا بين منزله ومدرسته سعيا على قدميه في ظروف صعبة غالبا ما تنمي الارادة في الفرد وتشحنه بروح التحدي. فتحدى (مولود فرعون) ظروفه القاسية والمصاعب المختلفة بمثابرته واجتهاده وصراعه مع واقعه القاتم الرازخ تحت نير الاستعمار الفرنسي، وبهذا الصراع: استطاع التغلب على كل المثبطات وحاز السّبق بعرقه وكده ونضاله الخاص مما أهله للظفر بمنحة دراسية للثانوي بتيزي وزو أولا وفي مدرسة المعلمين ببوزريعة في الجزائر (العاصمة) بعد ذلك. وما أكبر هذه الخطوة في تلك الظروف المسيجة بالاسلاك الشائكة الحافلة بالحفر والمطبات في كل المنعطفات والممرات التي تجاوزها (مولود فرعون) بارادة صلبة وطموح يتجاوز الأمل العاجز الى الفعل الدؤوب حتى استطاع أن يتخرج من مدرسة المعلمين برغم وضعه البائس، واندفع للعمل بعد تخرجه، فاشتغل في التعليم حيث عاد الى قريته (تيزي هيبل) التي عين فيها مدرسا سنة 1935م في الوقت الذي بدأ يتسع فيه عالمه الفكري وأخذت القضايا الوطنية تشغل اهتمامه مما سنرى فكرة عنه بعد حين عند القائنا نظرة على آثاره الأدبية والفكرية.

وكما أعطى من علمه لاطفال قريته أعطى مثيلا له في القرية التي احتضنته تلميذا قرب مسقط رأسه بأقل من ثلاثة كيلو مترات، وهي قرية (تاوريرت موسى) التي التحق بها معلما سنة 1946م في المدرسة نفسها التي استقبلته تلميذا، وعين بعد ذلك سنة 1952م في اطار العمل الاداري

التربوي (بالاربعا ناث ايراثن) أما في سنة 1957م فقد التحق بالجزائر (العاصمة) مديرا لمدرسة (نادور NADOR) في المدنية (حاليا) كما عين في 1960م مفتشا لمراكز اجتماعية كان قد أسسها أحد الفرنسيين في 1955م وهي الوظيفة الأخيرة التي اشتغل فيها قبل أن يسقط برصاص الغدر والحقد الاستعماري في 15 مارس 1962م حيث كان في مقر عمله، مهموما بقضايا العمل وبواقع وطنه خاصة في المدن الكبرى في تلك الفترة الانتقالية حين أصبحت عصابة (أويس O.A.S) الفرنسية تمارس جرائم الاختطاف والقتل ليلا ونهارا، تزهق الأرواح في الشوارع وفي المؤسسات، فاقتحمت مجموعة منها على (مولود فرعون) وبعض زملائه مقر عملهم للغدر بهم، فيسقط (مولود فرعون) برصاص العصابة ويكون واحدا من ضحاياها الذين يعدون بالألوف، فتفقد الجزائر فيه مناضلا، مات وترك سبعة من الأبناء وأعمالا أدبية وفكرية مختلفة (باللغة الفرنسية) ذات أبعاد مختلفة تعبر عما كان يشغله سواء من هموم ذاتية أو من واقع وطني عام في وضع استعماري استحال فيه التلاؤم بين حضارتين: غربية استعمارية غازية ومغربية شرقية لها مميزاتها المتميزة ببعديها الحضاريين: عروبة واسلاما.

وقد اختلفت أعمال (مولود فرعون) بين الرواية والتأليف الخاص واليوميات والمقالات المختلفة، وكان أول عمل له هو روايته (ابن الفقير Le fils du pauvre) التي نشرت في مطلع الخمسينات[1] أما آخر أعماله فهو (اليومات) التي كان يسجل فيها مشاعره تجاه أحداث اليوم الوطنية والعالمية وأعطاها اسم (الصحيفة Le Journal) وهي صحيفة تبدأ من اليوم الأول في شهر نوفمبر 1955 وتنتهي باليوم السابق لاغتياله.

وإذا كان من العسير جدا هنا الحديث عن كل ذلك فإننا سنكتفي بالاشارة الى أعماله حسب الموضوعات، تأتي في مقدمة هذه الأعمال

---

(1) آخر طبعة لهذه الرواية (بالفرنسية) صدرت عن المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر 1986.

(الرويات) لأن (مولود فرعون) روائي قبل كل شيء، لكننا قبل الاشارة — بايجاز شديد طبعا — الى رواياته نذكر كتابين له في مجال التأليف الخاص، واحد بعنوان: (أيام قبائلية Jours de Kabylie) عن بعض العادات والتقاليد، وآخر عن شاعر شعبي من المنطقة يدعى (محند آيت حمادوك) ولد في 1845م وتوفي سنة 1906م روى شعر هذا الشاعر الشعبي شفهيا كما كان بعضه مدونا بالعربية، وهو ينتمي الى أسرة دينية طرقية لقيت الأذى من الاحتلال الفرنسي الذي أعدم أباه، فمضى هو هائما على وجهه ساخطا على الواقع الاستعماري معتبرا نفسه غريبا في وطنه الذي تغير الى أسوأ بفعل الاحتلال، فتحدث (فرعون) عن حياته ونقل الى الفرنسية بعضا من شعره. فكان الكتاب بعنوان: (أشعار سي محند Les poèmes de Si Mohand).

لكن مكانة (مولود فرعون) الأدبية ترجع أساسا الى رواياته، فرغم أن أعماله الروائية لم تتجاوز أربع روايات فقد أبدع فيها كما تجلت فيها شخصيته الفكرية مثلما تجلت فيها جوانب كثيرة من حياته الشخصية. وهو في جميع الحالات: يبقى مرتبطا بالواقع، فالواقع مادته الخام وشغله الأول وشاغله في جميع الحالات، الواقع بكل أبعاده الاجتماعية والاقتصادية والثقافية والسياسية أولا وأخيرا، لأن تلك الجوانب انما هي انعكاس لوضع سياسي. فكانت أولى تلك الروايات كما سبقت الاشارة رواية (ابن الفقير Le fils du pauvre) التي أصدرت في مطلع الخمسينات رغم أنه — كما قيل كتبها في شهر أفريل 1939م حين كان مدرسا في قرية (تيزي هيبل) وهناك روايته (الذكرى L'anniverssaire) و (الدروب الوعرة Les chemins qui montent) اللتين تشتركان في بعض الملامح: أجواء وشخصيات، لكن الادانة للاستعمار تبقى قاسما مشتركا، وهو الاستعمار الذي استخدم كل الوسائل الممكنة لمسخ الشخصية الوطنية، ونشر المسيحية والعادات الغربية، حتى صار الشبان يقلدون الفرنسيين في كل شيء، لكن الكاتب يقول في (الدروب الوعرة): ان هؤلاء الشبان إذا «لاحظوا مثلا أنهم رغم كل ما

وبالاضافة الى أعمال (فرعون) السابقة: هناك لون آخر من كتاباته يتمثل في (المقالات) و (الرسائل) ذات الطابع الشخصي، فقد كتب (مولود فرعون) في ذلك وفي ذهنه دائما وطنه، فيكتب في (المجلة الفرنسية Revue française) سنة 1957م عن المعاناة في وطن مستعمر، يعاني شعبه الجهل والمرض في حين يعيش (السيد المحتل) مديرا له ظهره حتى جاءت الثورة التي خلقت مناخا جديدا. وفي ذلك يبقي (مولود فرعون) على ضرورة الارتباط بالأرض والانتماء اليها الى درجة جعلته يدعو الأوروبي المولود في الجزائر الى أن يعلن أنه جزائري قبل كل شيء، وهذا يعني رفض الخرافة التي تحاول أن تجعل من الجزائري العربي المسلم فرنسيا مسيحيا. وربما حسنت الاشارة هنا الى كتاب آخر لمولود فرعون وهو (رسائل الى أصدقائه Lettrers à ses amis) ومن هؤلاء الأصدقاء الكاتب الفرنسي المولود في الجزائر (ألبير كامو Albert Cammus) الذي كتب روايته (الطاعون La Peste) متخذا من (وهران) مسرحا للأحداث معتبرا الجزائر بلدا للفرنسيين و (وهران) مدينتهم لذلك، فيكتب اليه (فرعون) معربا عن أسفه لما لقيه العرب من إهمال في رواية الطاعون مبديا ملاحظاته عن قصور (كامو) في الادراك، وعدم قدرة على فهم المواطن الجزائري العربي المسلم، وهو ما يؤكد التباين بين شخصية الرجل المحتل والرجل المواطن صاحب الأرض، يقول (مولود فرعون) في رسالته لكامو: «لا يكفي أن يولد شخصان في نفس البلد وتحت سماء واحدة ليكونا قادرين على فهم أشياء متماثلة وأن يتملكا نفس الشعور ويريا الشيء الواحد من نفس الزاوية، فكيف هو الحال بالنسبة لشخصين ينتميان الى طبقتين مختلفتين: طبقة الأسياد وطبقة المضطهدين والمغلوبين، طبقة المستعمرين وطبقة المستعمرين، وهناك حقيقة أخرى كذلك هي أن أحدهما ينتمي الى الغرب والآخر ينتمي الى الشرق»[1].

---

(1) تطور الأدب القصصي الجزائري، عايدة أديب بامية، عن ترجمة: د. صقر، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر.

وهنا يعبر (مولود فرعون) عن رؤية نافذة في عدم التلاؤم بين حضارة الغرب الغازية وحضارة الشرق انتماء المغلوبة على أمرها، فالجزائر في النهاية بانتمائها الحضاري عربيا واسلاميا لا يحسن التعبير عنها غير الجزائري. بذا نجد (فرعون) موقفا واضحا من (كامو) حول هذا الموضوع مما عجز عنه البعض ممن يصنفون أنفسهم في سلك المفكرين حتى في سبعينات هذا القرن وثمانيناته.

أما في آخر أعماله ذات البداية السابقة وهو (اليومات) التي كانت بعنوان (اليوميةLe Journal) فان (مولود فرعون) يسجل كل الأحداث البارزة التي تثير مشاعره على المستوى الشخصي وعلى المستوى الوطني والعالمي، وتبقى الثورة الجزائرية والتطلع الى الانعتاق شاغله في كثير من أفكاره ومشاعره: بطابعها السياسي والثقافي والاجتماعي، فتراه يتحدث عن هبوط طيارين مصريين في أحد السهول الجزائرية كي يسلّموا المجاهدين الجزائريين سلاحا مرسلا اليهم، مثلما يتحدث عن الاعتداء الثلاثي الذي تعرضت له (مصر) من (اسرائيل) و (فرنسا) و (بريطانيا) في 1956م ردا على تأميم القناة من جانب (مصر) فيسجل (مولود فرعون) ألمه الشديد لذلك في 31 أكتوبر 1956م وينقل احساس مواطنيه حوله الذين كسا الألم ملامحهم تأثرا لمصر وسخطا على المعتدين. كما يسجل ظروف الاستعداد لاحياء ذكرى الثورة، مثلما يعلن في موقف آخر تأييده لقرارات جبهة التحرير فيما تدعو اليه من مظاهرات ومن اضراب وغيره. فبدا في هذه (اليوميات) التي توقفت في اليوم السابق لاغتياله (1962/3/14) الرضى عن النضال وهو ما كان يسعده، حتى صار غير مهم بعد ذلك موته أو حياته لأنه من «شعب عظيم قوي، وسيبقى كذلك» كما يقول، قويا عظيما بوحدته في وجه الاستعمار وأعوانه وكلابه، وبنضاله من أجل حياة سعيدة لكل مواطن في كل موقع.

ومهما يكن من شيء قد لا تكون هذه الوقفة كافية لاعطاء صورة واضحة عن (مولود فرعون) لكنها تحية له ولكل أولئك الذين أعطوا لشعبهم ولوطنهم والانسانية من راحتهم وعرقهم وأعصابهم الشيء الكثير الخالد الباقي في المسار الحضاري، من هنا يأتي التقدير وتصبح التحية واجبا مهما اختلفنا في السبل أو الجزئيات.

نصوص لمولود فرعون

1 — من (ابن الفقير):

أذكر دخولي الي المدرسة كما لو أنه تم يوم أمس. عاد أبي ذات صباح من الجماعة وقد علت محياه مسحة خفيفة من الغموض والتأثر. كنت في ساحتنا المطينة بزبل البقر، قرب كانون فوقه وعاء لبن. كانت أمي قد عادت توا الى المنزل، وكانت على وشك أن تأخذ قبضة من الملح وحفنة من الكسكسي لتعد لي فطور الصباح. على أنه ينبغي أن أوضح اني لم أكن أحظى بمثل ذلك الفطور الا في ظروف استثنائية. كان ينبغي لذلك تضافر عوامل عديدة: أولها أن يكون لدينا كسكسي، ثم لبن ثم تحيّن الوقت، وخاصة انتظار غياب أختي الصغيرة لأنها ستطلب، لو كانت حاضرة، نصيبها من النعمة الطارئة. وهو ما قد يضطر أمي الى أن تزيد في الحصة المشتركة وأن تحرك شهيتنا دون أن تشبعها تماما. واذن ففي ذلك الصباح اجتمعت كافة تلك العوامل، كنت متصدرا أمام وعاء الكسكسي بمفردي وعيناي يثقلهما النعاس إلا أن عصافير بطني مستيقظة تماما.

يا للأسف! لابد أنه مقدّر اني سأتعلم منذ سن مبكرة أن بعض الأمور تقطع الشهية. وفعلا فعندما تكلم أبي طارت عني شهية الأكل كما طار عني النعاس في آن. لم يكن يوجد مثل أمي لترويع الناس.

قال لأمي: اسرعي، اسرعي، اغسليه كله، يديه ووجهه ورجليه اتعتقدين أن الشيخ سيقبل مثل هذا القرد.

قالت أمي: ان قندورته أيضا وسخة. لعله ينبغي أن ننتظر يوم الغد. هكذا أغسلها مع برنسه.

ـــ وتقدّرون ان كنت فتحت أذني أم لا لهذا المقترح.

قال أبي: غدا تكون جميع الأماكن محجوزة. ثم يحسن أن لا يبدأ الدراسة بالتغيب. يقولون انهم صعاب، «الروامي» وليس لنا ولد سواه على انه ليس ينبغي لنا الوصول متأخرين اليوم، هيا بسرعة.

ونظفوني بسرعة، ثم بعد خمس دقائق كنت وما أزال مذهولا، حللت بفناء المدرسة الفسيح. وهي تعج بالتلاميذ عجا... على مسافة مائة فرسخ من فطوري. أختي الصغرى تيتي وحدها هي التي احتفلت في أسرتنا بأن منحت نفسها وعاء الكسكسي باللبن وحمدت مثل ذلك اليوم، وخطته من بين أيام السعد. صدق من قال: مصائب قوم...

أن أول يوم لي في قاعة الدرس وأول أسبوع بل وحتى أول سنة، قد تركت في ذهني انطباعات قليلة جدا. وعبثا افتش بين ذكرياتي، فلا أعثر على شيء واضح. كان لنا معلمان، كلاهما من بلاد القبائل: أحدهما سمين، قصير منتفخ الأوداج، ذو عينين صغيرتين ضاحكتين لا توحيان بأي رهبة. أما الآخر فنحيف شاحب اللون، مائل قليلا الى الصمت، بانفه الطويل وشفتيه الغليظتين، ولكنه كان في دماثة ولطف. كان الأصغر وكان يشتغل بتدريس الفصل الثاني. كانا يلبسان بدلتين فرنسيتين تحت برنس رفيع ناصع البياض. فقد بدا لي ذلك اللباس مدة طويلة في منتهى الذوق والاناقة والترف. أما المعلمان ذاتهما، فما انفكّا يمثلان بالنسبة اليّ والى يوم الناس هذا، دون أن أملك لذلك ردا، الصورة المزدوجة التي اتمثل من خلالها على حد سواء المعلم أصيل البلد والمدير ومساعده.

يحرجني كثيرا أن أقول انّي كنت تلميذا نجيبا أو خاملا. وان كنت تألمت كثيرا أو قليلا: على الأقل لم أكن أحس بنفور من أني تلميذ. كان رفيقي عقلي الذي ظلّ حامي قد سبقني بالنسبة إلى هذا الوضع الجديد. كان فخورا بأقدميته، وعرض على أمي ان يفيدني من تجربته. كان كل صباح يناديني

وينتظرني اما الباب، وكنا نهبط معا بسرعة حتى المدرسة. وكان يعود بي على الساعة الحادية عشرة، ووجهه يتهلل زهوا وحق له ان يفعل لأنه زهو مشروع في محله، زهو يعكس شعور من قام بالواجب. وأحيانا كان يشاركني غدائي وكثيرا ما كانت تقدم اليه حفنة من التين تعود أن لا يرفضها شعورا منه بأنه كسبها بعمله. والحقيقة اني أصبحت بفضله مهابا لدى معظم اترابنا من الصغار، وكانوا يخشون بطشه، حراما لا ينبغي مسّه باي أذى. أما الكبار فكانوا يدعوننا وشأننا لأنه كان لنا من بينهم أخ له وكان في السنة الأولى(•). وان أنا ذكرت لك اني كنت جبانا رعديدا ووديعا بالطبع لا استدرج الى النزاع أحدا، وأن حينا كان يضم حوالي خمسة عشرة تلميذا كثير منهم كبار وأن روح «الصف(••)». مستحكمة في قلوبنا بقدر ما كانت مستحكمة لدى الكهول فهمت آنذاك لماذا أعدم مدافعين عني، ولماذا لم يصادف الابن الوحيد الذي كنت جميع المضايقات التي تنتظر الأطفال المدللين عادة في قاعة الدرس.

عن (نجل الفقير) تـ. محمد عجينة. دار سراس للنشر — Le Seuil سلسلة (عودة النص) باريس — تونس 1982م

* * *

(•) هي السنة النهائية لأن العد عكسي (المعرّب).

(••) (كذا بالعربية في الأصل الفرنسي) ومعناها التعصب لأسرة أو حيّ الخ.... (المعرّب).

2 — من (الدروب الوعرة):

كان أصحابي من ايغيل نزمان أو من غيرها من القرى يعتزون بي في فرنسا لأنني لا أنافق ولا أستحي من واقع حالي، غير أننا صرنا نتعاطى جميع الموبقات من أفطار في رمضان وشرب للخمر وأكل للحم الخنزير. لقد تحررنا من جميع القيود ما عدا حقد الفرنسيين علينا، غير أننا لم نكن نكترث لذلك الحقد الا كما يكترث الانسان لقطرات المطر عندما تنزلق فوق معطفه الواقي.

وها أنا ذا قد عدت الى البلاد لأجد فيها قوما لا يرحبون بي. وعلى كل حال. استطيع هنا أن آخذ حريتي كما أشاء وما من أحد يتجاسر ليقول لي: «عد الى بلادك يا بيكو»[1].

انهم لا يرحبون بي لسبب بسيط وهو أنني لا أعبأ بتقاليديهم وعاداتهم وطقوسهم التي يريدون أن أخضع لها. وفي جميع القرى، سواء هنا في ايغيل نزمان أو في تاجموت أو في تاوريرت، في جميع هذه القرى أو غيرها، يوجد شبان مثلي لا يقيمون لها حسابا لأنهم ذاقوا الأمرين في فرنسا. وعندما رجعوا منها استفاقوا من غفلتهم وفهموا الأمور على حقيقتها. وليس هذا بالأمر السهل. وكم أتمنى لو أن أحد الفرنسيين من سكان باريس يجيء الى قريتنا. فلا شك أنه سيدرك الأمور على حقيقتها في الحين لأن هذه الأشياء لا يمكن أن تخفى على أحد وخاصة على من تربى في أحضان باريس. ولأنه سيقارن بين حالتين وسينظر إليهما بعيون ليست عليها غشاوة. أما من أمضى شبابه في هذه البلاد ولم يخرج منها الا بضع سنين فكيف تريد منه أن يفهم الأمور على حقيقتها؟ وحينما أنظر الى هؤلاء القوم أتساءل: ألست فرنسيا من جهة الأم؟ وهل يمكن لي بين عشية وضحاها أن أنسى

---

(1) بيكو: كلمة احتقار بالفرنسية: (المترجم).

3 ـــ من اليومية (Journal): القمع في تيزي هيبل:

31 جويلية 1957م:

ها أنا في الجزائر (العاصمة) مع عائلتي في طرف المدينة الكبيرة، في حي مسلم مكتظ جدا، حيث يجاور البؤس الرخاء، والأكواخ القصديرية المغاني الجميلة للبورجوازية، تركت بلدا تعيسا حيث لم يبق الا شيوخ ونساء وأطفال.

منذ العملية الفدائية بالقنبلة في (فورناسيونال)[1] أجبر القبائل على التخلي عن البرنوس، يأتون صباحا في طواف مضحك محرجين كأن ذلك لضياع البرنوس الذي يفقدهم رجولة وخاصية الانسان، أف، يستعوذون، وحين يقبل الشتاء فمن الممكن أنهم سيشترون ان استطاعوا معاطف أو مشمعات، ماذا عساهم يفعلون أن لزمهم الأمر؟ أما في الوقت الراهن فان الضرب والشتائم والاهانات لم تعد تصيب معنوياتهم. فليس هناك الا الموت كي يصيبهم حقا، فالقتل هو الشر، هو الوحيد الذي يمكن من الآن فصاعدا أن يجعل كل واحد منهم ينتظره.

علمت قبل الذهاب انه كان هناك عندنا في تيزي هيبل اشتباك كبير، فقد تحارب المجاهدون والجنود الفرنسيون اليوم كله في الحقول، فوجد مواطنونا الذين كان متفرغين لفلاحتهم فيها أنفسهم مضطرين للفرار نحو تيزي وزو أو الجزائر (العاصمة).

(اليومية، ص: 239، دار لوساي le Seuil، باريس، 1962م

---

(1) هو الأسم الفرنسي لمدينة الأربعاء بني راثن (ناثيراثن) قرب (تيزي وزو).

المصادر والمراجع الأساسية

(1) نجل الفقير، مولود فرعون، تـ: محمد عجينة،، دار سارس ـــ للنشر، باريس، 1982م.

(2) الدروب الوعرة، مولود فرعونس، تـ: حنفي بن عيسى، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1976م.

(3) تطوّر الأدب القصصي الجزائري، عايدة أديب بامية، عن ترجمة د. صقر، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر.

(4) مجلة (الثقافة العربية) عمر بن قينة، عدد: 10؛ سنة 1980 ليبيا.

(5) Journal, ed. du Seuil. Paris, 1962.

أحمد سحنون

(1907 — ......)

أحمد سحنون

(1907 — .....)

في فترة بدأ يتحول فيها الشعب الجزائري نحو يقظة سياسية وفكرية ولد الشيخ أحمد سحنون في العشرية الأولى من القرن العشرين (1906) من والد متعلّم كان أول من بدأ يتلقى عنه، لكن يبدو أن جهده الشخصي هو الذي لعب دورا مهمّا في تثقيفه بروح عصامية وجدت ما يشجعها على ذلك في المناخ الذي أوجدته بشكل خاص (جمعية العلماء المسلمين الجزائريين) حيث كان من الطبيعي أن تتوثق صلة (سحنون) بالحركة ورجالها، من بينهم الشيخ (محمد خير الدين) الذي كان من معلميه، فكان تعليمه عربيا اسلاميا بجهده ومثابرته، جعله ذلك واحدا من رجال الثقافة العربية الاسلامية، حيث أسهم بفكره وقلمه في الحياة الدينية والثقافية والأدبية، فنشط بقلمه في الصحافة الوطنية خاصّة منها «الشهاب» و «البصائر» حيث عرف شاعرا من ذلك الجيل الذي عاش ارهاصات الثورة التحريرية 1954، وعمل لها وشارك فيها. واستمرّ معه هوى الشعر وهو في الثمانين من العمر، وهو شعر ذو طابع وطني وديني وذاتي أيضا واجتماعي كذلك، كافح الشيخ (أحمد سحنون) ضمن حركة جمعية العلماء في المجال الديني والثقافي، ثم السياسي الأمر الذي جعله يحلّ ضيفا على السجون في عهد الاحتلال الفرنسي نحو ثلاث سنوات خلال 1956 — 1959 فلم يفت ذلك من ارادته، ولم يقعده عن العمل، وهي طبيعة المثقف خاصة الأديب الذي يعاني من أجل المبادىء الكبرى، ويستلذّ المحنة من أجل فرح الآخرين، كما تهون عليه التضحية في سبيل ما يراه حقّا لصالح وطنه وأمته، وهذه واحدة من مصادر متاعبه حتى بعد الاستقلال حيث عرف من جديد

حياة السجون لآرائه في الدعوة لنظام اسلامي تنهض عليه حياة الأمة في مختلف الأوجه: سياسيا واقتصاديا واجتماعيا وفكريا. واستمّر في هذا النهج في مختلف الظروف، وقد انتهى في عهد الاصلاحات السياسية خاصة بعد أحداث 6 أكتوبر 1988 الى رعاية لقاء بني في منزله، انبثقت عنه لجنة أعداد لرابطة اسلامية هي (رابطة الدعوة الاسلامية) التي تضمّ علماء ودعاة، جعلت لها أهدافا مستمدة من جوهر العقيدة الاسلامية للنهوض بالمجتمع الجزائري العربي المسلم، من بين هذه الأهداف:

ــ الحفاظ على وحدة الأمة ومقوّماتها؟

ــ الاهتمام بقضايا الأمة والسعي لحلّها.

ــ تذكير الشعب المسلم برسالته وتعميق اقتناعه بكون الحلّ الاسلامي فريضة شرعية وضرورة حضارية،

ــ كشف مخططات التآمر على الأمة ودينها والتّصدّي لحملات التّغريب والتنصير والأفكار العلمانية[1].

الى آخر ما هنالك من أهداف حرصت (الرابطة) على أن تعمل من أجلها، وهو الجوّ ذاته الذي استمرّ الشيخ سحنون ينشط ضمنه بدروسه المسجدية وخطبه ومواعظه، أملا في نهوض أمة متماسكة متكاتفة تحكمها قيم الاسلام ومثله.

أما آثار الشيخ أحمد سحنون فانّ أهمها حتى الآن ــ المطبوع على الأقل ــ عملان اثنان:

ــ الأول ــ ديوانه الشعري[2]، الذي صدر في الجزائر، ضمن سلسلة (شعراء الجزائر).

ــ الثاني ــ كتابه (دراسات وتوجيهات اسلامية)[3].

---

(1) أنظر جريدة المساء، عدد: 1068، الصادر في 27 رجب 1409هـ 5 مارس 1989.
(2) صدر عن الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1977م.
(3) الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1981م.

وهو ما كان يفعله بمقالاته في (البصائر) السلسلة الثانية، وعظا ورشادا.

وقد عرف (أحمد سحنون) شاعرا قبل كل شيء منذ كان ينشر انتاجه في الصحف، خاصة (الشهاب) و (البصائر) وهو الشعر الذي جمع معظمه في ديوانه، وقد عبّر عن مرحلته رغم ما هنالك من عدم الرضى عنه من الشاعر نفسه، كما سجّل ذلك في مقدمة الديوان، لكنه يؤكد في نفس المقدمة انه شعر قيل في ظروف معيّنة «له أهميته ومنزلته في فترة حاسمة سبقت فترتنا الحاضرة هذه، وكان فيها حقّا حاديا في قافلة حركتنا الفكرية الاصلاحية التي سبقت الثورة ومهّدت لها، فكانت أساسا لها، ومن ثمّ فالذي يؤرخ لثورتنا التحريرية لا يسعه الا أن يؤرخ لهذه الفترة الحاسمة التي تكوّن في أحشائها جنين الثورة».

* * *

نصوص من شعر (أحمد سحنون)

1 ـ البصائر، 1952م:

المغرب العربي

للمغرب العربي صولة ضار ووثوب مقداه على الأخطار
بالحبّ سوف يعيد سالف مجده وبالاتحاد يفوز بالأوطار
كذب الذين نعوه بل هو لم يزل غاب الأسود وموطن الثوار
ياويح الاستعمار كيف تقوّضت آماله كافيكل انهار
ياويح أعداء العروبة من هم من فاتك الأنياب والأظفار
قد هبّ كالتيار حطّم سدّه من ذا يعارض غضبة التيار
ابن العروبة لم يعد يرضى سوى عز الحياة ورفعة المقدار
قل لابن الاستعمار خلّ بلاده العرب لا يرضون باستعمار
الذئب لا يرعى قطيعا ولم يكن يوما مجيرا للهزبر الضاري
من دينه الاسلام يأبى أو يرى أبناءه في ذلّة وصغار
من حرّر العاني وفكّ قيوده أيعيش في الدنيا رهين أسار؟
من فارس والروم فتح جدوده في داره يمسي غريب الدار؟
من (خالد) من منجبيه و (طارق) يخشى تنقص عائب أوزار؟
ان نام فهو اليوم يهجر نومه لا خير في نوم بغير قرار
واليوم يقتحم الصعاب مجاهدا ويخوض للعلياء كل غمار
ويرى اتّحاد الرّأي خير وسيلة ويرى الجهاد وظيفة الأحرار
ليعيد دولته وحكم جدوده ويعود ذا نفع وذا أضرار
ويردّ دنيا الفاتحين كعهدها في غابر الأزمان والأعصار
ويردّ جيش الغاصبين عن الحمى هو أصل كل أذى، وكلّ بوار

يا بن الغزاة الفاتين ونسل من   رفعوا منار العدل في الأمصار

الكون في فوضى تفاقم شرّها   انقذه فهو على شفير هار

قد ضلّ مسلكه وتاه دليله   وبه استبدت نقمة الأقدار

الكون في فوضى تفاقم شرّها   انقذه فهو على شفير هار

قد ضلّ مسلكه وتاه دليله   وبه استبدت نقمة الأقدار

وبلاؤه من كلّ حكم جائر   وشروره من سلطة الأشرار

أنقذه بالاسلام فهو شفاؤه   ان الظلام يزاح بالأنوار

طهّره بالتوحيد من أوضاره   الشرك مبعث هذه الأوضار

وأقمه بالأخلاق فهي سناده   سوء الخلال أصابه بعثار

وأرفع لواء الضاد واهتف باسمها   وانشر هدى الاسلام في الأقطار

وطلوع فجر المسلمين سيغتدى   في كل أفق ساطع الأنوار

* * * * * *

2 ـ جزء من قصيدته (الجزائر تشكو الشهاب، أكتوبر 1937م

يا أمة جمعتها عقيدة لايدن

واخوة قد تلاقوا على هدى الأوطان

وأنفسا ظامئات للعلم والعرفان

تحية من فؤاد في حبكم متفاني

ان الجزائر تشكو لكم بدون لسان

تشكو لكم ما نلاقي من ذلة وهوان

تشكو أغتصاب حقوق تشكو ضياع أمان

فلتنجدوها لتحمى كسائر البلدان

بأن تردوا اليها ما ضاع منذ زمان

وان تربّوا بنيها فهم مناط الأماني

وتطلبوا كل حق لها بكل لسان

وتنصروا كل ساع وتزجروا كل وان

وان تمدّوا الأيادي بالخير والاحسان

وأن تكونوا جميعا في الخطب كالبنيان

....

لو اتّحدنا لنلنا حقوقنا من زمان

لكن بلينا بخلف أفضى الى الخذلان

فاستيقظوا واستعدّوا يا معشر الشبان

فخدمة الشعب فرض على بني الانسان

☼☼ ☼☼

3 ــ حرفة الأدب «أو عيش الأديب» البصائر، أكتوبر 1936م

اني لأرحم اخواني ذوى الأدب فكم يعانون من ضيق ومن وصب
لكلّ قوم نصيب في الحياة وما نصيبهم أبدا فيها سوى النّصب
أيّ امريء شاعر لم ينفطر ألما وأيّ ذى أدب في الناس لم يصب
كأن ذنب الفتى آدابه وعلى قدر العقول تصاب النّاس بالنّوب
أو انما القدر المسطور جاء بأن لا يجمع العقل والأثرا مكتسب
فالمرء ان كان ذا عقل ومعرفة يفوته حظّه في الجاه والنشب
وان يكن منهما قد نال قسمته يفوته حظّه في العقل والأدب
ما حيلة المرء في الدنيا أليس له في القبر راحته من هذه الكرب

٭٭ ٭٭

4 ــ بين الفن والخلق

اننا نؤمن بالفنّ الذي يتخذ وسيلة لتقويم الأخلاق وتهذيب الطباع وتوجيه السلوك، ونثور على الفنّ الذي يتخذ ذريعة لتحطيم كيان الأمة الأخلاقي وتقويض بنائها الروحي وتخدير شعورها الديني ولذا فلا يعتب علينا اخواننا (الذين لهم ارتباط بهذا الفنّ الانتفاعي المادي الذي تتلخص رسالته في تهيئة الأجواء الملائمة لانطلاق الغرائز والأهواء من قيودها) لا يعتب علينا اخواننا هؤلاء إذا رأونا نضيق بهذا النوع من الفنّ الذي يضحي بالأخلاق ولا يعترف بالشرف ولا يقيم للانسانية أيّ وزن أو أيّ حساب.

اننا اليوم نحتاج الى أخلاق لا الى فن «وانما الأمم الأخلاق» لا الفنّ، وغيرتنا يجب أن تكون على الأخلاق قبل أن تكون على الفنّ لأن الغيرة يجب أن تنبع من منبعها الأصلي لكل شعب ونحن شعب ندين بالاسلام ورسالة الاسلام حصرها نبي الاسلام في قوله: «انما بعثت لأتمّم مكارم الأخلاق»، وإذا احتجنا الى فنّ، فيجب أن يكون في الطور الكامل لنموّنا وبلوغنا قمة الكمال والأمة أطوار. فالفنّ رقة لا قوة والأمة اليوم تحتاج الى قوة لا رقة والى رجولة لا الى تخنث، ومعنى ذلك أننا نحتاج الى أخلاق أكثر من احتياجنا الى فنّ ولو كان هذا الفن الذي نشاهده في مسارحنا مما يشد من أزرنا ويقوي من كياننا ويهذب من أخلاقنا لاحتجنا الى السكوت عنه أكثر من احتياجنا الى الكلام فيه ولكن ــ ويا للأسف ــ رأينا فنّا يفسد الأخلاق ويثير شهوات الغرائز، ولا يمكن لفن يولد في حضن الاستعمار ويتربى في بيئة الاباحية والتحرر من قيود الدين والاخلاق أن يكون غير ذلك، ولكن اخواننا يغفلون عن هذه الحقيقة فلا يفرقون بين مسرح يشرف عليه الاستعمار أو ينشئه أو يتربى في حضنه، وبين مسرح

تكوّنه الأمة لنفسها وتشرف عليه الفئة الصالحة من أبنائها، بين فنّ لا يوجه الا الى جسد المرأة ولا يوقظ في النفس الاّ الاحساس بهذا الجسد. وبين فنّ يجعل هدفه خدمة الشعب من ناحية أخلاقه ــ لا من ناحية أهوائه ــ فيقدم له الروايات الأخلاقية التي ترمي الى تقوية جانبه الأخلاقي والروايات التاريخية التي تصوّر له كيف كان أسلافه الكرام مثالا أعلى للتضحية والمفاداة والصبر والثبات وشرف الضمير والاعتداد بالنفس والثقة في آلله والايمان بعدله فيستفيد أمرين: الفن في حسن العرض والأداء والخلق في تصوير السلوك الانساني الأقوم متمثلا في أشخاص يتحركون ويغدون أمامه ويروحون وفي تصوير ثمرة هذا السلوك وتشخيص عاقبة أهله وهي نصر آلله لهم والتمكين لهم في أرضه.

ولكن كل شيء يوجد في مسارحنا غير هذا النوع من الفنّ الذي ينشىء الأجيال الصالحة، ويوجه الشبيبة المضطربة في سلوكها ثم يريد منا دعاة هذا الفنّ ورعاة هذا (الجهاز) أن نسكت عنهم، بل يودّون أن نشكرهم عليه ونعينهم بدعوة الناس اليه، يالله! كم يحب هؤلاء الناس أن يؤيدهم الناس في الحق وفي الباطل، والاّ فمتى شكر الناس من يغشهم؟ وكيف يشكر المسلم من يغشه ونبيه ﷺ يقول من غشنّا فليس منّا؟

ان هذا ــ وايم الحق ــ منكر يجب على كل مسلم تغييره بكل ما في وسعه من جوه تغيير المنكر، ولو كنّا نملك تغييره باليد لغيرناه منذ رأيناه، ولكن ان لم نملك اليوم تغيير المنكر بأيدينا فإننا نقاومه ما استطعنا بألسنتنا وأقلامنا ــ رضي من رضي وكره من كره ــ لأننا ــ والحمد آلله ــ ما زلنا نؤمن بهذا الدّين. ونعرف قوله ﷺ: من رأى منكم منكرا فليغيره بيديه، فان لم يستطع فبلسانه، فان لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الايمان، ونؤمن ــ إلى ذاك ــ بأن في الناس من اتخذ الهه هواه، فلابد أن يصطدم المصلحون بهذا النوع، ولكن آلله وليّ المتقين.

مصادر ومراجع

(1) ديوان أحمد سحنون سلسلة (شعراء الجزائر) الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1977م.

(2) دراسات وتوجيهات اسلامية، أحمد سحنون، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر 1981م.

(3) البصائر، 30 رجب 1355هـ ـــ 16 أكتوبر 1936م.

(4) البصائر، 1952م.

(5) الشعر الجزائري، صالح خرفي، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، بدون تاريخ.

(6) نماذج من الشعر الجزائري المعاصر (شعر ما قبل الاستقلال) مجلة (آمال) بدون تاريخ.

(8) روحي لكم، محمد الأخضر عبدالقادر السّائحي، المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر،

(9) [illegible]م. 1956.

(10) الشهاب، أكتوبر، 1937.

محمد المنصوري الغسيري

(1912 ــ 1974م)

محمد المنصوري الغسيري

(1912 ـ 1974م)

الشيخ محمد المنصوري الغسيري من الرعيل الذي جاهد في صفوف جمعية العلماء المسلمين الجزائريين الى جانب أستاذه (عبدالحميد بن باديس) وزملائه ممّن سبقت الاشارة الى بعضهم أمثال (محمد الصالح رمضان) و (حمزة بوكوشة) و (أحمد رضا حوحو) كما تابع هذا الجهاد ابان الثورة المسلحة، وأحسن تمثيل بلاده بعد الاستقلال سفيرا لها.

ولد الشيخ (محمد الغسيري) في الشرق الجزائري بولاية (باتنة) في قرية (غسيرة) قرب الأوراس عرين الثوار الأوائل، وذلك سنة 9192، تلقى مبادىء العربية الأولى في قريته وفي «مدرسة الأخاء» بمدينة (بسكرة) ثم في قسنطينة بالجامع الأخضر ابتداء من سنة 1932 على يد الامام الشيخ (عبدالحميد بن باديس).

وعيّن بعد ذلك معلّما مع الشيخ (محمد الصالح رمضان) في مدرسة التربية والتعليم بقسنطينة التابعة لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين ثم مديرا لمدرسة (الارشاد) بسكيكدة، حيث استمات من موقعه هذا سنة 1947 يحاضر ويكتب مقالاته اضافة الى توليه قيادة في الكشافة الجزائرية تماما مثل صديقه وزميله (محمد الصالح رمضان).

بعد اندلاع الثورة التحريرية كان الشيخ (الغسيري) من بين العلماء المثقفين الذين اعتمدت عليهم الثورة، فمثل الثورة من خلال (جبهة التحرير الوطني) خاصة في العاصمة السورية (دمشق) وبعد الاستقلال تابع هذه المهمة سفيرا لوطنه في بعض الأقطار العربية، مثل العربية السعودية،

والكويت. فأحسن تمثيل بلاده بأخلاقه العالية، واخلاصه ووفائه، وسلوكه الرفيع، فكان في هذا مثل قلّة قليلة من الديبلوماسيين الجزائريين الشرفاء الذين صمدوا في وجه الانحرافات السياسية، ولم يسايروا التفتح الذي كانت تشيعه (غلمان) الخارجية الجزائرية الذين ألقت بهم الصدف والأحلاف السياسية لأهمّ المناصب ليسيئوا إلى الوطن في الداخل وفي الخارج.

كان (الشيخ الغسيري) العربي الجزائري الأصيل الوفي لانتمائه الحضاري العربي الاسلامي، الوفي لمبادئه الوطنية وحتى لأبسط أصدقائه القدماء في جمعية العلماء أو بين المواطنين البسطاء حتى وفاته(١) سنة 1974م.

لقد برز اتجاه (محمد الغسيري) الوطني منذ كان طالبا لدى (عبدالحميد بن باديس) في قسنطينة، وبدأ يتعمق وهو معلم، وقائد كشفي من قادة (الكشافة الجزائرية) ثم وهو كاتب في الصحافة، حتى موضوعاته العامة التي كان يكتبها برز طابعها الوطني القومي واضحا، بما في ذلك أيضا محاضراته الفكرية.

ففي محاضرته عن (البحرية الافريقية العربية) التي ألقاها في (قسنطينة)(٭) يبرز بوضوح ذلك **التشوّف** بروح عالية الى وحدة عربية

---

(1) في حديث مع الأستاذ (محمد الصالح رمضان) يوم 22 نوفمبر 1989 ذكر لي أن الغسيري كلما حلّ بالوطن في عطلته السنوية وهو سفير يمرّ به، ويدعوه لزيارة الأصدقاء القدماء والزملاء في انحاء الوطن، وعادة يكون ذلك بواسطة السيارة التي تكون تحت تصرفه بسائقها كسائر السفراء، ولا يفرق في ذلك بين مواطن بسيط وغيره، وقد أكد لي أن سمة الوفاء واحدة من خصال الغسيري الرجل الطيب المثقف المتواضع.

(٭٭) ألقاها في احدى ليالي رمضان بقسنطينة، في (نادي عبدالحميد بن باديس) ونشرتها البصائر في حلقتين، الحلقة الأولى في العدد: 3 سلسلة: 2، 21 رمضان 1366هـ ــ8 أوت 1947م. والحلقة الثانية في العدد: 20 سلسلة 2، 7 ربيع الأول 1367هـ ــ 19 جانفي 1948م. يبقى سرّ تأخر الحلقة الثانية في الصدور مجهولا.

اسلامية، تضمن عزة وسؤددا بقدر ما يوفّر التناحر والمصالح الشخصية للحكام الفرصة للأعداء للانقضاض على الأمة.

من هذه الرؤية مضى الغسيري يعالج موضوع البحرية منذ عرفها العرب، وما ضمنوا من انتصارات بوحدتهم وتآزرهم وما لحقهم من هزائم وانكسارات بفعل الصراع الداخلي بينهم.

بهذه الروح الوطنية والقومية أيضا انجز الشيخ (محمد المنصوري الغسيري) الحديث عن رحلته في الشرق العربي ضمن سلسلة من المقالات في جريدة (البصائر)(٥) استغرقت عشرين حلقة خلال أكثر من ستة شهور، حظي الحديث فيها عن (مصر) و (السعودية) بالقسط الأوفر، وقد بدأ الحديث عن طرابلس) في ليبيا بعد انطلاق الوفد الكشفي من الجزائر: «في اليوم الواحد والعشرين من يوليه الماضي خرجنا كشافة من قسنطينة ليلا ميمّمين شطر القاهرة قلب الشرق العربي الخفّاق، وكنا خفافا سراعا يحدونا أمل الوصول العاجل للمشاركة في حفلات التحرير المصرية التي دعينا للمشاركة فيها من طرف (الكشافة المصرية)»(1) وعندما يغادر الوفد ليبيا في اتجاه (مصر) يقول الكاتب «سلام على ليبيا، وسلام على ولاّتها ما عدلوا في الحكم، وثأروا لأنفسهم ولبلادهم من العبودية والجهل».

تأتي بعد ذلك الحلقة الثانية بعنوان «في كنانة آلله مصر) بالعدد (252) والثالثة (في مصر كنانة آلله) العدد: (253) والحقة الرابعة (مظاهر التدين في مصر) بالعدد (254) ثم (الجزائريون في مصر) عنوان الحلقة الخامسة، في العدد (256).

---

(٥) صدرت الحلقة الأولى في العدد: 250 سلسلة 2، الصادر يوم: 5 ربيع الثاني 1373 هـ — 11 ديسمبر 1953م، وكان بعنوان (في طرابلس الغرب)، أما آخر حلقة فقد صدرت في العدد: 276، الصادر يوم 24 شوال 1373هـ — 25 جوان 1954م.

(1) البصائر، عدد (250) الصادر يوم: 5 ربيع الثاني 1373هـ — 11 ديسمبر 1953م.

ثم انتقل الحديث عن السعودية ابتداء من العدد (257) بعنوان في (البلاد العربية السعودية) الى العدد (273) الذي أضيف فيه الى العنوان الأول (في المدينة المنوّرة) كما أضاف عناوين فرعية في بعض الحلقات الأخرى عن (العربية السعودية) أما الحلقة التاسعة عشرة الصادرة في العدد: (274) فقد كانت عن (سوريا ولبنان) تلتها الحلقة الأخيرة العشرون في العدد: (275) بعنوان (الخاتمة) في توديع (لبنان) والحلول بالقاهرة من جديد في طريق العودة الى الجزائر: «ودّعنا بيروت عاصمة لبنان الزاخرة بألوان الحياة التجارية منها والثقافية والاجتماعية، فهي مدينة تشبه مرسيليا بفرنسا ولكنها تفوقها بهذا الجمال الشرقي البديع، وهذه اليقظة المنتشرة في أوساطها، وهذا النشاط البارز في تجارها»(1).

** **

(1) البصائر، عدد (275) الصادر يوم: 17 شوال 1373هـ ــ 18 جوان، 1954م.

من كتابات الشيخ (محمد الفسيري)

1 ـ من محاضرته عن البحرية العربية الافريقية:

... لم تكن البحرية العربية في البحر الأبيض المتوسط بحرية حربية فحسب، بل كان للعرب أسطول تجاري واسع النطاق، ولقد حدّثنا التاريخ أن عبد المؤمن بن علي عقد شتّى المعاهدات التجارية مع أوروبا...

لكنّ التاريخ يمضي في أحقابه وأحداثه لا يعرف شفقة ولا رأفة بالأمم التي تتنازع (فيما بينها) أنواعا من السيادة الخيالية، وضروبا من المطامع الحقيرة، منشأ غالبها الهوى والأنانية والأثرة والكبرياء السخيفة، وهي جماع ما من شأنه أن يدني للأمم حتفها سريعا على يد أعدائها المتربصين بها الدوائر، كل هذا وقع لدولة الموحّدين، فانقرضت سنة 674هـ وخلفهم الملوك الحفصيون وورثوا بحريتهم تبعا لوراثة الدولة، وحاول هؤلاء توسيع نطاق التشكيلات البحرية فما أفلحوا كثيرا، وان فتحوا الجزائر، والمغرب الأقصى وبايعتهم الأندلس الشرقية في أواخر القرن السابع، كما حاول بنو مرين والزيانيون ذلك فأخفقوا هم أيضا.

سرى الوهن في جسم البحرية العربية شرقا وغربا بصفة مريعة، وتثاقل رجالها عن العمل لصالح الدولة، واستقل كثير من رؤساء السفن بسفنهم، وناوؤوا الدولة وتعانوا أحيانا مع عدوها، وما كان جزاؤهم الا أن أخذهم جميعا من تلابيبهم عدوهم المشترك: الاسبان وهكذا:

يقضى على المرء في أيام محنته حتى يرى حسنا ماليس بالحسن!

تقلص ظل البحرية العربية بعدئذ شيئا فشيئا حتى بدأ الأعداء بأساطيلهم يغيرون على سواحل البلاد، بعد أن أبادوا الجنس العربي بالأندلس ابادة كما توخوها، وبعد ما ارتكبوا جرائم لا تصدر إلا عن حماة الصليب الرؤوف! في كل زمان وفي كل مكان! تقتيل، واحراق، وتخريب وتنصير وتكفير الخ وهكذا حتى لم تبق عين وخد الا كما قال القائل:

فلا عين الا وهي عين من البكا ولا خد الا للدموع بها خد

أجل أباد الاسبان العرب بالأندلس، فما شفيت لهم غلة، ولا اكتفوا به ثأرا، وها قد لحقوا بلاجئيهم الى شمال افريقيا، وقد عن لهم أن يفنوهم وكل عربي مسلم أنى وجدوا انتصافا للدين! وارضاء لطغاة السلاطين، ففي سنة 911هـ هاجمت اسبانيا المرسى الكبير فاستولت عليه ثم وهران نفسها 914هـ، كما هاجمت غالب مدن الساحل منها عنابة، ومنها تونس التي استولت عليها سنة 930هـ.

وقع ذلك فما قدر البحرية على دفاع وما قدر البحارة أن ينجوا من قضاء الله، فلم يبق الا أن تثور الأمة على ولاتها وتحاول ما يمكن وما لا يمكن، وأمامها طريقان: الاستسلام، أو الاستنجاد بتركيا العثمانية.

وكان الأخير هو الواقع، فقدم عروج بربروس وأخوه خير الدين بأسطولهما من تركيا الى شمال افريقيا، واشتبكا في حروب طاحنة مع اسبانيا في سواحل البحر الأبيض الغربي برا وبحرا، وقد سددا لها ضربات قاسية كسرت كثيرا من تشكيلاتها العسكرية.

لا شك ان الاهمال قد عمّ البوادي، فسادت الفوضى وخيمت الجهالة، وانتشرت الفتن، حتى نسي العرب الأباة مجدهم أو كادوا، على أن الله أعاد اليهم بعض عزتهم بالأمير عبدالقادر وكفاحه لأعدائهم 17 سنة كاملة.

ولكن الضعف بلغ منتهاه، ولا مناص من الهزيمة. والآن وقد استسلم **الأمير، وفنيت في عهد الأتراك الأساطيل العربية، وصدق أمير الشعراء إذ قال:**

أيّ الممـــــالك أيها في الدهر ما رفعت شراعك
يا أبيض الآثـار والصـــفحات ضيع مـن أضاعك

فانا قد نهضنا من جديد، وسلكنا سبيلنا الى الحياة فلابد أن نبلغ غايتنا طال الزمان أم قصر، وكما تألق نجم الشرق العربي بدءا، فسيتألق نجم المغرب العربي ختاما.

(البصائر: س: 2.ع: 20، 7 ربيع الأول 1367هـ 19 جانفي 1948م).

2 ـ من محاضرة له في ذكرى مولد النبي محمد ﷺ سنة 1367هـ.

جاء محمد عليه السلام فكان الضالة المنشودة والسعادة المفقودة منذ أزمان، فاختط للعرب المسلمين النهج الواضح، وهداهم السبيل البينة بيان الصبح السافر، ولقنهم مبادىء الحياة العليا حتى ألموا بكل مبادىء السياسة في الحكم بين الرعايا، فرحموا الضعيف، وأغاثوا الملهوف، وانتشلوا المحروم، وانصفوا اليتيم، وخلصوا العالم من مآثم بغاة أذاقوه الوانا من الارهاقات، وسقوه أكؤسا مريرة من ضروب الخيبة، وآلام يشيب لهولها الولدان.

خلص العرب العالم من كل ذلك، وما قدرت الحضارات الراقية والثقافات العالية عند غيرهم من الشعوب أن تنقذه قبلهم.

وكأنه راع العرب المسلمين ما كانوا يجدون من استعباد للرقاب، واستغلال مشين للقوى والجهود، فهاجموها ـ مساوىء ـ وحطموها قيودا، وحرروها أمما، حتى لقد علموا السوقة أن يقولوها كلمة صارخة صريحة لكل باغ: «متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا».

تألق نجم العرب في سماء السؤدد والرفعة وأشرقت شمس معارفهم، فشعت أنوارها فأضاءت شعاب الفكر، وألهبت نيران الاحساس المرهف، فاتضح النهج، وفسح المجال، ورايتها معارف منظمة صقلها العقل، وغربلها، ومحضها فانسابت شرابا طاهرا، عذبا فراتا سائغا للشاربين، وانهال عليها الظماء يغرفون منها ويروون حتى الثمالة!

كان القرآن الكريم اللبنة الأولى في أساس صرح معارف العرب، فهو الذي حرر العقل من أسار تقليده، وعصمه كثيرا من الخطأ في الحكم،

والخطل في الرأي، وعرفه كيف يقارع الحجة بالحجة، والبرهان بالبرهان. وأبان هذا الانسان بوضوح عن مدى ما يستطيع ان يصل اليه فكره إذ تنظم.

كان كل ذلك، وكأني الساعة أناجي أرواح ملوك بني أمية وبني العباس، والفاطميين والأغالبة، والموحدين، والأيوبيين، والأدارسة بل كأني جالس في مجالس العلم أسمع عن ابن سينا، وابن رشد، وأبي القاسم الزهراوي، وأبي نصر الفارابي، وموسى بن ميمون، وحنين بن اسحاق. ومحمد بن البيطار وعبدالرحمن بن خلدون، وابن منظور الافريقي وياقوت الحموي، والخليل بن أحمد، وسيبويه والأصمعي، وأبي عبيدة، وأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، وابن دريد، وأبي هلال العسكري، وابن جرير الطبري، وجار الله الزمخشري، وفخر الدين الرازي، وأبي بكر بن العربي.

وكأنى الآن أجيل الطرف في محاضر دروس الأمام مالك بن أنس. وأبي حنيفة النعمان، وابن حنبل، ومحمد بن ادريس الشافعي، والقاضي عياض، وأبي حامد الغزالي، وأبي اسحاق الشاطبي ورجال الحديث وعلى رأسهم البخاري ومسلم، والوعظ والأرشاد وعلى رأسهم الحسن البصري والأوزاعي وبقية أعلام الاسلام الجهابذة، كأني معهم جميعا، ولكني أجدني أمام روحانية اعن لآلىء من الأنوار كهربتني وأحالتني شعلة منبثقة عن فجر وضاء من الأحاسيس الكامنة بين جوانحي وحنايا أضلعي وسويداء قلبي، فهفت روحي وعنت نفسي لذكرهم، عزائمهم وهممهم. يا خلف محمد ورجال محمد: أما آن لكم أن تبعثوا حضارتهم، أما آن لكم أن تكونوا يدا واحدة على من سواكم، أما آن أن تحققوا: «المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يحقره، ولا يسلمه، ولا يخذله»، أما آن أن تذودوا جميعا عن حياضكم العزيزة مستبسلين تاركين حياض خوف الرد للشاء والنعم كما يقول أبو الطيب رحمه الله:

ردي حياض الردى يانفس واتركي حياض خوف الردى للشاء والنعم

في خلف محمد ورجاله. أقيموا شريعة محمد. حكموها فيكم. تقطعوا دابر الشقاق والتخاذل. وتغلقوا دور البغاء والخمر والميسر، تعمر مساجدكم بشبان المسلمين، وتكثر مدارسكم. وتؤسس النكتيبات والجمعيات. وترسل البعثات، ولئن تفعلوا فحياكم الله وباركتكم الملائكة الأطهار. وباركتكم روح محمد وأرواح آله وصحبه. ﴿**يا أيها الذين آمنوا إنْ تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم**﴾.

وسلام عليكم بقدر ما فيكم من خير للعروبة والاسلام.
شاطودان — قسنطينة.

(البصائر، س: 2، ع: 24 الصادر في 12 ربيع الثاني 1367 هـ — 23 فيفري 1948م)

3 ــ من رحلته الى الشرق العربي (عدت من الشرق)

في المدينه المنورة

نزلنا في مطار المدينة، وركبنا السيارة فانطلقت بنا نحو مدينة رسول البشرية سيدنا محمد ﷺ وما هي الا هنيهة حتى تراءت أمامنا غيطان نخل باسق سحر البابنا بخوصه اللامع وقدوده القويمة وعراجينه الزاهية، ثم بدت المدينة وسط الغيطان كأنها اقحوانة بين عرائس المروج، ثم راعنا منظرها العام وهي جاثمة في سهل فسيح لا يحده الا جبل أحد ومن ورائه بعيدا خيبر في شمالها الغربي، على أن هناك هضابا تبدو بين البساتين في غير ما مكان، ولطف الجو، واسترحنا قليلا من حر الحجاز الجنوبي، ولكن الأشواق الى رؤية مثوى سيد الأنبياء كانت تستعر بين أضلعنا فجاشت بالحنين وما شعرنا حتى كنا أمام الحرم المدني الشريف نعلن عهدنا من جديد وتعلقنا بدين من له عز الشفاعة يوم لا ينفع مال ولا بنون، وغمرتنا نشوة من السرور تيقنًا أنها حلاوة الايمان بنبوة آسر هوانا وولي نعمتنا نعمة: أنا مسلمون، وأنا مؤمنون موحدون لا نبتغي الا ما ابتغى آلله لنا يوم أنزل على قلب سيدنا محمد ﷺ **﴿اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الاسلام دينا﴾**.

دخلنا الحرم الشريف فاسرنا رواؤه وجماله، وسحرتنا هندسته وبنيانه ثم انتهينا ــ بعد تحية المسجد ــ الى الروضة النبوية الطاهرة ووقفنا خشعا أمام جدث من صلى عليه آلله وملائكته وسلم، وتعلقت بحبه وبدينه أجيال من البشرية وما تزال متعلقة بهما الى يوم القيامة، ونطقنا بها شهادة مؤكدة، وصلينا وسلمنا على محمد وعلى آل محمد وترحمنا على روحي رفيقيه في المثوى أبي بكر وعمر (ض) عنهما، كما ترحمنا على أرواح أصحابه وأتباعه الى يوم يبعثون.

وهناك في الحرم الشريف جلسنا لنحمد آلله ونشكره عى ما أولانا من النعم، وذلك بتلاوة كتاب آلله: معجزة محمد الأولى تارة وبالدعاء والصلاة أخرى، ثم ظللنا نتردد على الحرم الشريف مدة خمسة أيام لنحضر صلاة الجماعة واحدى الجمع فيه، على أن الذي لا يعزب على الذهن هو زيارة كل الأماكن التاريخية الأخرى بالمدينة، ومنها مقابر الصحابة والأئمة بالبقيع، ومساجد المدينة الأثرية ومشهد أحد وقبر أسد آلله حمزة بن عبد المطلب وغيره من شهداء الاسلام الأول رحمهم آلله وجازاهم عن الاسلام والمسلمين خيرا كما زرنا محطة المدينة للسكة الحديدية فوجدناها ما تزال بكرا بخطوطها ومخازنها وعرباتها أيضا والرجاء في الملك الصالح سعود بن عبدالعزيز أن يحقق أمنية المسلمين في اعادة الخط قريبا بالتعاون مع البلاد العربية الشريكة في الأجر والمثوبة ان شاء آلله.

وكنت — شخصيا — كلما دلفت فوق ثرى مدينة رسول آلله تخيلت أن كل شبر منه يهمس في أذني: هنا تشرفت بلقاء سيد الكائنات أو أحد أصحابه في يوم من الأيام. هنا وقف الرسول عليه السلام موليا وجهه شطر المسجد الحرام راكعا ساجدا من هنا هب غازيا مدافعا منتصرا، هنا ظل داعيا الى آلله بإذنه وسراجا منيرا مدى عشر سنوات هنا شاء آلله أن يلفظ نفسه الأخير ويلتحق بالرفيق الأعلى، وتضم جسده الشريف أقدس بقعة على وجه الأرض بعد الكعبة. من هنا شعت أنوار نبوة ورسالة حولت الأرض ليلها كنهارها ولو كذب المبطلون. فإذا هي حضارة مثالية تنشأ وإذا هي عدالة شاملة تتحقق. وإذا هي أمم متباينة تتحد وتتلاقى في الهوى، ولن يفرقها (دائما) حتى الشيطان، من الأنس أو الجن! هنا وقعت وقائع لم تكن نصرا كلها وانما كان بينها ما زلزل المسلمين، وامتحنهم نفسيا وبدنيا حتى قال الرسول والذين آمنوا معه، متى نصر آلله، ألا أن نصر آلله قريب.

(البصائر: س: 2، ع: 273، الصادر في: 26 رمضان 1373هـ، 28 ماي 1954م)

المصادر والمراجع

(1) البصائر، السلسلة: 2، ع: 20، الصادر في 7 ربيع الأول 1367هـ، 19 جانفي 1948م.

(2) البصائر،، س: 2، ع: 24، الصادر في: 2ظ ربيع الثاني 1367هـ، 23 فيفري 1948م.

(3) البصائر، س: 2، ع: 250 الصادر في 5 ربيع الثاني 1373هـ — 11 ديسمبر 1953م.

(4) البصائر، س: 2، ع: 252 الصادر في 26 ربيع الثاني 1373هـ — 1 جانفي 1954م.

(5) البصائر، س: 2، ع: 253 الصادر في 3 جمادي الأولى 1373هـ — 8 جانفي 1954م.

(6) البصائر، س: 2، ع: 254، الصادر في 10 جمادي الأولى 1373هـ — 15 جانفي 1954م.

(7) البصائر، س: 2، ع: 256، الصادر في 23 جمادي الأولى 1373هـ — 29 جانفي 1954م.

(8) البصائر، س: 2، ع: 257، الصادر في 1 جمادي الثانية 1373هـ — 5 فيفري 1954م.

(9) البصائر، س: 2، ع: 258، الصادر في 8 جمادي الثانية 1373هـ 12 فيفري 1954م.

(10) البصائر، س: 2، ع: 259، الصادر في 15 جمادي الثانية 1373هـ — 19 فيفري 1954م.

(11) البصائر، س: 2، ع: 260، الصادر في 22 جمادي الثانية 1373ه — 26 فيفري 1954م.

(12) البصائر، س: 2، ع: 261، الصادر في 29 جمادي الثانية 1373هـ — 5 مارس 1954م.

(13) البصائر، س: 2، ع: 262، الصادر في 6 رجب 1373ه — 12 مارس 1954م.

(14) البصائر، س: 2، ع: 263، الصادر في 13 رجب 1373هـ -- 19 مارس 1954م.

(15) البصائر، س: 2، ع: 266 الصادر في 6 شعبان 1373هـ — 9 أفريل 1954م.

(16) البصائر، س: 2، ع: 267، الصادر في 13 شعبان 1373 هـ — 16 أفريل 1954م.

(17) البصائر، س: 2، ع: 268، الصادر في 20 شعبان 1373هـ — 23 أفريل 1954م.

(18) البصائر، س: 2، ع: 271، الصادر في 12 رمضان 1373هـ — 15 ماي 1954م.

(19) البصائر، س: 2، ع: 273، الصادر في 26 رمضان 1373هـ — 28 ماي 1954م.

(20) البصائر، س: 2، ع: 274، الصادر في 10 شوال 1373هـ — 11 جوان 1954م.

(21) البصائر، س: 2، ع: 276، الصادر في 24 شوال 1373هـ — 25 جوان 1954م.

(22) حديثان مع الشيخ (محمد الصالح رمضان) 22 نوفمبر 1989 و 21 ديسمبر 1989، الجزائر.

الشيخ باعزيز بن عمر

(1906 ـــ 1977م)

الشيخ باعزيز بن عمر

(1906 ـ 1977م)

المفكر العربي الجزائري الشيخ (باعزيز بن عمر) من الكتاب الجزائريين الذين شهدوا هذا القرن وتركوا بصماتهم الفكرية والأدبية خاصة في النصف الأول منه بالنّضال في الصحافة الوطنية بالقلم، وفي صفوف (جمعية العلماء المسلمين الجزائريين) في المدارس والمساجد وغيرها.

ولد (عبدالعزيز بازي)(*) المعروف بـ (باعزيز بن عمر) بقرية (آيت حماد) المعروفة كذلك باسم (اعزّوزن) بدائرة (أزفون) في (القبائل) وذلك يوم: **10** فيفري **1906** في أسرة متدينة، حيث كان أبوه (الشيخ عمر) من فقهاء المنطقة المعروفين، ومرجعا في الافتاء لدى أبناء المنطقة خاصة في بعض الأمور ذات الصلة بالحياة العامة مثل الميراث.

من هنا بدأ تعليم الطفل (باعزيز بن عمر) على يد والده الشيخ (عمر) ثم التحق بزاوية الشيخ (عبدالرحمن اليلولي) بالقبائل ذات الشهرة الواسعة وطنيا، هنا بدأت تتعمق معارفه اللغوية والدينية والعلمية أيضا، أخذت منحنى آخر ذا طابع وطني اصلاحي حين انتقل الطالب الى مدينة (قسنطينة) ليدرس على يد الشيخ (عبدالحميد بن باديس) نحو أربع سنوات أواخر العشرينات وبداية الثلاثينات، التحق بعدها بالزيتونة (في تونس) لفترة قصيرة مع نية الانطلاق الى القاهرة للدراسة في الأزهر، غير أن مشروعه اعترضته موانع مختلفة فيما يبدو، ربما كان طابعها اجتماعيا وذاتيا، فلم يمكث

(*) هكذا اسمه الرسمي الاداري (في مصالح الحالة المدنية) عبدالعزيز بازي.

بالزيتونة ولا سافر الى القاهرة بل عاد الى الجزائر ليحصل على تكوين مطرد فكري وعلمي وأدبي رزين بجهود ذاتية وعصامية عرب بها ابن الريف في المغرب العربي خاصة.

لم يلبث بإرادته وعزمه ووطنيته حتى بات من أشهر كتّاب «الشهاب» و «البصائر» وعضوا بارزا في (جمعية العلماء المسلمين الجزائريين) اضافة الى عمله التربوي التعليمي في (مدرسة الشبيبة الاسلامية) التابعة لجمعية العلماء بالجزائر العاصمة، مع الشاعر (محمد العيد آل خليفة).

وباندلاع الثورة التحريرية بات كزملائه من المثقفين والمعلمين موضع رصد ومراقبة وتضييق أكثر من ذي قبل، مما جعله يقدم على حرق كثير من وثائقه(*)، لكن بدا أن سعادته اتسعت وهو يشهد استقلال بلاده عن الاحتلال الفرنسي الذي طالما عرّض به، وطالما رفض — في مقالاته — فكرة التعايش معه، لايمانه القويّ باستحالة التعايش بين حضارتين مختلفتين في كل شيء، حضارة غازية بقوة السلاح، وحضارة قعد بها أهلها فمكّنوا لأعدائها.

وقد عاد من جديد — في عهد الاستقلال — الى الكتابة، كما عاد به الحنين الى الشعر الذي كان مقلاً فيه جدا(**)، الى أن لقي ربّه فجر يوم الجمعة 6 ماي سنة 1977م في منزله بالأبيار، من ضواحي الجزائر العاصمة، وتمّ تشييع جنازته الى مقبرة (بئر مراد رايس) يوم 6 ماي 1977 حيث ابّنه رفيق كفاح وأدب وعمل الشيخ أحمد سحنون بنبرة تعجّ حبّا واكبارا وألما أيضا. وخلال رحلة الحياة، أنجز الشيخ (باعزيز) في الجانب الثقافي منها عدّة أعمال فكرية، وعشرات البحوث والمقالات.

(*) علمت هذا من صهره، الأستاذ: اسماعيل بن محمد. يوم: 9 جانفي 1990.

(**) قال لي (اسماعيل بن محمد) أنه قبل ثلاثة شهور من وفاته جاء يعرض عليه قصيدة ويطلب رأيه فيها، فأجابه: لن يكون لتلميذ رأي أمام أستاذه. سمعت منه هذا يوم 28 ديسمبر 1989م.

وان هو لم يطبع كعمل مستقل سوى كتاب مدرسي (دروس في التربية) من ثلاثة أجزاء، فان أعماله المخطوطة تحتاج الى جهد مخلص خاص لابرازها الى الوجود، ومن بين تلك المخطوطات رحلته الحجازية،، سنة **1966** التي سجّل فيها مشاعره وآراءه في زيارته البقاع المقدسة، لأداء فريضة الحجّ، وقد كرّر هذه الزيارة ثانية في نهاية الستينات.

أما مقالاته وبحوثه في الصحافة الجزائرية والعربية فهي كثيرة ومختلفة وذات طابع فكري رزين، اتّسم فيها أسلوبه بالقوة والسلاسة والوضوح في سياق الفكرة ومعالجة القضية، يلوح من خلال ذلك صدقه واخلاصه وايمانه العميق بحب وطنه وانتمائه العربي الاسلامي الذي يجعله لا يساوم في هذا الانتماء الحضاري.

وإذا كان من الصعب الرصد الدقيق — في مثل هذا الموضع — لكل القضايا التي شغلت الكاتب، فانه يمكن أيضا أن نصنّف كثيرا من القضايا التي استقطبت اهتمامه، بل هناك ما شغله. تبرز من بينها القضايا السياسية والاجتماعية والثقافية.

فمن القضايا السياسية ما أفرزته نهاية الحرب العالمية الثانية من أوضاع، نجد مثلا، مقالاته: «قضية الجزائر لا تزال»[1] و «الاتحاد الفرنسي في مهب الريح»[2] «على هامش الانتخابات الجزائرية»[3] و «عام حافل بالأحداث والمآسي»[4] «من جوانب الضعف في نهضتنا الاسلامية الكبرى»[5].

---

(1) البصائر، سلسلة: 2، عدد: 6، في 27 شوال، 1366هـ — 22 سبتمبر 1947م.
(2) البصائر، س 2، ع: 245، في: 22 صفر، 1373هـ 30 أكتوبر 1953م.
(3) البصائر، س: 2، ع: 252، في 16 ربيع الثاني 1373هـ 1 انفي 1954م.
(4) البصائر، س: 2، ع: 264، في 21 رجب 1373هـ — 8 جانفي 1954م.
(5) البصائر، س: 2، 264، في 21 رجب 1373هـ — 26 مارس 1954م.

ومن القضايا الثقافية «اللغة العربية بالمدارس الثانوية»[1] «حول مؤتمر المدرسة الجزائرية»[2] و «اللغة العربية بين عاميتها والفصيح»[3]. ومن القضايا الاجتماعية ما عالجه في سلسلة طويلة من المقالات تحت عنوان دائم عام في البصائر، هو: «في مجتمعنا الجديد» حيث عالج موضوع «المساواة الاجتماعية»[4] «من مشاكل الأسرة الجزائرية»[5] «مقاومة آفة الكحول والمشروبات الكحولية»[6] «المرأة والعمل خارج البيت»[7] «الضمان الاجتماعي في الجزائر: الأمومة»[8].

هذا اضافة الى القضايا الدينية «من دروس الهجرة»[9] وقد يختلط في المقال الواحد أمر السياسة والثقافة والدين بالجانب الاجتماعي: مثل: «دفع شبهة في تعليل ظاهرة نمّو النسل في الجزائر»[10].

أما الأمور الأدبية الخالصة فهي كثيرة جدا مثل «عظمة جبال الزواوة وجمالها الطبيعي»[11] و «خطبة جمعة»[12] التي يوردها تحت عنوان عام: «من ذكريات البادية». قلقت نفسي، وبرمت من الحياة الصاخبة بالمدينة، فأحببت أن أفارقها بضعة أيام أوبا الى البادية، حيث تبدو الطبيعة هادئة

---

(1) البصائر، س: 2، ع: 10 في ذي القعدة 1366هـ — 13 أكتوبر 1947م.
(2) البصائر، س: 2، ع: 229 في 2 رمضان 1372هـ 15 ماي 1953م.
(3) «العربي» الكويتية، ع: 137، في المحرم 1390هـ — أفريل (نيسان) 1970م.
(4) البصائر، س: 2، ع: 290، في 25 صفر 1374هـ — 22 أكتوبر 1954م.
(5) البصائر، س: 2، ع: 293، في 23 ربيع الأول 1374هـ — 19 نوفمبر 1954م.
(6) البصائر، س: 2، ع: 294، في 30 ربيع الأول 1374هـ — 26 نوقمبر 1954م.
(7) البصائر، س: 2، ع: 296 في 14 ربيع الثاني 1374هـ — 10 ديسمبر 1954م.
(8) البصائر، س: 2، ع: 311، في 30 رجب 1374هـ — 15 مارس 1955م.
(9) البصائر، س: 2، ع: 14، في 3 المحرم 1367هـ — 17 نوفمبر 1947م.
(10) البصائر، س: 2، ع: 251، في 22 ربيع الثاني 1373هـ — 17 ديسمبر 1953م.
(11) الشهاب، ج: 12، م: 11، غرة ذي الحجة 1354هـ — مارس 1936م.
(12) البصائر، س: 2، ع: 12، في ذي الحجة 1366هـ — 27 أكتوبر 1947م.

مضمئنة، ويسود السكون جميع مظاهرها، ويطيب الاستجمام للنفوس المعنية والقلوب المكتئبة، فألقتني الأقدار في حضن قرية تقع بسفح جبل تتدفق من جوانبها المياه العذبة، وتحدّها من بعض جهاتها منبسطات فسيحة توحي بالحياة الهادئة والعيشة الراضية والانطلاق التام من قيود المدينة، وأوضاع الناس فيها. ثم اتصلت بأهلها اتصالا أخويًا وتعرفت الى الكثير منهم. ففسحوا لي في مودّتهم فتمكّنت العشرة بيني وبينهم بصورة جعلتني أغشى مجالسهم، وأختلف الى مسجد القرية لأداء الصلوات الخمس ».

يضاف الى ذلك وهذا الحس القومي في انتمائه الحضاري «اشتغالنا بالشرق أنسانا أنفسنا»[1] و «العروبة»[2].

وممّا يذكر للمفكر (باعزيز بن عمر) أن التعبير بالعربية الفصحى كان الغالب في حديثه، مثلما كان نثره الفني من عيون النّثر العربي الجزائري الحديث.

عالج مختلف القضايا الفكرية التي كانت تفرزها الساحة غالبا باسمه الذي عرف به (باعزيز بن عمر) باستثناء بعض المقالات في فترة معينة كان يوقّعها باسم «الفتى الزواوي»[3] ربّما تحديدا فقط للمنطقة التي أنجبته.

---

(1) الشهاب، ج: 5، م: 11، جمادي الأولى 1354هـ — أوت 1935م.
(2) الشهاب، ج: 2، م: 12، صفر 1355هـ — ماي 1936م.
(3) وقد اخذه (حمزة بوكوشة) عن ذلك. مثلما فعل مع (ابن باديس) عن التوقيع باسم (الصنهاجي) وكذا الشيخ (الفضيل الورتلاني) لامضائه باسم (الفتى القبائلي). بدأت هذه المناوشة في العدد: 15 من البصائر: سنة: 1، سلسلة 1، 25 محرم 1355هـ — 17 أفريل 1936م. بقلم (بوكوشة) الذي وقع باسم (طالب بجامع الزيتونة) وانتهت في العدد: 23. الصادر في 22 ربيع الأول 1355هـ — 12 جوان 1936م. وتدخل فيها أكثر من طرف آخر فجاء العقبي الذي فصل في موضوع لغلق الباب أمام مناقشة غير مجدية في العدد أعلاه. كما أسهم فيها آخرون مثل (عمر بن البسكري) في العدد: 20 من البصائر، سنة أولى. سلسلة 1. في 1 ربيع الأول 1355هـ — 22 ماي 1936م. كانت هذه (المناوشة) فكرية بين رفاق درب وطنيين. يحدوهم حبّ الجزائر الواحدة عربية اسلامية. لم يكن اعلان المنطقة الا كاعلان الأسرة. كانوا يناقشون ذلك بايمان صادق وقلوب طاهرة حقا. وأقلام نظيفة.

فهيات للعروبة والاسلام أحد رجالها، مثلما فعل ذلك (ابن باديس) عندما أقدم على التوقيع باسم (الصهناجي) ايعازا بدور صنهاجة (البربرية) التي حملت راية للعروبة والاسلام، ليردّ ضمنيا على دعاة البربرية من ذوي الفكر الاستعماري.

كان الشيخ (باعزيز بن عمر) مفكّرا وأديبا وطنيا، يؤمن بانتمائه الحضاري في بعديه العربي الاسلامي، رجلا مصلحا غيورا على وطنه وأمته العربية الجزائرية الاسلامية.

* * *

نماذج من انتاج الشيخ (باعزيز)

1 ــ الاتحاد الفرنسي في مهب الرياح:

ادركت شعوب كثيرة بعد الحربين الاخيرتين أن نزاع الأقوياء الذي دفع بالعالم كله الى الاصطلاء بنارهما انما كان من أجل السيطرة عليها والتزاحم على خيراتها وأراضيها الشاسعة وثروتها البشرية، فهم يودون جميعا ان تظل طعمة سائغة لهم على الدوام ونهبا مقسما بينهم يستغلون جهلها وضعفها حتى يتسنى لهم أن ينتزعوا من كل ذلك ما هو قوة لهم وعاد يوم الهول الأكبر حتى إذا انجلت المعركة عن ظفر فريق منهم بالآخرين عادوا سيرتهم الأولى فتآمروا على هذه الشعوب وأمعنوا في المكر بها والكيد لها بوسائل من الدهاء في التضليل كانوا حذقوها حذقا طالما مكنهم من العبث بحقوق الأفراد والجماعات والأمم فمن هذه الوسائل ما كان عاما في الاتجاه أول الأمر كقيام هيئة الأمم المتحدة التي ينص ميثاقها ــ بكل صراحة ــ على وجوب انصاف الشعوب كلها وتمكينها من نيل حقها في تقرير المصير، ومنهما ما كان خاصا ببعض الدول الاستعمارية «كالكومين ولث» (رابطة الشعوب البريطانية) (والاتحاد الفرنسي) وكلا هذين نظام يبدي أشياء ويسر أشياء تبعا للمصالح والامتيازات الاستعمارية التي أصبح من العسر حمايتها أمام هذه اليقظة العامة وما تدفع اليه من مقاومات شعبية وتيارات جارفة أو تطورات اجتماعية قد تأتي في النهاية على تلك المصالح والمطامع وقد تشعبت وتنوعت اثر الحرب الأخيرة كما في علم من درسوا أحوال الاستعمار وبحثوا في مراحله وغاياته وخصائصه.

البصائر، سلسلة: 2، عدد 245 في 22 صفر 1373هـ ــ 30 أكتوبر 1953.

2 ـــ عظمة جبال الزواوة وجمالها الطبيعي

الشهاب ب، ج: 12م: 11، غرة ذي الحجة 1354هـ ـــ مارس 1936.

لست يا جبال الزواوة أقل شأنا وعظمة من الجبال الأخرى المنصوبة على سطح هذه الكرة الأرضية، فكانت لها أوتادا، ولادونها جمالا وروعة وجلا لا وبهاء منظر. فقد بلغ من مكانة الجبال ـــ وأنت منها ـــ أن يشيد بها في كتابه العزيز خالقها وناصبها أمامنا على هذه الكيفية البديعة وهذا الشكل الجميل ويردد ذكرها في كثير من آياته البليغة واصفا أياها بجمال القوة وكمال الصنع والاتقان ولافتا إيّانا الى الرموز الخالدة فيها حول رسوها وشموخها وثباتها وكل ما أودعه فيها من اعجاز وآية.

فما بالك إذا تتواضعين في انكسار مستمر ويغشاك ذهول عن عظمتك بجنب غيرك من الجبال التي أظهرت من الايمان والثقة والشعور بنفسها ما أجملها حقا جبالا رست وعلت في بلاد كثيرة من أرض آلله تناطح السحاب بقممها وتتحدى هذا الانسان المادي العاقل، ألان تلك قد رزقت شعراء من أبنائها تغنوا بها وبجمالها ورددوا أناشيدهم العذبة وانغامهم الشجية حولها فحرمت أنت أمثال هؤلاء والأبناء وفقدت من يشعرون بعزتك حتى تشعري بهم وتأوي معهم.

وسيكون شأنك في الجبال بين هذا وذاك ولكنا لا نرضي منك أن تظلي في هذا التكتم والا نزواء فلا تنبهي فينا المشاعر بوحي جديد وتعيدي علينا ذكرى عظمائك الذين جعلت لهم مقرا في أحشائك وسقيتهم بمائك المتدفق العذب، وغمرتهم بهوائك النقي الصافي صفاء ثلوجك المتراكمة فعاشوا على ظهرك لا يثقلهم غير نسيمك العليل الذي يصل الأنفاس في الأسحار وينعش الأرواح بهبوبه المتوالي فيعطرها بنفحات زكية.

وياما أجمل هذه الشمس حين ترسل أشعتها الفضية على هضابك وشعابك ومغاراتك فيستحيل معها كل شيء على صعيدك الطيب إلى اشراق واضاءة فلا الحصا هناك حصا ولا ما يكسوك هو ما يكسو هذه الأرض التي تمنى كثير من الناس أن تخرج اثقالها بمناسبة هذه الأزمة القائمة في طولها وعرضها.

كل شيء جميل وساحر وبهي ومعجز لهذه القوى الأرضية فوقك يا جبال الزواوة، ففيك رمز العلو لمن يريد أن يعتلي ورمز القوة لمن يتطلب القوة ورمز الخلود لمن يبغي الخلود في هذه الدنيا كالجبال.

وان في استحالة ثلوجك ــ على احراشك المخضرة ــ الى شيء صلب على الدوام لا تذيبه الشمس ولا تنال منه الرياح المرسلة لاثارة السحاب وسوقه إلى كل بلد ميت ــ لسرا عميقا بجنب أسرار كثيرة تقترن بطبيعتك فتجعلك اعقل هذه المخلوقات الكونية العجيبة فتسخرين من غضب الزعازع والزلازل بثباتك وتدافعي عن نفسك بعظمتك المتواضعة الخالدة وتهزئي من كل قوة وغضب يتظاهر بهما البشر ممزوجين بالغرور والتصرف الشائن في كثير من الأحيان.

علمينا ــ يا جبال ــ علمينا كيف نثبت في السراء والضراء ثباتك ونغضب للحق والكرامة غضبك، حتى نطاول معك سماءك العافية ونستضيء بنجومها الساطحة، فنحس إذ ذاك ببعض اللّذة والابتهاج ونعرف ما هو الجمال والجلال والسمو وندرك الفرق بين الظلام والنور فنرى الأشياء والحقائق كما هي في الواقع لا كما يراها الناس وتتراءى لنا في الآفاق متسعة في وجودها من جديد.

وما ابدع مناظرك الطبيعية المتلائمة في تعاريج هندسية هام بها شيوخنا الأقدمون فكانوا يبكرون اليك في الاسحار ليمرنوا ابصارهم على النظر الى البعيد.

ولقد أدركت بعض الشيوخ عندنا ممن أحنى الزمان منهم الظهور يلفتني دائما الى جبال «جرجرة» ويقول ان وقفة واحدة لك على صخورها وأنت مفكر بصير ـــ تملأ قلبك بتوحيد آلله... وتريك عظمته في كونه المترامي الأطراف فما وحد آلله من غفل عن آثار خالقه بين يديه وعمي عن النظم الموضوعة في أكوانه وان أتى على كتب التوحيد بهوامشها وحواشيها كلها بحثا وتحليلا وزاد على براهين السنوسية براهين أخرى.

ويحدثني غير واحد من أولئك الشيب ان من أراد أن يحد وطنه ـــ هذا الذي تدل عليه الآن بكلمة «الجزائر» ـــ بسهوله وجباله ـــ فما عليه الا أن يبكر الى قمة ذاك الجبل أو هذا فلا تحده الشمس بمطلعها وتعم أطرافه باشعتها حتى يكون هو قد عاد ببصره فحده وتفقد كل المواطن والثغور فيه ورأى الاشباح كلها، المقبل والمدبر منها.

ولكن التبكير الآن الى هذه الجبال لهذه الغاية وللوقوف فيها موقف الأجداد ليس بمستطاع لشبابنا الحاضر الذي يصعد ولا يلوى على أحد بجنب أخيلة يراها أمامه تجذبه من حيث لا يدري منتهى هذه الجاذبية له، فانعكست الأشياء له فابصر القريب بعيدا مبتغاهم قريبا، ونازعت عين رأسه عين قلبه ففشلتا معا فأصبح مرئيا كسائر المرئيات. الا تعلم الى الان أيها الشباب ان كثيرا من بناة المجد لنا ومؤسسي المعاهد العلمية «بالزواوة» قد وجدوا مبتغاهم فوق أعالي هذه الجبال حيث تصفو لهم مناجاة أنفسهم فنحتوا لأنفسهم بيوتا في سفحها ومساكن يرضونها للاستجمام واراحة البال وترويح النفس وسرح العيون على المروج الجميلة والمياه الجارية، وان هذه الأبنية لا تزال قائمة حيث اختطوها ناطقة باسماء أصحابها واحدا واحدا. ولم تندرس كما اندرست معالم سكناهم في البطون والقرى لأن هذه اقاموا فيها بالأجسام فذهبت بذهابها وتلك اقاموا فيها بالأرواح فبقيت بقاءها، وكأنهم أوجبوا على تلك الجبال ان تبقى على آثرهم كما هي فلا تزول الا بزوالها فقامت الجبال بما وجب عليها نحوهم وخلدتها بخلودها، حين لم يقم الاحفاد والأبناء

بشيء نحوهم، الا ببعض الاختلاف البليد الى هذه الأمكنة في أيام من فصل الصيف تحدوهم حرارته اليها، ولا يصحبهم شيء من حوافز الذكريات الماضية والتأملات الروحية واستلهام العبقرية وافعام القلوب بالاجلال والأعظام حول صنع آلله الذي اتقن كل شيء، واني للقوم بهذا كله فهم إذ يملاون الخياشيم بالهواء الطاهر والحلاقيم بالزلال العذب الصافي ينسون كل زاد للروح والعقل والنفس الناطقة.

ولقد تمتليء نفسك عبرة وتفيض غبطة وسرورا إذ تتنقل من هنا وهنا في جبل «تريبرت» حتى تقف في بقعة قد ضمت بين جوانبها تلك الأبنية وقد استقل بعضها عن بعض لاولئك الاجداد من حماة الاسلام بتلك الربوع وناشري الهداية والعلم فيها كانوا يغشونها — كما سبقت الاشارة الى ذلك — في أوقات معلومة، فتتعانق أرواحهم واجسامهم معا حولها. ثم يبسطون الحديث عن الخير والدين والفضيلة حتى إذا تجمعت الآراء واجمعوا بها على استئناف العمل عاد كل الى رباطه لمواصلة عمله وجهاده فتفرقت أجسامهم على المواطن الكثيرة كما تتفرق الفيالق المنظمة على الجهات المختلفة تسوقهم جميعا عزائم قوية متحدة متصلة قد غذاها الجبل بقوة الثبات وصقلتها عبادة آلله فلم يعرف اليها الفشل والكلل سبيلا.

ذاك هو موقف من مضوا من رجال الصلاح والاصلاح بجبال الزواوة، أما من يمتون اليهم اليوم بنسب فقد طغت المادة بعدهم عليهم فلم يسيروا في طريقهم ولم ينهجوا منهجهم في ثنايا هذه الجبال ووعورها فخلت قلوبهم من ذكر من سار أولا من أسلافهم وكان «طلاع الثنايا» فلم ير الناس منهم الا «طلاع القصاع» مع هز الرأس وتكلفه للخشوع المصطنع إذا ذكر بعضهم أمامه.

عودوا أيها المدعون الى ضمائركم وحققوا نسبتكم اليهم بالعمل والسير في طريقهم واعلموا انكم الآن ذكر خامل وشمل ممزق ونفوس لاتستفزها

الا الشهوات المتبعة وراء المغانم والمكاسب الخصوصة، فاشهدي أيتها الجبال
أن هؤلاء قد طمسوا طريق أجدادهم اليك وسجلي عليهم انهم ما أحيوا
سنة ولا أماتوا بدعة وانهم ليسوا أهلا لاستنشاق هوائك وأرواء غلتهم بمائك
ماداموا لم يعملوا في مستقبل الأيام على وقاية الجدود العواثر وأحياء المآثر.

الجزائر الفتى الزواوي

3 ــ العروبة

كلمة تخفق بها اليوم قلوب الملايين من الناطقين بالضاد على نحو جديد من الشعور القومي الفياض كشفت عنه الأيام المتداولة ونمته الأحداث الشداد التي أحدقت بالأمة العربية الكريمة من جهات مختلفة فنالت من عزتها القومية وطمست على الكثير من سجاياها الحسنة وأخلاقها السامية فتمزق اهاب اتحادها وترامت عليه الذئاب تنهشه حتى لم يبق في جسمها الا الهيكل العظمي تتخلله بقايا من لحم ودم وقوة روح، يبعث مظهره على الياس من حياته وتسمينه واسترجاع خصائصه وقواه بعد ضعف دام أمدا بعيدا ضاعت فيه الثقة بين الأخوة وكادوا يتناسون بطول العهد الذي قضى عليهم أن يتنكر بعضهم لبعض حين تغيم الهواء الصافي أمامهم فتساقطوا صرعى الأوهام تندبهم العروبة هذه المدة الطويلة وتحنو على الوشائج المقتطعة بينهم حنو المرضعات لتجمعها يوما ما وتصل بعضها ببعض فتعيدها سيرتها الأولى، وها هو ذلك اليوم قد بدت شمسه المشرقة من نفس المشرق الأول بربوع العروبة.

واننا لنشعر من قبل ومن بعد بدم العروبة يجري في عروقنا وهو صاف لم يمازجه كدر وان اختلف المظهر، ونسمع صوتها الحنين يرن في آذاننا فنفتح له الطريق الى قلوبنا وأعماقنا، ويبلغنا أن ليالي الهموم أبت أن تنجلي عن صبحها الذي أدركنه بعد اسفار شامل ازال كل لون حائل، فنؤمن بان الفجر سيتألق فيعم الافاق من جديد وان طال سرانا فتقلبنا في مجاهل كثيرة سلكناها ونسلكها غير خائفين من شماته الأعداء ومعرة التلف ولفظ الأقزام.

فالعروبة حية فينا ونحن أحياء فيها ما دامت السموات والأرض، وها هي اليوم بالجزيرة مهدها الأول ومأرزها الوحيد تبدو باسمه مشرقة قد نفضت عنها غبار النوم الطويل وأخذت تستعيد حيويتها الغابرة في قديم الأعصر فتوحي

الى الحجاز يين بتطهير تلك البقاع المقدسة من دنس الاعتقاد والكشف عن جمال الاسلام ونوره الوضاء ليضيء للمرة الثانية على العالم من فوق تلك الرمال الطاهرة التي أضاء عليها أولا فانار الطريق في الوهاد والنجود لحاملي رايته ونوره وهدايته للانسانية المعذبة. وتوحي الى الفلسطينيين في القدس الشريف ثاني الحرمين بالثبات على مكافحة الخطر الصهيوني وموالاة الدفاع الى النفس الأخير عن ذلك الحرم الذي وصله الاسلام بالسماء، وتوحي الى الامام في اليمن بطلب الحياة الحقة التي تضمن السعادة والسيادة وتحفظ الكرامة العربية، والى العراق باعداد العدة للخصم العتيد واقامة الحجة عليه بأنه أهل للاستقلال وتولي شئونه بنفسه وبهمة ملكه الشاب، وتوحي الى مصر وسوريا بالصبر الجميل على ماسال من دماء ابنائهما البررة في ميادين الشرف والدفاع عن كرامة الوطن المفدي، والى الأقطار الأخرى النائية بالشعور الحي والعيش بفسحة الأمل.

هذا هو وحي العروبة العام الذي يهز اليوم أوتار قلوب ابنائها ومحرك ما كان كامنا من القوى المعنوية في نفوس أحفاد أنصارها الذين تجمعهم اليوم آمال واسعة قوية يتخطون اليها الوعور الكثيرة ويسعون في سبيل تحقيقها بايمان ثابت وعزائم صادقة وهمم عالية يحدوها صوت العروبة ويغذيها الاسلام بتوجيهه السامي وتعاليمه القويمة.

ان مستقبل العروبة بايديكم يا شباب العرب والاسلام، فكونوا لها من الحماة ولا تستهدفوها لسهام المغرضين الناقمين، افيبلغها حداة العيس أملها في عصر سادت فيه الجهالات وعمت الظلمات وابتعدت آفاق العالم وتشاعت أطرافه وكثرت مجاهله، وتعجزوا أنتم عن رفع المنار لها في طريقها الذي سارت فيه أولا الى الشعوب والأمم واختطته لكم لتسيروا فيه إذا جد الجد كما سار من قبلكم.

ونعيذ العروبة ان تلد للعقوق ويتقلب في حجرها من لا يحسن التعبير عن شعورها إذا نطق، والعقل لها إذا عمل، والتفكير في مصيرها إذا فكر.

وان لك أيتها العروبة كتائب من أبناء شيوخك الذين يثهم الاسلام في كثير من انحاء العالم خارج الجزيرة لنشر الهداية العامة وانقاذ البشرية جمعاء، فهم يحملون لك حيثما كانوا أطيب الذكريات ويذكرونك في السراء والضراء وتكاد قلوبهم تطير شوقا الى ذلك اليوم المنتظر لك في مستقبلك الباسم السعيد.

هذه سطور كانت مرسومة علي صفحات القلب فأراد هذا القلم النحيف ان يرسم مثلها على صفحات مجلة «الشهاب» الغراء العاملة على احياء مجد الاسلام ونشر الخير والدين والفضيلة بهذه الربوع.

الفتى الزواوي

* * *

المصادر والمراجع

(1) الشهاب، ج: 2، م: 12، في صفر 1355هـ ــ ماي 1936م.

(2) الشهاب، ج: 5، م: 11، ف يجمادي الأولى 135 هـ ــ أوت 1935م.

(3) الشهاب، ج: 12، م: 11، في ذي الحجة 1354هـ ــ مارس 1936م.

(4) العربي الكويتية، عدد 173، في المحرم 1390هـ أفريل (نسيان) 1970.

(5) البصائر، السنة الأولى، السلسلة الأولى، الأعداد: ابتداء من العدد: 15، في 25 المرحم 1355هـ ــ 17 أفريل 1936 الى العدد: 23 الصادر في 22 ربيع الأول 1355هـ ــ 12 جوان 1936.

(6) البصائر، س: 2، ع: 6، في 27 شوال 1366هـ ــ 22 سبتمبر 1947م.

(7) البصائر، س: 2، ع: 245، في 22 صفر 1373هـ ــ 30 أكتوبر 1953م.

(8) البصائر، س: 2، ع: 252، في 26 ربيع الثاني 1373هـ ــ 1 جانفي 1954م.

(9) البصائر، س: 2، ع: 253، في 3 جمادي الأولى 1373هـ ــ 8 جانفي 1954م.

(10) البصائر، س: 2، ع: في 21 رجب 1373هـ ــ 26 مارس 1954م.

(11) البصائر، س: 2، ع: 10، في ذي القعدة 1366هـ ــ 13 أكتوبر 1947م.

(12) البصائر، س: 2، ع: 229، في 21 رمضان 1372هـ ــ 15 ماي 1953م.

(13) البصائر، س: 2، ع: 290، في 25 صفر 1374هـ ــ 22 أكتوبر 1954م.

(14) البصائر، س: 2، ع: 293، في 23 ربيع الأول 1374هـ ــ 19 نوفمبر 1954م.

(15) البصائر، س: 2، ع: 294، في 30 ربيع الأول 1374هـ ــ 26 نوفمبر 1954م.

(16) البصائر، س: 2، ع: 296، في 14 ربيع الثاني 1374هـ ــ 10 ديسمبر 1954م.

(17) البصائر، س: 2، ع: 311، في 30 رجب 1374هـ ــ 15 مارس 1955.

(18) البصائر، س: 2، ع: 14، في 3 المحرم 1367هـ ــ 17 نوفمبر 1947م.

(19) البصائر، س: 2، ع: 251، في 22 ربيع الثاني 1373هـ ــ 17 ديسمبر 1953.

(20) البصائر، س: 2، ع: 12، في 12 ذي الحجة 1366هـ ــ 27 أكتوبر 1947م.

(21) حديث مع الشيخ (اسماعيل بن محمد) المعروف ابان الثورة التحريرية باسم (اسماعيل زكري) هو ابن عمة الشيخ (باعزيز بن عمر) وزوج ابنته، أي صهره جرى الحديث. في 28 ديسمبر 1989م ثم يوم 9 جانفي 1990م. هذا اضافة الى أحاديث أخرى مختلفة مع الأساتذة (حمزة بوكوشة) و (محمد الصالح رمضان) و (عبدالرحمن شيبان).

الشاعر الجزائري محمد العيد آل خليفة

(1904 ــ 1979م)

الشاعر الجزائري محمد العيد آل خليفة

أولا ــ محمد العيد يتحدث عن شعره(٭):

بعد الساعة التاسعة صباح يوم 24 جوان 1972م غادرت الفندق ببسكرة الى منزل محمد العيد آل خليفة ... ولم تكن مقابلته أمرا سهلا في المدة الأخيرة، نظرا لحالته الصحية، فقال لي ابنه... انه مريض، زاره البعض ولم يكن في استطاعته مقابلتهم مما زادني حرصا على المقابلة، فتمكنت من اللقاء بهذا الشاعر الذي غرد طويلا وسكت فجأة تحت وطأة أعراض المرض وآلامه، زرته باسم الاذاعة أولا، وباسم برنامج (منبر الشعراء) ثانيا ابتسم وكرر مصافحتي ذاكرا انطباعاته عن البرنامج والشعراء الذين مروا على منصته، ومضينا في حديث طويل انقسم الى فترتين.. فترة صباحية وفترة مسائية توجت بتسجيل أحدث قصيدة له فرغ منها في اليوم نفسه، تحية منه للذكرى العاشرة للاستقلال(1) اسأله عن شعره:

فيجب..شعري أربعون سنة من حياتي.

وعن الصحة والأحوال يقول: ... الطبيب يحذرني من بذل الجهد.

(٭) حديث نشر جزء منه كمقدمة لقصيدته عن الذكرى العاشرة للاستقلال مجلة «الأثير» عدد 5 الصادر يوم 1972/18/1، سنة أولى. ونشر الجزء الأكبر منه في عدد 7، الصادر يوم 1972/10/1 واختصرنا هنا ما سبق نشره.

(1) رفض أن يسجل بصوته شيئا غير القصيدة. طلب أن تنقل عنه أفكاره كتابة، أما القصيدة فقد سمح بتسجيلها عنه وسلمنا نسختها الأصلية بخط يده. ننشرها صحبة هذا الحديث.

ملاحظة: سجلت هذا الحديث صفيا في درجة حرارية بلغت 40 يومها (في بسكرة) وذهني في ارتخاء تام على أثر انتهاء امتحانات التخرج من الجامعة.

● توقفتم عن الانتاج... وهل الديوان ضم كل شعركم؟

ـ ضم أكثر شعري، وما لم يتضمنه الديوان لا يخلّ في شيء لأن المواضيع أحيانا تتشابه.

● هناك قصيدة «لا أنسى» عن الثامن ماي 1945... هل نشرت في عهد الاستعمار؟

ـ لا أظن ذلك...

● قصيدة «من وحي الثورة والاستقلال» التي كانت نشرتها مجلة «المعرفة» الجزائرية هناك شبه وعد في الديوان بنشرها كاملة مستقلة مع دراسة عنها، فأين وصل المشروع؟

ـ كان الوعد من أديب عربي، وهو أستاذ عمل هنا في بلادنا ذهب الأديب الأستاذ وانتهى المشروع!؟.

● وتساءلت عن الألغاز في شعره، فبدت منه حركة قال على اثرها:...

ـ الألغاز فوجئت بوجودها في الديوان، هي دون المستوى العام للشعر الذي ضمه الديوان، وقد قلتها في مناسبات عارضة مع تلاميذي.

● ما المناسبة التي قلت فيها:

يا سائلا عنا وعن أحوالنا هذا لسان الحال عنا يخبر
أصحابنا رحلوا وصرنا بعدهم غرباء تنكرنا العيون وننكر

ـ المناسبة.. مجرد صورة تذكارية..

● وعن التشاؤم يقول:

ـ **كيف أتشاءم (الآن) في عهد تحرّرت فيه بلادي، وأحرّز الشعب على** استقلاله، لم أكن أتصور أنني سأعيش حتى أشهد الاستقلال، و لم يكن يخطر لي ذلك على بال.

.. وهذه المرة عن الخليفة لاختيار ليلى بالذات عند الشاعر رمزا للحرية، يجيب الشاعر.

— لأنها رمز النقاوة والطهارة، فهي صورة للجمال، والحرية شيء جميل.
ثم انها طرف في قصتها مع قيس التي تمثل فيها الحب العذري بكل نقاوته، والحرية شيء محبوب، فلا مانع من اختيار ليلى المحبوبة رمزا للحرية المحبوبة التي يعشقها جميع الناس.
ما هو تعليقك عما يكتب عنك أو ينقل؟
— أقبل الجيد.. واسكت عن غيره. كتاب أبي القاسم سعد آلله (محمد العيد آل خليفة رائد الشعر الجزائري في العصر الحديث) كان مفاجأة سارة جدا بالنسبة لي يوم صدوره، لأنني لم أكن أحلم بأن أنال ذلك القدر من العناية والدراسة والجهد.
هل تراجعون القاموس وأنتم تنشئون القصيدة للتأكد من سلامة عبارة أو صحة مفرده؟.. القيت السؤال على الشاعر بعد انطباع استقر في ذهني من خلال قراءاتي لشعره، فكانت اجابته:
— طبعا أراجع القاموس أظن أن كل شخص مضطر لذلك، كي يتأكد من صحة عمله.
والى الشباب ونشاطاتهم الأدبية تطرق بنا الحديث، فعلق الشاعر على ذلك بقوله:
— انها حركة فكرية (طيبة) أنني أسمع وأقرأ ما يدور من نقاش، وأتابع انتاج الشباب، وتلك الامسيات الشعرية شيء رائع يخدم الفكر والشباب، انتم وحدكم تستطيعون أن تعيشوا هذا الجو وتقوون على مواجهة الانتقادات، أنا لم أعد أستطيع السفر لاعتلال صحتي.

وسجل لنا في الأخير بصوته قصيدة جديدة تحية منه للذكرى العاشرة للاستقلال بعد أن كانت عقارب الساعة تزحف متجاوزة السادسة مساء، وهو يطلب مني ألا أذيعها أو أنشرها قبل الخامس جويلية، فأكدت له تعهدي بتنفيذ رغبته، لكن الفضول دفعني للتساؤل: ماذا يحرجكم من نشرها أو اذاعتها قبل الخامس من شهر جويلية؟..

— قال:.. حتى لا يفهم ان القصد منها المشاركة في مسابقة «الجوائز الكبرى لوزارة الاعلام والثقافة»(1) لأن كل الشعراء أبنائي، ولجميعهم في نفسي مكانة وتقدير، وليس في نيتي منافستهم.

وفي المناسبة نكرر نحن هنا ما قاله الدكتور ((م. دين)) ونتساءل عن غياب اسم محمد العيد من بين الأسماء التي نالت الجوائز كبرهان علني على الوفاء للذين يعملون حتى تعجز اليد ويتعطل الذهن ما دام الأمر قد أخذت فيه بعين الاعتبار مؤلفات سبق نشرها فرشح مؤلفوها.

أيها الشعب المفدى

عشت عشرا من سني التحرير(*)

هزّنا (يوليو) الى البشرى ونادى فأجبناه جموعا وفرادى
صفق القلب سرورا وانبرت خلجات الصدر تهتز ارتعادا
رقصت في جو أنغام الرضى وهي تشدى فيه مثنى وأحادا
وهفا القلب اليها مرهفا سمعه شوقا اليها واستزادا
أيها الشعب المفدى هذه فرصة فيها نعاطيك الودادا
ونساقيك كؤوسا حلوة من افاويق الرضى تنفي النكادا
عشت عشرا من سني التحرير بل
عشت نشرا بعد ما متَّ اضطهادا
هذه فرحة عهد زاخر بالمنى، فانس به العهد المبادا

---

(1) مسابقة الجوائز الوطنية الكبرى في الآداب والفنون، بمناسبة الذكرى العاشرة للاستقلال. انظر عرضا عن الجوائز وأصحابها بشكل مفصل بعض الشيء في مجلة (الثقافة) الجزائرية، عدد 11 الصادر في رمضان 1392هـ (نوفمبر 1972م).

(*) أذيعت القصيدة من الاذاعة الوطنية (الجزائر) على الساعة الثامنة من يوم 5 جويلية 1972 ونشرت بالعدد 5 من مجلة «الأثير» الصادر 1 أوت 1972. كما نشرتها مجلة «الجيش» بعددئذ وهي آخر ما نظم الشاعر نثبت القصيدة — على مستواها — لافادة الباحث.

هذه فرحة عيد عاشر من سني استقلالنا باليمن عادا،

(يابن محي الدين) قم فانظر تجد
شعبك الثورى يقفوك جهادا

وتجد امتك اهتزت الى.. صوتك العلوى سمعا وانقيادا
قربت لله في ساحاتها عددا ضخما على المليون زادا
خلفواأجداثهم نفاحة بالشذى تعلو رباها والوهادا
فحباها آلله تحرير الحمى وسقى أرض البطولات العهادا
والشهادات. رسالات الفدى خطها الابطال بالقاني مدادا
هذه أرضك أضحت حرة بعدما أجهدها القيد وآدا
وبدا شعبك فيها آمنا بعدما أمضى بها سبعا شدادا
وغدا اليوم بها تحكمه سلطة الشعب فأعطاها القيادا
كله ثاريدا صانعة أويدا تزرع أو تنمي اقتصادا
وشباب صف للتجنيد أو صف للتثقيف يبغي منه زادا
والثقافات نبوءات النهى كم بها مخترع أحيا الجمادا
يا شباب العلم قدس مشعلا لك جلى ظلم الكون اتّقادا
والحق الرواد في أجوائهم انهم بالكشف جابوها طرادا
مارسوا الأسباب فانقادت لهم وأضعناها فلم تبد انقيادا
سابقوا الا نجم في أفلاكها وامتطوا فيها الصواريخ جيادا
أين نحن اليوم من أهدافهم؟ انهم قد أدركوا منها البعادا
فتحرر وتفتح مثلهم واتسع فكرا وعلما واجتهادا
كل علم في ازدياد دائم يقتضي المرء من العلم ازديادا
هذه نفثة صب بالحمى بثّها من لاعج الشوق ابترادا
لاتخلها نفحة شعرية بل خطى شيخ مع الركب تهادى
تمت العشر فادّينا بها سجدة الشكر لمن بالنصر جادا
فله الحمد على اتمامها واليه المنتهى مهما تمادى

2 ـ العروبة والاسلام في شعر محمد العيد(•):

للقد تفاعل أغلب الشعراء الجزائريين خاصة من جيل محمد نعيد آل خليفة بكل صدق مع القضايا العربية والاسلامية، مع هموم العروبة والاسلام، وافريقيا، ومع ذلك لم يكن هناك فيما يبدو من كان في مستوى العيد آل خليفة الذي أخذت تستحوذ قضاياها على اهتمامه منذ مطلع حياته... حتى غدا شعره: هو العروبة والاسلام، وهو بذلك، من هذه الزاوية يمكن أيضا أن يكون فعلا صوت الجزائر العربية المسلمة التي قهرت أعتى قوة استعمارية بعقيدة (الجهاد) الكلمة التي كانت «المفاعل» القوى ليستطيب الجزائري الشهادة، فيهون في سبيلها كل شيء في الحياة، من نفس وأهل وبنين.

لقد تحولت القومية.. والوطنية الى هموم ذاتية لمحمد العيد منذ جاء الحياة. التي لم يكد يتفاعل معها حتى ارتسمت على عينيه نظارة قاتمة السواد، يتأمل من خلالها يومئذ واقع الجزائر المزري تحت ظرف استعماري جائر يضيع فيه من الوطن كل شيء ولا يُمنحُ شيئا، يسلب الاستعمار الأرض ويسخر النفوس ويجند الرقاب لتذهب تدافع عن أرض لا يربطها بها سبب حضاري ولا جغرافي، ولا غيره.

عاش محمد العيد واقع الجزائر تحت الاستعمار، وشهد البركان العظيم في أول نوفمبر 1954، وكان أحد جنود الكلمة المناضلة قبل نوفمبر وبعده،

(•) مجلة «الثقافة العربية» الليبية، عدد 12 بتاريخ ديسمبر 1980.

فعرف الضيق والتضييق، والسجن والمحاكمة والأيقاف، وهو من خلال كل ذلك: الجزائري المناضل العربي المسلم، بين تلاميذه وطلابه، في النوادي وفي الصحف الوطنية الصامدة.. وأمام ملاحقات الاستعمار... حتى جاءت البشرى يوما للرجل الذي أخذ يتصوّف ولاح الأمل ذات صباح لمحمد العيد (السجين) برحيل الكابوس الاستعماري الرهيب في سنة 1962 وذلك عندما تفاءل بـ(بوبشير) يطرق نافذته:

جزمت بقرب اطلاق الأسير غداة سمعت صوت (أبي بشير)
فقمت مرحبا بنزيل يمن علي بكل اكرام جدير
وجئت أبثه نجواي سرا ومن للحر بالصوت الجهير
أراك أبا بشير ضيف خير وطائر رحمة للمستجير
أرح قلبي بزقزقة الأماني ومتعني بمنظرك النضير

عن حياته، وموقفه النضالي:

ولد محمد العيد في عين البيضاء بالشرق الجزائري، يوم 1904/8/23 في فترة أذنت بميلاد حركة وطنية جزائرية سيكون لها طابعها المتميز بعد قليل، ودرس في كل من مسقط رأسه وبسكرة التي غادرها سنة 1921 متوجها الى تونس حيث أمضى سنتين اثنتين في جامع الزيتونة، عاد على اثرها الى الجزائر.. التي مارس فيها التعليم في مدارس جمعية العلماء المسلمين الجزائرين.. كما تولى ادارة عدة مدارس... في العاصمة وغيرها، مشاركا في النهضة الثقافية عبر الصحافة الوطنية. وبعد اعلان ثورة الفاتح من نوفمبر 1954 تعرض.. بشكل أشد للملاحقة من الاستعمار.. فدخل السجن.. ثم فرضت عله الاقامة الاجبارية في مدينة بسكرة، ولم يخرج من هذه العزلة، ولم يفلت من هذا الطوق الحديدي الا باعلان الاستقلال سنة 1962، الذي هفا اليه.. وتوقعه من خلال تفاؤله بالزيارة الحالمة لـ(بوبشير).. الفراشة التي جاءت تنقر زجاج نافذته.

وطوال رحلة الحياة كان بصره وسمعه على كل ما يحدث في الوطن العربي والعالم الاسلامي، كان يهلل لكل انتفاضة.. تدفع الجور، ولكل ثورة تمحو الظلم.. والعار.. والاستبداد، ومن أول هذه البلدان.. بلد من أشد ما يكون قرابة وجوارا، ومن الصقها بالنفس حبا وهوى، هو ليبيا المجاهدة التي افتكت حريتها، وظفرت باستقلالها في سنة 1952 هذه السنة التي كتب فيها محمد العيد قصيدته عنها، والتي نشرها يومئذ في العدد 183 من جريدة البصائر الجزائرية.

أمل تحقّق بعد طول نضال ومثال فوز كان خير مثال

وهي مناسبة ليعلن العيد تلك العلاقة التاريخية من كل الوجوه بين الشعبين الليبي والجزائري، وأن تناولها تناولا عاديا لطبيعة الموضوع ومناسبته:

ان الوشائج بيننا لا تقتضي كالجسم غير تعاون الأوصال

وهو أساسا لم يكتب ذلك الا ليشيد ببطولات المجاهدين الليبين الذين نهضوا للدفاع عن أرضهم حماية لعروبتهم، وصونا للدين الاسلامي المكين في النفوس:

ان البطولة في الوغى عهد لهم عهدت به الآباء للأطفال
ومضى بهم (عمر الشهيد يقودهم
للحرب ينام نأمة الرأبال

ومن خلال الحديث عن الاستقلال الوطني لليبيا في 1952 يتشوق الشاعر الى فكاك بلده من ربقة الاستعمار، وكله شوق وحنين الى الحرية «الحمراء» التي رمز لها بـ«الورقاء» الساحرة... التي لن يكون وصالها الا على جسر من الضحايا والشهداء:

حمراء حرّر جيدها من طوقها في الورق فهي عديمة الأمثال
والهفتاه عليك حسنك فاتن وهواك ممنوع، ووصلك غال

وان يئس خاملون، وتقاعس اتّكاليون، ولوّح بـ«المحال» متخاذلون. فان الشاعر بصدق حدسه كانت تلوح له امارات.. الانطلاقة الكبرى للمارد الجزائري الذي سيحقق أمنية الشاعر في الظفر بالحبيبة الغالية:

قد أحدق الرقباء والعذال بي ويحي من الرقباء والعذال
عز اللقاء ولست منك بيائس فلعل بعد البين قرب وصال

العروبة والاسلام:

ان الذي يتتبع شعر محمد العيد سيجد هذا الحنين القومي للحرية والعدالة الاجتماعية يطل في كل مناسبة، وهو يأتي ضمن اطار قومي ملك على الشاعر أمره، وكاد يصير كل همه.. بل هو كل همه، هذا الاطار المشع... هو العروبة والاسلام، فهما عند محمّد العيد: اللحمة والسدى، قد يتجسدان في موقف واحد كالمواقف الوطنية مثل الجهاد والاستشهاد، وقد يبرز أحدهما عن الآخر في مواضع معينة.

يبرز الحديث عن الاسلام في المناسبات الدينية الخاصة أو العامة، مثل شهر (الصيام) الذي يتجاوز فيه العيد العروبة الى الانسانية، والقيم الاجتماعية والقضايا الاخلاقية:

أطل على البرية بالسلام ولح باليمن يا شهر الصيام
وحل على بني الاسلام ضيفا كريما بين رعي، واحترام

فيتحدث عن العطف والتكافل الاجتماعي، والعون والمواساة:

تعالوا للندى قومي تعالوا تنالوا بالندى أقصى المرام

ويدعم ذلك بكون الدين الاسلامي دين تعاون وعطف ورحمة وتآزر، جاء لتحرير البرية... وخيرها وسعادتها... بعبر يوردها أو تتخسه حكميات كما جاء في قصيدته هذه:

أخا الاسلام قد آخيت دينا صيامك فيه رابعة الدعائم
رأيت أذى احتقار الناس أقصى عليهم من أذى الموت الزؤام

ويبرز حديثه عن العروبة في المناسبات السياسية، والمواقف القومية كقصيدته عن تقسيم فلسطين التي أكد ايمانه بعروبتها، موجها عتابه الى انكلترا التي وصفها بالذلة والغدر، والطغيان، كما يشيد في قصيدة أخرى عن فلسطين العزيزة، بأنفة العربي في الدفاع عن كل جزء من أرض العروبة، فجيش العروبة.. في خدمة القضية العربية عندما تحسن قيادته ويتاح لامكانياته أن تنفجر:

إذا استصر خته للحرب لبّى وخف اليك من كل البقاع
ونحن بني العروبة قد خلقنا نلبّي للمعارك كل داعي

كل مناسبة ذات صلة ما بالوطن والوطنية، أو غيرها من قضايا أساسية الا ولمست فيها بأشكال مختلفة الروح العربية القومية، والشعور الاسلامي الحاد لمحمد العيد، ورغم أنه لم يخص الموضوعين بقصائد مستقلة.. لأن ذلك قد يتنافى مع طبيعة الشعر الا ما قد تفرضه بعض المواقف الخاصة.. في ظروف خاصة أيضا بالنسبة لبعض الشعراء لكن الموضوعين كانا أكثر وضوحا في قصائد معينة، لن يستع المجال هنا للحديث عنها كلها، لكننا سوف نعرض لبعضها بقدر ما تسمح به مساحة هذا الحديث، ووقت القارىء.

يتجلى الاحساس العربي لمحمد العيد أكثر في كل ما هو ذو طابع سياسي، بدا هذا كما رأيت حديثه عن استقلال ليبيا، كما بدا أيضا في

حديثه بمناسبة استقلال السودان، حيث قام يحيي الشعب السوداني الشقيق بقوله:

وبنو العروبة يهتفون لمركب في النيل مغتبط به جذلان

ثم يتحدث عن الدولة الجديدة، العضو الجديد في جامعة الدول العربية، كما ينبه الى العمل لتحاشي الخلاف الهدام، والنعرة الضيقة، ويدعو الى التمسك بالوحدة الوطنية والقومية العربية التي تتآزر فيها مختلف العوامل من لغة ودين وتاريخ:

يا أمة السودان أمتكم رست طبتم وطاب لكم بها السلطان
ضمت لجامعة لنا عربيـة اعضاؤها عرب بها خلصان
لا تنقضوها بالخلاف فإنـه لا يستقيم به لكم بنيان
فعن الشقاق تنزّهوا وتمسكوا بعرى الوفاق، فكلكم اخوان

** ** **

وفي عدوان 1956 على مصر الرافضة لضروب الهيمنة دفاعا عن كرامتها وصونا لسيادتها الكاملة، قال محمد العيد:

أغار على الكنانة شر عـاد فقل يا مصر حي على الجهاد
أعدى كل بأسك واستعدى لـرد الزاحـفين بـلا اتئـاد
جنوا باسم الحماية منك حينا مجاني زودتهم خير زاد

وبعد وقفة تحذير من كيد الاستعمار بكل أشكاله، وبضروب غذره، بمختلف ألوانه وأساليبه.. صوره: يقول الشاعر في شيء من العتاب للواقع الذي يتحرك فيه المواطن العربي:

وآه للقتـال فقـد تبـدت به الاجـواء حالكـة السواد
أكل سلاحنا رفع احتجـاج على العدوان، أو فتح اعتماد؟

وهنا يحدث المزج في قصيدة واحدة بين الشعور العربي والاسلامي، فهنا ليبيا الظافرة، لكن هناك أيضا فلسطين المغتصبة، وهناك من جهة أخرى ايران المسلمة ذات الدور القوي في القضايا الاسلامية، وكلها عوامل تدعو الى ضرورة التلاحم بين العروبة والاسلام، اللذين هما في نظر محمد العيد شيئان (متلازمان) لا ينفصل أحدهما عن الآخر.

فهو لا يفهم عروبة بدون اسلام، ولا يرى وزنا مؤثرا لمسلم بدون تآزر عربي، وقد عبر العيد عن الرباط العربي بين أبناء الأمة العربية في كثير من قصائده، في مختلف الموضوعات، وهو رباط لا تؤثر فيه المسافات، ولا الأبعاد، يزداد متانة في الملمات الخاصة والعامة، ولا يترك (الشاعر) مناسبة تمر من دون استغلال لهذه الرؤية منه، ففي رثائه لحافظ أبدى ذلك الأحساس القوي اتجاه موت شاعر حظي بتقدير واعجاب لدى قطاع واسع من جيله، وفي الوقت نفسه عبر عن ذلك الارتباط القوي بين بلدان الأمة العربية خاصة، والبلاد الاسلامية عامة:

وابن الجزائر بابنالشرق مرتبط   وان أحاطت به الأشواك أسوارا

وهذا الربط لا يفتأ يتردد في شعر محمد العيد خاصة بين الجزائر، وسائر المناطق الأخرى من العالم العربي:

بغـــداد يـــــا أخت الجزا ئــر، يـــا ربيبـــة يعربـــا
ووريثــــه المجد المأثـــــــ ـــــل، في دمشق ويثربـــا

وعندما فقدت تونس أحد (شعرائها) وكتابها السياسيين (الشاذلي خزندار) سارع الشاعر الى المشاركة في الحفلة التأبينية التي أقيمت له في تونس لتلقى القصيدة نيابة عنه، تحدث فيها عن الرجل مثقفا وسياسيا، وانسانا والى هنا لا يعنينا الأمر كثيرا لكن يعنينا بعد ذلك انها فرصة من الفرص الكثيرة التي ينتهزها الشاعر في الدعوة الى التآزر، والوحدة بين أبناء الأمة العربية فيقول مخاطبا تونس الشقيقة:

يا بني الخضراء هذا جهدنا في مصاب كلنا منه حزانى
كلنـا فيـه سواء فليكـن كلنـا فيـه معينـا ومعانـا
بورك المغرب من دار لنـا بوأتنـا مـن مغـانيها كنانـا
نحن فيها أسرة واحـدة اخوة دينا وجنسا ولسانـا
فتت الفرقة في أعضادنـا ان منها أبدا كان ضنانـا
عالجوهـا بـاتحاد جامـع ناجع المفعول، ينفي الشّنآنا

وهو نفس الموقف في رثاء الشاعر لعبد العزيز آل سعود، مع اضافة رمز «مكة» في الوحدة الاسلامية:

وما نحن الا اخوة رغم بيننا أشقاء في الاسلام ما بيننا فرق
وقد يرتجي للشرق جمع شتاته كما يرتجي للعبد من رقة عتق

وفي موقف آخر بعد استقلال الجزائر تأتي مناسبة أليمة على اثر انفجار باخرة مصرية بميناء جزائري: اهتز محمد العيد للحادث ليروي ذلك التلاحم بين أبناء الأمة العربية، تلاحم بين الأحياء والأموات على السواء:

وقل لبني الكنانة سوف تبقى ضحاياكم لنار رمـز اتحاد
وما شهداؤكم الا ضيـوف على شهدائنا بأعز نـادي
عـزاء في فجيعتنـا فانـا سواء في الرزيـة، والحداد

وقد كان عبد الناصر رحمه آلله أحد الرموز القوية للقومية العربية، وهو ما كان يدركه العيد فقال بمناسبة الترحيب به، تعبيرا عن شعور الجزائري تجاه كل مواطن عربي:

لا فرق في أقطارنا وديارنا ما بين مصري بها وجزائري

ومن أخريات قصائد محمد العيد عموما تلك التي حي فيها مبادرة الحكومة الجزائرية سنة 1966 بنقل رفات الأمير عبدالقادر (ابن محيي الدين) من العربية السورية الى بلده الأول (الجزائر) ليدفن في التراب الذي دافع عنه طيلة سبع عشرة سنة (17) حتى فقد «الساعد والمعاضد»

ويئس من الانتصار على العدو في تلك الفترة المتقدمة، ولمايع البعض أبعاد ذلك الاستعمار، في هذه القصيدة بدا أيضا ذلك الاحساس بتلك الرابطة القوية بين أبناء الأمة العربية الواحدة، ومنها الجزائر وسوريا:

أرى سوريا أخت الجزائر محتدا
وتأبى سوى وصل الفروع المحاتد
رعت لابن محيي الدين حيا وميتا
من العهد ما يرعى الكرام الاماجد

ان تعلق محمد العيد بالعروبة جعله يتمنى ان تزول الحدود والمسافات بين أجزاء الوطن العربي الكبير، بل انك في بعض أحاديثه تلمح ذلك الرفض منه:.. للباحثين عن الانتماء الأقليمي الضيق، من خلال رؤى لهم محدودة، تعبر عن تقوقع، وأنانية، وضيق أفق.

أما أول مظهر تتجلى فيه المشاعر الدينية الاسلامية للعيد فهو المناسبات الدينية، مثل حفلات المولد النبوي، وحلول شهر رمضان وانتهائه، والعيدين وغير ذلك، كالحفلات المدرسية بمختلف مناسباتها.

أما المظهر الثاني الذي تبدو فيه اسلامياته القومية فهو كل ما اتسم بطابع غير محلّي، طابع اسلامي عام.

ومن أول مواقفه في الموضوع صوته في الرد على أحد الاستعماريين في الجزائر (يومئذ عندما حاول التشكيك في القرآن، وان كان رد العيد عاطفيا ــ وما الشعر غير عاطفة بمختلف أشكالها ــ) فان مشاركته ورأيه تعبير عن قناعاته بما تعرضت له الكتب السماوية من تحريف وحذف بما لم يحدث القرآن الكريم:

هيهات لا يعترى القرآن تبديل وان تبدل توراة وانجيل
آياته هدى الاسلام ما برحت تهدى الممالك جيلا بعد جيل

ويحرص العيد على اقتناص الفرص التي تدعم رأيه في منهج الاسلام كأعلى مثال ديني متكامل، ومن هنا تأتي استجابته للمناسبات التي يعتنق فيها البعض من الأوروبيين الاسلام كـ«بنوا» الذي آثر اسم «علي سليمان» بعد اسلامه:

اسلام «بنوا» حجة قامت على أسرى العقول مضللي الافهام
المسلمين الساخرين بدينهم تبعا لمن كفروا من الاعجام

لذا رحب به العيد باسم سائر المسلمين في المعمورة كليا:

«بنوا» بنوا الاسلام من أقطارهم حيوك بالترحيب والأعظام

فهو الاسلام الذي ارتضاه الله لكل الناس بعد أن أنار الدنيا بمنهجه وتعاليمه:

شمس من الأفق المقدس اشرقت فارتدليل العالمين نهارا

فالمسلمون في هذه القصيدة أمة ذاب فيها العرق والنسب، وعلا فيها صوت القرآن يوحّد المشاعر، ويؤلف بين القلوب، ويهدي الى الخير الأعم، وقد أخذ كعقيدة يستعد للمجابهة لاستعادة مكانته بعد سبات طويل من قومه، شرعوا على اثرها ينفضون غبار الخمول والاستكانة.

جد جد الاسلام في كل أرض وانجلى عن بنيه داء الفتور
يا بني الشرق عصمة بالتآخي فالتآخي مذبّة للنفور
حكموا الدين في الطوائف وابنوا دوركم بالرجال لا بالصخور

وهذه النظرة الاسلامية هي التي جعلت العيد في احدى قصائده بمدينة قسنطينة (في الشرق الجزائري) يذكر العلاقة الروحية بين هذه والآستانة:
قم حي أخت (الآستانة) نشأة وحضارة ونضارة وجمالا

هذه المدينة (قسنطينة) أضحت بفضل قيادة المصلح الجزائري ابن باديس من منارات العالم الاسلامي، في نشر الثقافة الاسلامية، والدعوة الى التغيير، كي يغير آلله ما بالقوم من تخلف واستعمار، الى تحرر وسيادة ونهوض:

أرى الأزهر المعمور فيك مجددا   كما كان يحميه المعز وجوهر

وفي القصيدة نفسها يؤكد شاعرنا قناعاته عن المبدأ، والايمان، وخلود الاسلام، وكذا تفاؤله تجاه حال المسلمين:

إذا كنت حزب آلله سرا وجهرة   فثق ان حزب آلله لابد ينصر
وثق ان للاسلام غابا كثيرة   إذا غاب منها قسور ناب قسور

والاسلام رابطة الهية أرادها آلله لخلود دينه في أمته الاسلامية:

وما نحن إلا أمة ذات نسبة   سماوية الأسباب لن تتقطعا

وهي أمة ان كانت ذات ماض عزيز مشرق، فان حاضرها الآليم القاتم يعود الى المسلمين لا الى الاسلام:

فهل للمسلمين اليوم عـود   الى ما ضاع من شرف الجدود

الخلاصـــة:

ومهما كانت نسبة القضايا العربية والاسلامية في اهتمامات محمد العيد فانهما أولا وأخيرا يجدان تلاحما متكاملا عنده:

ما نحن الا اخوة من أسرة   كرمت ارومتها وطاب المحتد
الملـة السمحـاء آصرة لنـــا   فوق الأواصر والعروبة مولد

ومن هنا تلاحظ ذلك الأصرار القوى على هذا التلازم.. أو التلاحم بين العروبة والاسلام عند العيد الذي آمن بضرورة حذف الحدود المفتعلة بين أبناء الأمة العربية، ثم الاسلامية:

وطن العروبة كله وطن لنا في مصر أو بغداد أو في الشام
فلتحي دولة شعبنا عربية عرباء، اسلامية الأحكام

ان التلاحم بين العروبة والاسلام يفرضه أكثر من عامل واحد، ومن هنا لن تجد الشاعر يناقش الدعوات الضالة الى العامية في عالمنا العربي. بل هو يدعو الشعوب الاسلامية لتبني اللغة العربية، لانها لغة القرآن، بها نزل. ومن هنا تأتي العلاقة المؤثرة حضاريا ونفسيا لارتباط العربية بالقرآن، واعجازه العظيم، وهو شريعة المسلمين الذين انضووا تحت لوائه، فتوحدوا، وكانوا رسل حضارة انسانية أسعدت البشرية كلها:

قضى بولاء المسلمين جميعهم ووحدتهم في الأرض شرقا وغربا
ولو أذعنوا لاسترهبوا الغرب شوكة
وكان لهم في كل مؤتمر نبا
ولو آثروا الفصحى على لهجاتهم
لردوا الى أحضانها من تغربا
فان لسان الضاد لم يعز أصله
لعرب بين الألسن الا ليعربا

وقفه عند جانب رئيسي هام في شعر محمد العيد (رائد الشعر الجزائري الحديث) من جوانب أخرى يأتي في مقدمتها قصائده الثورية الساخنة التي بشرت بالثورة، وهتفت لها، كما تغنت أخرى بتحرير البلاد ونهضتها.

حرصنا على أن تكون هذه الوقفة في اعطاء صورة عن موقف محمد العيد آل خليفة، وفكره العربي الأسلامي.

وقد انتهى محمد العيد من الشعر (مطلقا القوافي) منذ 1972، متصوفا ملازما بيته في بسكرة النخيل الوادعة تحت وطأة المرض والاتعاب

المضنية، وبعد أن كان أحد جنود الكلمة المكافحة في مجالات مختلفة، دون أن يتنكر يوما لفنه ومواقفه، حتى وفاته في 1979.

وقد أدى بجهده.. وبشعره رسالة نضالية.. مضنية، وإن لم يتوفر في شعره فن رفيع كما ينتظره البعض (وذلك من طبيعة الظرف والمرحلة التي نشط فيها) فقد توفر فيه التأثير القومي والنضالي، والموقف الواضح في التوعية، والصدق الخالص في التعامل مع التجربة الفنية... ونقلها مفعمة بالحرارة والحب.. الى قارئه في الجزائر وخارجها.. في وطنه الأكبر.. وطن العروبة والاسلام.

*** *** ***

ثالثا ـ محمد العيد وأدب الأطفال(*)

عندما عقد المؤتمر العاشر للأدباء العرب، ومهرجان الشعر الثاني عشر في الجزائر، من 25 افريل الى 3 ماي 1975 كان من بين موضوعاته المطروحة للدراسة «الطفل في الأدب العربي».

وبعض البحوث التي استمعت اليها، أو قرأتها لم أجد فيها أي ظل لأي طفل عربي، في أدبنا العربي، وفهمت من بعض البحوث أن الموضوع يعني الأدب الذي يكتبه الأطفال (كما نرى في بعض المجلات المدرسية).. وعجبت متسائلا: متى كانت كتابات الأطفال أدبا؟ والبحوث التي قرأتها أو استمعت اليها، وتطرقت لصلب الموضوع لم أجد فيها أية اشارة لأديب جزائري خص الأطفال بشعره. ولم أدر إن كان تجاهلا متعمدا، أو هو عدم فهم، أو هو جهل على الأقل، بشاعر جزائري ساير نهضة الجزائر الشعرية وهو محمد العيد آل خليفة.

لقد ولد محمد العيد آل خليفة في 8 شهر أوت 1904م. وتعلم من الجزائر، وخبر أرضها وعايش أطفالها، أقارب له، وأبناء أصدقاء، وتلاميذ له، وأبناء فرأى فيهم مستقبل الجزائر الزاهر ونورها الباسم، فاعطاهم جميعا. وفي المقدمة تلاميذه، من جهده وقلبه، وبذل في سبيل هذا العطاء من ماله وروحه.

ولم تكن نظرته اليهم نظرة لأطفال غير ذي شان بقدر ما كانت نظرة تستشف من خلالهم المستقبل الوضاء، لذا كانت كلمة «الشباب» هي

(*) جريدة: الشعب الأسبوعي، العدد 72، 13، ربيع الأول 1379هـ ـ 3 مارس 1977.

التي تتردد باستمرار في هذا الموضوع فأنشا لهم الأغاني، وكتب الأناشيد، وهو اتّجاه فرضته عليه تلقائيا وظيفته يومئذ كمعلم للعربية وأستاذ، فضلا أن يبرز قيما معينة لتلاميذه، وان ييسّر لهم سبيل الأخذ بها تمثلا، وعملا.

ودون ان أناقش كلمتي «الطفل» و «الشاب» كلتاهما على حدة، لأنهما ما كان سوى شيء واحد بالنسبة لمحمد العيد — في رأيي — لأن طفل اليوم هو يتدرج نحو الفتوة فتتعانق الفترتان تعانقا لا يكاد يعترف بفارق الزمن القصير الرقيق ولم تكن هذه الأناشيد التي كان يكتبها الشاعر لمجرد التسلية وحدها، بل كانت بالدرجة الأولى لغرس مبادىء ثورية نضالية في الطفل الجزائري الشاب، وإعداده نفسيا لمواجهة محتل رابض، ينهب الأرض ويمتص الدماء، تربية قومية، واسلامية كذلك، واجتماعية أيضا.

وهي رؤى تشوف اليها محمد العيد، ودعا للإعداد لها، في وقت لم يولد فيه حتى بعض الثوريين، أو ولدوا، وكانت كلمات محمد العيد من الكلمات التي أصاخوا لها السمع، ومضوا على هديها فلا أحسب أحدا يجادل في هذا الموقف الشجاع في الدعوة الى طلب الجهاد:

«الى الفدى، الى الفدى يا شباب!»

في فترة مبكرة، هي سنة 1937م، وفي وقت قد تكون كلمة النضال فيه هي الخطر الأكبر، في النطق بها محاورا، أو ممازحا، لكن محمد العيد دعا بها دعوة صريحة قوية، خالية من كل لبس، أو تردد:

نحن الشباب العتيد في النضال
سدنا، وأنف العدى في التراب

دعوة حارة من «شاعر الشباب» كما كان يطلق عليه، للطفل الجزائري الشاب لاستعادة مكانته التي لن ينالها الا بالتضحية، لكسب مجد جديد، لا يكون عارا على مجد تليد أضحى التغني به غير مجد، وليس من ورائه طائل.

لم تكن أناشيد محمد العيد وقفا على تلاميذ مدرسته، بل كانت «البصائر» و «الشهاب» همزة الوصل التي تضمن له جمهورا أوسع من الأطفال والشباب يتلقون شعره عن معلميهم وأساتذتهم، نقلا عن الصحيفة. ومن هنا يضمن الذيوع لشعر محمد العيد، لروحه الوطنية الجارفة، المنطلقة عبر الكلمات في يسر وبساطة مع صدق قوي مؤثر، فتتلقفه المدارس والتنظيمات الكشفية. وقد يسمع محمد العيد شعره يتحول الى أنغام تتردد على الشفاه الحالمة عبر الأصوات المتموّجة فيزداد انتشاء، وسرورا، ويخصّ أطفال الكشافة بما تجود به القريحة من شعر يخاطب الطفل في يسر بلغة يراعي فيها مستوى فكره:

نفديك بالروح والبدن يا موطن الأشبال

وقد لا يسمح الظرف بان ينشر ما ينشر من شعر في صحيفة، كما قد لا يكتفي بشعره الموجه للأطفال والشباب بأن يذيعه بين تلاميذ أو طلاب المدرسة التي بها يعمل أو يديرها، فيقوم بطبع الأنشودة طبعا عاديا، ويرسل بالنسخ الى أصدقائه وزملائه، وقد يقوم هؤلاء الأصدقاء، أو الزملاء بطلب نسخ من هذه الأنشودة ليبيعوها، ويحولوا ثمنها الرمزي البسيط، الى صاحبها، فلا يسره المقابل المادي كما يسره الاقبال على شعره يطلب بشغف، ويدفع الفرنك «العزيز» يومئذ للحصول عليه.

وتتجلى في شعر محمد العيد الموجه للأطفال: القيم الخلقية، كالصدق في القول والعمل، والشعور بالعزة والكرامة، وعدم الاستكانة للظالم، والامانة، والانضباط، كما تتجلى فيه القيم الاسلامية التي ترفض الرضوخ لأي معتد وتنبذ كل تبعية لبدعة يأتي بها شرق أو خرافة يذيعها غرب، مثله الأعلى في الصمود، والأباء والتضحية: سير الابطال من المسلمين، ورجال الفكر الأحرار، ويأتي في مقدمة الجميع رسول الاسلام الذي ينبغي الاقتداء به.

كلنـــا، كلنـــا، جنـــود تحت رايـــة النبـــي
كلنـــا، كلنـــا، أسود في عريـــن المغـــرب

«أسود في عرين المغرب» جملة كان التفكير فيها كافيا ليجعل الشاعر يلقي القلم خوفا من أن يكشف أمره، أو يصدر أمر «باحتجازه» لكنه الايمان بكلمة الحق، والجراة في التصريح به، لا يضيره أذى يتعرض له في سبيل ابلاغ قضية يؤمن بها في صالح أمته ووطنه وأبناء هذه الأمة، وهذا الوطن، فهذا النشيد الذي نظم قبل اندلاع الثورة بنحو أربع سنوات فقط يوجز لنا تلك الشحنات الهائلة التي أراد الشاعر أن يشحن بها الطفل الجزائري والشاب الجزائري فلعزة الوطن ثمن، وللظفر بها لا مناص من التضحية:

نبتغـــي عـــز الوطـــن والفـــدى لـــه ثمن
لا نبـــالي بـــالمحن ان نفـــز بـــالمأرب

و «الوطن» بعيدا عن أية اضافات من الكلمات التي يكفي «النطق» بها مقرونا بـ«العزة» لتقود صاحبها للقفص. فأي وطن هو؟ والجزائر جزء من فرنسا؟

يلح محمد العيد على الجانب الأخلاقي، كالصدق، والنزاهة، واليقظة، لأنها مجتمعة لقاح ضد أي مرض طارىء. قد يسلب الطفل ارادته، أو الشاب عزمه:

كلنـــا صادق نزيـــه مستـــقيم المذهب
كلنـــا حـــاذق نبيـــه لا يـــرى فينـــا غبـــي

واننا لنتساءل: أين الرياض، والبساتين، والحدائق في شعر محمد العيد يلقنه للأطفال ويصبه في سمع الشباب؟ كي ينمي ذوقا ويرقى باحساس... أين ما يسعد النظر ويطرب السمع؟ ويملأ الصدر انشراحا بمظاهر الجمال

عن العين لا تخفى؟ لم يظهر منها شيء لأن أوانها لم يحن، فان سعد الشاب فليسعد بذكر رسوله ﷺ وان أراد متعته فمتعته في النظرة الرهيبة يسحق بها عدوا يحتوي أرضه ظلما، فدفع في نفس الطفل الشاب شعورا بالاستعداد لكل شر، وبالصمود لكل المحن، كي يكون صورة من أرضه التي تقسو صحاريها، كما تصمد جبالها وفي مقدمتها جبل «قريون».

كـــــن كاحـــــرار الأمم راكبـــا متـــن الهمـــم
كـــن كـ«قريـــون» الأشم صامـــــدا للأجنبـــــي

وان أراد محمد العيد الترويح على أطفاله، كتلاميذ له، روح عنهم بما يذكي عقولهم، ويبني مداركهم، فيلجا الى أسلوب الألغاز. والأطفال الفتيان بطبيعتهم ميالون للقصص تروى لهم، أو الاحاجي تحكى على مسمع منهم، أو الألغاز، تشوقهم، وكانت «الغاز» محمد العيد ــ إذن ــ لتلاميذه ذات أهداف ذهنية لتنمية قوة التفكير والتصور عند تلاميذه، وحسن الادراك، من ذلك لغزه في «لا» النافية التي تتكون منها الجملة «لا اله الا آلله محمد رسول آلله»:

فهـــي:

تسل رمحين معـــــــا منها على مـــن يطمـــع
بذكرهـــا في كلمـــة بها الحنيـــــف يصدع
فـاكشف لنا عـــن لغزهـــا ولا تقـــل لا ينفـــع

نظم عاد بدون شك، لكنه امتزجت فيه العقيدة الاسلامية بالثورية المتأصّلة في ذات الشاعر من خلال «رمحين» على من يطمح بالاضافة الى دعوته لأعمال الفكر، فيشد اليه الشاب شدا قويا فيروح يرود الآفاق، ليكون أخيرا بطل حل الألغاز، كي يعترف الجميع بعبقريته.

ومحمد العيد لم يرتح لنشر هذه الألغاز في ديوانه، قال لي هذا عندما لقيته ببيته في بسكرة أواخر شهر جوان من سنة 1972 ولما سألته عن السبب، قال ما خلاصته:

«كنت أمزح بهذه الألغاز مع تلاميذي، ولا أظن انها من الشعر... لكنني فوجئت بها في الديوان».

ورغم أنني لم أعلق على كلامه حينئذ بشيء، لكنني كنت مقتنعا بان كل ما ينشر من انتاج عن شاعر مثل محمد العيد، له قيمة هامة، ودور، في ابراز معالم شخصيته من طرق القول والتفكير.

غنى محمد العيد للجزائر، وللعروبة والاسلام، غنى للثورة الخالدة، وللشباب الطموح الذي يكتسح الغام العدى، كما غنى لأطفال الجزائر الذين كان لبعضهم شرف الاسهام في ثورة التحرير، وقودهم في صباهم وشبابهم شعر محمد العيد ونظيره، غنى محمد العيد للجزائر من أعماق فؤاده، ولم يجنح الى الخيال تصنعا، ولا استنجد بضروب البديع تكلفا، لكنه صاغ عواطفه ومشاعره واحاسيسه في يسر وعفوية، فكاد كل بيت من شعره ينطق باسمه لأن فيه روحه ونفسه.

كان أمله الأكبر أن تتحرر الجزائر، وجاءه «بوبشير» ذات يوم يوحي له بقرب تحرير الجزائر فتفاءل في أمل كبير، فحقق الله أمله بفضل شهداء، سقت دماؤهم كل شبر في أرضنا وتشوف الرجل للأمل الثاني... لم يكن الرجل من أولئك الذين كبرت مطامعهم، وجنحت مطامحهم في كسب مادي بايسر الطرق، فلم يقنعوا، ولا أقرّوا بنعمة الله... التي في قمتها.. نعمة النعم وهي الاستقلال، بل كانت أمنية محمد العيد أن يرى ديوانه مطبوعا، وان يحج بيت الله الحرام، وحققت الجزائر الحرة المستقلة لولدها البار الأمنيتين معا. وقالوا له: هل من أمنية أخرى؟ كان رده: الحمد لله، أمنيتي الباقية «ان القى الله سليما معافى».

لقد اعتبر عيشه على ثرى وطنه وحده تكريما له، وقد كرمته بلاده في شخصه وكرمته في شعره، اعترافا بفضله، واقرارا بدوره، فاقر ولم ينكر:

يا بلادي اكرمت مثواري ردحا ليس بدعا أن تكرمي اليوم شعري:

لقد كان محمد العيد جديرا بكل تكريم، وان مشروعا منتظرا تقوم به احدى المجلات الهامة في وطننا بتكريس عدد لمحمد العيد لهي بادرة طيبة نعلن بها وفاءنا وعدم تنكرنا، مهما اعترى عقولنا من تغيير، وأفكارنا من تبديل كشباب أو غير شباب في سنوات ما بعد السبعين.

وهي أمنية سمعتها تحمل كل معاني الحرارة والصدق من الدكتور أبو القاسم سعد الله، ذات يوم، وهو الذي خص محمد العيد بدراسة جادة اثلجت صدر الشاعر يوم صدورها وهي كتاب «محمد اليعد آل خليفة رائد الشعر الجزائري الحديث».

ان شعر محمد العيد من أغنى انتاجنا الوطني الشعري، وسيبقى علامة شامخة في الحركة الأدبية في الجزائر، وفي عالمنا العربي بعامة.

ليست هذه الكلمة الا محاولة للفت النظر الى جانب في شعر محمد العيد لم ينل اهتمام أحد من الباحثين سواء في الدراسات العامة، أو في الأبحاث الخاصة بأدب الأطفال.

بين (الابراهيمي) و (محمد العيد)[1]

أولا — رسالة الابراهيمي:

الحمد لله وحده
تلمسان يوم 3 صفر الخير 1355
الى ولدي الروحي الأستاذ محمد العيد
ولدي!

طالما قرأت في جهك الشاحب آيات الحزن وتلمحت في قسماتك دلائل الهم والأسى وكم حركتك بمعاريض من القول علّني أستبين شيئا من حقيقة هذا الهم الدفين الذي تنطوي عليه أحناؤك. وهذا الأسى المبرح الذي أعلم أنك تقاسيه. فكنت كمن يستجلى المعنى الدقيق من اللفظ المعقد. وان بين التعقيد ونفوس الشعراء «الأتقياء» نسبا وثيقا. ويا لله للنفوس الشاعرة التقية وما تلاقيه من عناء ممض. يتقاضاها الشعر اطلاقا. فيتقاضاها التّقى تقييدا... لها آلله فماذا تفعل!

أتظن أننا جاهلون بهذه المنازع العجيبة التي تنزعها في شعرك وبمناشئها من نفسك، فاحمد آلله على أن في قومك من يعرفها ويتذوقها ويطرب لها!

ما لهذه النفس الكبيرة في هذا الهيكل الصغير يهفو بها الشعر في مضطربه الواسع فلا يبلغ مداه حتى يقول:

خلا القلب من حب العباد وبغضهم   وأصبح بيتا للذي حرم البيت

---

[1] الشهاب، ج: 3، م: 2ظ، ربيع الأول 1355هـ — جوان 1936.

ويقول: وتبت يارب تبت. ويقول اليوم:

ولــولا رجــاء الــذي اليــه أنــا زالــف

انها ــ وأبيك ــ لنزوة الشعر تعتلج في الفؤاد بنزعة التقى.

طالما سمعت منك كلمة «اليأس» وبودي أن لا أسمعها منك مرة أخرى لأنني أعدها غميزة في شاعريتك. ولولا شذوذ نعرفه في نفوس الشعراء كأنه من معاني كمالهم لما صدقنا باجتماع اليأس والشعر وكيف ييأس الشاعر وهو ملك مملكة الآمال وسلطان جو الخيال. فان كان تقيا رجع من «رجاء الله» الى مالا يحد له أمد ــ فكيف تيأس نفس الشاعر لولا ذلك الشذوذ؟

لقد قال أو لكم؟

حــرك منــاك إذا اغتممــت فــانهن مــــراوح

وما قالها لغيره الا بعد أن جربها في نفسه... فلا تيأس يا بني ولا تكذب إمامك الذي يقول: خلق الشاعر سمحا طربا.

قرأت زفراتك هذه الساعة في الشهاب وأنا طريح الفراش أعالج زكاما مستعصيا ونزلة شعبية وسعالا مزمنا وأولادا يطلبون القوت أربع مرات في اليوم وتلاميذ يطلبون الدرس سبع مرات في اليوم والليلة فقلت: وهذه أخرى. أن ولدنا هذا لذو حق. وكتبت لك هذه الكلمات كما يكتب الأب الشفيق الى ولده الرفيق. وعسى أن يكون فيها ترويح لخاطرك.

ثانيا – جواب الشاعر

أبي «البشير» سلام زاك وشوق كبير
لا زلت فينا منارا بضوئه نستنير
وافى كتابك يهدي الى المنى ويشير
تذكو العبارة فيه ما ليس يذكو العبير
إذا فؤادي سال به وطرفي قرير
قد ارتددت بصيرا فكيف يغوى البصير؟
قميص يوسف ألقى به عليّ البشير؟
يا آسي اليأس زدني كشفا فأنت خبير
اليأس داء عسيف والبرء منه عسير
فرّجت عن مستطار بلاؤه مستطير
وكدت تجلو ضميري لو كان يجلى الضمير!
فليس يجزيك عنّي الأ الاله القدير
غفرانه لِمَ يشقى في الخلق جم غفير!؟
شقّ المرائر إربا هذا الشقاء المرير!
كم للمعافين جار من بوسه يستجير
يرى كجذلان حرّ وهو الأسيف الأسير
يالاهج الذكر باسمي والجاحدون كثير!
لاباد فينالك اسم ولا انقضى لك خير
عفوا فان يراعي عيّ وباعي قصير
عفوا فمالي جناح به اليك أطير
لا قفو إثر سريّ فوق الثريا يسير
نفحتني بخطاب كالزّهر وهو نضير

فهـــل تـــعير بيانـــا لـــرده هـــل تـــعير؟؟

يعيـــا الفـــرزق عمّـــا تقولـــــه وجريــــــر

يـــــا واصف الخير زدني مـــن وصف ما تستـــخير

يـــدقّ بين ضلوعـــــي قـــلب كسيـــــف كسير

أخشى عليـــه انتكـــاسا والانتكـــــاس خـــــطير

صف وصفــة لي أخـــرى فيها الشفـــــــاء الأخير

محمد العيد

حمزة بوكوشة

(1907 — ....)

حمزة بوكوشة

الشيخ (حمزة بوكوشة)() من الذين ولدوا مع مطلع القرن العشرين وقد باتت نيات الاستعمار الفرنسي مكشوفة للجميع: سيطرة واستحواذا ومسخا في العقيدة والأخلاق والعادات والتقاليد الاجتماعية.

تقول أوراق (حمزة شنوف) المدعو (حمزة بوكوشة) أن تاريخ الميلاد هو سنة 1909م، مع التنبيه الى أن المواطنين الجزائريين كانوا يسجلون أبناءهم في المصالح الادارية بعد فترة من الميلاد قد تطول وقد تقصر.

أما تاريخ الميلاد المرجّح من (الشيخ حمزة) فهو سنة: 1907() وهذا بعد مقارنة قام بها بناء على حيثيات محلية ومعطيات خاصة مختلفة منها: مقارنة بميلاد ابن خال له.

إذن في (وادي سوف) بشرق الجزائر ولد (حمزة بوكوشة) سنة 1907 من أب يتعاطى التجارة في مدينة (بسكرة) وهي المدينة التي أخذ فيها تعليمه الأولي، انتقل بعد ذلك الى (جامع الزيتونة) الذي تخرّج منه سنة 1930 بشهادة التطويع حيث عاد ليعمل في مدارس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين في (دلّس) و (قسنطينة) و (الجزائر) العاصمة، وقد كان من تلاميذه في (الجامع الأخضر) كثيرون، عمل عضوا في (جمعية العلماء) في مدارسها وفي هياكلها الادارية وفي صحفها حتى اعلان الثورة الجزائرية المسلحة حين تعرّض للاعتقال على أيدي قوات الاحتلال الفرنسي سنة 1957م.

() اسمه الرسمي (حمزة شنوف).

( ) سمعت منه ذلك في جلسة خاصة دامت ساعتين في منزله بشارع ( ) يوم السبت 23 ديسمبر 1989 بعد الظهر.

وقد استأنف عمله في التعليم الثانوي بعد الاستقلال أستاذا في اللغة العربية مع استئناف عصامي لمتابعة الدراسة في الحقوق حيث حصل على شهاد (الليسانس) في الحقوق سنة 1971 فعيّن أثر ذلك مستشارا في مجلس القضاء الأعلى يسنده في ذلك رصيد فكري وثقافة اسلامية واهتمام سابق بشؤون القضاء الاسلامي سواء بالكتابة في الصحافة قبل الاستقلال أو في الحياة العامة.

وقد فتح مكتبا للمحاماة في النهاية توظيفا لمعارفه الدينية والقانونية واتقاء للاحساس بوطأة فراغ ما.. بعد التقاعد من العمل الرسمي، غير أنني لاحظت في الشيخ (حمزة) عدم رضى عن واقع القضاء في الوطن، ولما تعانيه النصوص القانونية من تجميد، وما يعترض طريق القاضي والمحامي من صعاب، وما يعرقل تنفيذ الأحكام المدنية وغيرها، ومعاناة المواطن ورجل القضاء والوطن كل ذلك في ظروف صعبة.

وحين نأتي للمجال الفكري والأدبي نجد الشيخ (حمزة بوكوشة) شاعرا، وناقدا، وكاتب مقال: أدبي وصحفي، وباحثا كذلك في شؤون الفكر والتاريخ، وقد كانت (البصائر) أشهر منبر قبل الاستقلال عرف كتابات (بوكوشة).

ميله الى النقد اكتسى طابعا تمّرديا على المألوف المجتر في كثير من الأمور بما فيها اللفتات البسيطة، حتى أنه وقع احدى مقالاته في (البصائر) باسم: «طالب بجامع الزيتونة: حرّ الفكر لم يقرأ بالجامع الأخضر ولا الأحمر»[1] والمقال بعنوان «أقرّ الخصم وارتفع النزاع» في ركن (المنبر الحر) وأصل

---

(1) البصائر، السنة الأولى، العدد: 23، الصادر في 22 ربيع الأول 1355هـ الموافق 22 جوان 1936م. ولم يكن الرجل طالبا في الزيتونة، بل كان يكتب الموضوعات وهو في الوطن. ويرسلها الى (البصائر) للتمويه.

الأمر: خصوصا ثورة (حمزة) على الأسماء التي اتخذها بعض الكتاب لتوحي بانتماءاتهم الجهوية: ابتداء من (ابن باديس) الذي كان يوقع بعض مقالاته باسم (الصنهاجي) وانتهاء بالشيخ (باعزيز بن عمر) الذي كان يوقع أيضا بعض مقالاته باسم (الفتى الزواوي) و (الفضيل الورتلاني) باسم (الفتى القبائلي).

كان قصد (ابن باديس) رمزيا الايعاز بأن (صنهاجة) البربرية احتضنت الاسلام وعانقت العروبة فبات انتماؤها الحضاري أصيلا، وما فعل الشيخان (باعزيز) و (الورتلاني) ذلك الا ايعازا أيضا فيما نعتقد بأنّ من حق (زواوة) أن تفتخر بالابن الذي يعزّز انتماءها الحضاري لأمة عربية اسلامية، وكلاهما دافع عن هذا الانتماء كما دافع عنه (ابن باديس) باستبسال واستماته.

كان يجري ذلك في وقت لم تبرز فيه الحساسيات الجهوية وحتى «العرقية» التي استماتت أيضا في النهاية لدى اتباع الفرنسيين عندنا وأحفادهم من أجل بعثها لتعكير الجوّ العام، وصولا لتفرقة تسهّل المهمة أمام سياسة التنصير والتغريب والفرنسة التي دأب المحتلون بالأمس على رعايتها بدون حدود. نظر (الشيخ حمزة) الى ذلك بضيق ودخل في جدال من أجله، حسمه في النهاية الشيخ (العقبي) في التعليق على مقال (بوكوشة)(1).

اتّجاهه النقدي بدا فيه للبعض شيء من التطرف حتى كتب (أحمد رضا حوحو)( ) في (الشعلة) قائلا: «أخذ الأستاذ حمزة بوكوشة في مقالاته

---

(1) أنظر المصدر السابق.

( ) الموضوع بدون توقيع، رجحت نسبته الى (حوحو) الذي نأتي كثير من مقالاته في الشعلة بدون توقيع، وهو أمر شمل بعض الحلقات من ركنه النقدي الترفيهي (في الميزان) الذي كان ينشره في (الشعلة) ثم في (البصائر).

هذا زيادة على أن (حوحو) عاد بعد ذلك بنحو أربع سنوات للموضوع نفسه كما نعرف في البحث وهو يقدم شخصية (بوكوشة) في (الميزان).

الجريئة التي يواصل نشرها في البصائر يشكك في كلّ شيء، ويشكّكنا في كل شيء، فهو يتساءل: هل في الجزائر شعراء؟ هل في الجزائرر أدباء؟ هل في الجزائر زعماء؟ وأخيرا هل في الجزائر أزواج وزوجات؟ ولا زال الأستاذ مستمرا في شكّه وتشكيكه حتى خشينا أن يشك في الغد في وجوده، ويذهب يتساءل: هل في الجزائر حمزة بوكوشة»(1).

وقد عاد (أحمد رضا حوحو) لهذه النقطة بالذات في البصائر، وهو يتحدث في ركن «في الميزان» عن (حمزة بوكوشة) التاجر الأديب «تجارته هواية لا احتراف، ولهذا نجده في فصل الخريف تاجر تمور وفي فصل الشتاء تاجر قدور، وهو يمارس هاتين التجارتين على طريقته الأدبية: يسمّى تجارة الخريف نثرا والأخرى شعرا، ولهذا لا تعجب إذا ما قلت لك ان حرفة الأدب أفسدت عليه تجارته وكاد مذهب الشك أن يذهب به الى الافلاس، وهو دوما يتساءل هل عندنا نثر؟ هل عندنا شعر؟»(2).

وينتهي (حوحو) في نفس العدد من البصائر الى القول: «حمزة بوكوشة أديب ساخر وناقد ماكر، جريىء في أدبه، جريىء في آرائه، تختل نفسه ثورة لكنها متزنة أثقلت جوانبها الحكمة والعقل، قليل الكلام كثير التفكير منخفض الصوت مقلّ الانتاج ولكنه مجيد، تاجر لا يحسن التجارة ولا يؤمن بها، اشتغل بها خطأ واستمر في هذا الخطإ عن اصرار وعناد.... خير له أن يكون أديبا ناجحا من أن يكون تاجرا مخفقا».

لقد كان معظم نشاط (الشيخ حمزة) في الصحافة، كما نهض برئاسة التحرير في جريدة (المغرب العربي) الأسبوعية التي كان (بلّة محمود) مديرها وصاحب امتيازها، وقد جاء تحت اسمها: انها «جريدة سياسية أدبية اجتماعية،

---

(1) «الشعلة» السنة الأولى، العدد: 18. الصادر في 25 جمادي الآخر 1369هـ — 13 أفريل 1950م.
(2) البصائر، س: 1، ع: 268. الصادر في: 20 شعبان 1373هـ — 23 أفريل 1954.

لسان حال الشبان المسلمين» وصدر أول عدد منها في شهر ماي 1937 فاشتدت المواجهة بينها وبين الاحتلال الفرنسي، كما عبّر عن ذلك مقال (بوكوشة) في العدد الرابع بعنوان «الى من نشتكي عنت الليالي»[1].

والشيخ (حمزة بوكوشة) بالاضافة الى كونه ناقدا وكاتب مقالة أدبية وسياسية من النوع الجريء كان أيضا شاعرا، له ديوان شعري لا يزال مخطوطا() يحمل عنوانين اثنين: «من خواطر الصبا والشباب والكهولة والمشيب» و «من خواطر الشباب والمشيب» وقد يستقر الشاعر على هذا العنوان الأخير.

تتسم الاخوانيات في الديوان بالطول، ويتسم ما يتعلق بالوصف والعواطف الخاصة بالقصر، كما هو الحال في الخواطر التي تأتي على شكل مقطوعة أو حتى بيتين، في مثل قوله يقرّر حالة المعاناة الضرورية للأديب:

إذا لم تحاربك هذى الحياة فلست إذن من رجال الأدب
فصبرا وصبرا على النائبات ولابدّ يوما تزول الكرب

ورغم ان الكاتب صار قليل الانتاج بعد الاستقلال لعوامل مختلفة فان من آخر أعماله (الشيخ الهامشي الشريف وانتفاضة وادي سوف سنة 1918م والموضوع أصلا محاضرة تحت عنوان جانبي هو: «ما أهمله التاريخ» القاها في الملتقى الثقافي لمدينة (ورقلة) سنة 1986 و «من أقطاب السلفية في المغرب العربي: عبدالحميد بن باديس في العصر الحديث»[2] وهو بدوره موضوع محاضرة ألقي في الحلقة الدراسية «حول الحركة السلفية

---

(1) المغرب العربي، السنة الأولى، العدد: 4، الصادر في 8 ربيع الثاني 1356هـ — 18 جوان 1937م.
أنظر أيضا عن ظروف الجريدة: د. محمد ناصر، الصحف العربية الجزائرية من 1847 الى 1939م.
( ) حتى الآن 1990 (تحرير هذا البحث).
(2) الشيخ الهاشمي الشريف وانتفاضة وادي سوف سنة 1918م (مخطوط).

في المغرب العربي، تحت إشراف الجمعية المغربية للتضامن الاسلامي» هكذا يبدو الشيخ (حمزة بوكوشة) صحفيا، وناقدا، وأديبا شاعرا، وكاتبا سياسيا أيضا ثم باحثا ورجل قضاء، ويبقى في جميع الحالات ذلك الرجل البسيط المتواضع في كل شيء... مع الناس في الحياة.

نماذج من أعمال (بوكوشة)

أولا ــ في الشعر:

(1)

لا يلذّ الغاب للطير الذي ولدته أمه في قفص
همّه أكل وشرب ومنام وبعد عن يد المقتنص
من على الخسف تربّى ناشئا لا يرى في الخسف من منتقص

● ● ●

(2)

العين الزرقاء

أوّاه من زرق العيون تباعدت عنّي فطالت لوعتي وشقائي
لجّ العواذل في الملام لأجلها وتوغّلوا فحرمت من أصغائي
يبغون أن أسلو العيون وزرقة حكت بذاك لون سمائي

● ● ●

ثانيا ــ النثر:

على من نعوّل في توحيد المسلمين

منذ تأسست جمعية العلماء المسلمين الجزائريين وأنا أتتبع خطاها باستقراء لا مزيد عليه معجبا بثبات رجالها البررة الذين أنكروا الذات وهجروا اللّذّات في سبيل احياء السنّة واماتة البدعة وصمدوا للزوابع والعواصف التي يثيرها عليهم المعتدون من حين الى آخر، وكنت شديد الاعجاب بالصحف التي تصدرها الجمعية تلك الصحف التي كانت تتساقط في ميدان الكفاح تساقط أوراق الخريف أمام الرياح...

كنت أطالع تلك الصحف التي هي لسان الجمعية... فيلوح لي فيها ما يستوجب لاذع الانتقاد كامضاء (الفتى القبائلي) و (الفتى الزواوي) تلك الامضاءات التي تبعث كامن العنصريات وتذكي نار التفرقة التي أخمدها الاسلام فأعرض متغاضيا ومستعذرا للممضيين..

وأخيرا صدرت جريدة البصائر الغراء فتغلب يأسي على رجائي بعد ما حاكى تلك الامضاءات رئيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين الأستاذ سيدي (عبدالحميد بن باديس) والشيخ (عبدالحميد بن باديس) شخصية بارزة لها مكانتها في العالم الاسلامي.

كتب هذا الأستاذ أبقاه الله مقالا في العدد الثالث من البصائر تحت عنوان ((ما جمعته يد الله لا تفرقه يد الشيطان)) بامضاء (عبدالحميد ابن باديس الصنهاجي (كذا) فعجبت من هذا المقال الذي لا يتلاءم العنوان فيه والامضاء...(*).

(البصائر، ع: 15، سنة أولى، 25 المحرم 1355هـ — 17 أفريل 1936م)

(*) وقد ردّ الشيخ (باعزيز بن عمر) أي الفتى الزواوي أكثر من مرة، مما قال في ردّه الثاني عن (بوكوشة) أي الطالب الزيتوني: «...الفتى الزواوي والفتى القبائلي وأستاذهما الصنهاجي قد خلت أذهانهم مما تخيّلت ومن كل ما حشرت به ذهنك حين كانوا يمضون بهذه الامضاءات التي فهمت منها ما لا تؤدّيه، واكتفيت بقراءتها عن قراءة ما فوقها مما يكتبه أصحابها عن منطق سليم وتفكير طاهر، ومعاذ الله أن تجري أقلامهم بما لا يرضي الاسلام...».
(البصائر، ع: 17، سنة أولى، 9 صفر 1355هـ — 1 ماي 1936م).

2 ــ في تعليق نقدي على قصة حوحو الطويلة

«غادة أم القرى، هو الكتاب الذي أخرجه أخيرا الكاتب المبدع أحمد رضا حوحو، بأسلوب قصصي رائع أضاف فيه صفحة خالدة للأدب الجزائري الحديث.

صور فيه الحياة الحجازية تصويرا بديعا وهي تساوق حياة سكان الواحات بالجنوب الجزائري في كثير من العادات.

قدم الكاتب كتابه الى المرأة الجزائرية المحرومة من نعمة العلم والحب والحرية (كذا)! أجل ان المرأة الجزائرية محرومة من نعمة العلم فمن الذي يقول انها محرومة من نعمة الحبّ، والحبّ في طيّات الضمائر.

وليت شعري ما هي الحرية التي حرمت منها المرأة الجزائرية؟ هل هي الحرية التي حرم منها الرجل أو حرية أخرى؟.....».

(حمزة بوكوشة)
البصائر، السنة: 2، ع: 21، في 21
ربيع الأول 1367هـ ــ 2 فيفري 1948م

3 ـ من رحلته الى المغرب (أربعون يوما في المغرب الأقصى)

للمغرب الأقصى يد في تكوين مالدينا من الثقافة الاسلامية وان بعد عهدها وهو النافذة التي كانت تشعّ علينا منها الحضارة الأندلسية في القديم.

حدت بي مآرب تجارية وحب الاطلاع لزيارة هذه البلاد التي هي جزء من بلادنا لا يتجزّأ... وأول مدينة أقمت فيها من مدنه حاضرة فاس تلك الحاضرة العلمية التي وجدت بها صاحبنا القديم الأستاذ ابراهيم الكتاني الذي بفضله تقصّيت ما بالمدينة من مؤسسات علمية، وآثار تاريخية، وعرّفني بالنخبة المفكّرة من رجال العلم والأدب السلفيين، من شيوخ مجربين وشبان طامحين، في مدة أسبوعين ولولاه ما استطعت التوصّل الى ذلك ولا تقصّيته الا بعد أشهر، وكان من أشهر تلك المؤسسات والآثار جامعة القرويين.

ولقلد زرت مدير الجامعة الأستاذ محمد الفاسي فسحرني بلطفه وظرفه، وسألني عن الجزائر ونهضتها العلمية، وعن معهد عبدالحميد بن باديس وكيفية ارتباطه بجامع الزيتونة...

ثم ذهبت الى الدار البيضاء وهي مركز تجاري عظيم لا نظير له بالشمال الافريقي، وقد ساعدها على ذلك موقعها من المحيط الاطنلطيكي وسياسة الباب المفتوح. والمسلمون يشتغلون بالتجارة ومن بينهم تجّار بأتمّ معنى الكلمة لهم ضلع كبير في الايراد والتصدير. وإذا جلست حيث يجلس التجار بالدار البيضاء فانك تسمع المليار يتردد في

المجالس وترى حوّالات الملايين تدور بينهم، وبجانب ذلك تسمع أن فلانا بنى مدرسة حرّة تكلفت عليه بثلاثين مليونا، وتسمع أن أرملة تتفق مع الورثة على التنازل عن خمسين مليونا من الأرث ووضعها تحت تصرف الملك لينشىء بها مشروعا يحمل اسم زوجها. فأين أغنياء الجزائر الرعاديد من أولئك الصناديد؟

وقد كانت لي في هذه الجولة تغذية فكرية وسلوى أنستني مالاقيته في الناحية التجارية التي كنت فيها كجالب التمر الى هجر.

(البصائر) سلسلة: 2، عدد 31، الصادر في:
2 جمادي الثانية، عام 1367ه — 12 أفريل 1948م

المصادر والمراجع

(1) البصائر، السنة الأولى، (من السلسلة الأولى) عدد: 15، الصادر في 25 المحرم 1365هـ — 17 أفريل 1936م.

(2) البصائر، س: 1، ع: 16، 2 صفر 1355هـ — 24 أفريل 1936م.

(3) البصائر، س: 1، ع: 17، 9 صفر 1355هـ — 1 ماي 1936م.

(4) البصائر، س: 1، ع: 18، 16 صفر 355ظهـ — 8 ماي 1936م.

(5) البصائر، س: 1، ع: 19، 23 صفر 1355 هـ — 15 ماي 1936م.

(6) البصائر، س: 1، ع: 20، 1 ربيع الأول 1355هـ — 22 ماي 1936م.

(7) البصائر، س: 1، ع: 21، 8 ربيع الأول 1355 هـ — 29 ماي 1936م.

(8) البصائر، س: 1، ع: 23، 22 ربيع الأول 1355هـ — 12 جوان 1936م.

(9) البصائر، س: 1، ع: 25، 6 ربيع الثاني 1355هـ — 26 جوان 1936م.

(10) البصائر، س: 1، ع: 268، 20 شعبان 1373هـ — 23 أفريل 1954م.

(11) المغرب العربي، س: 1، ع: 864 ربيع الثاني 1356هـ — 18 جوان 1937م.

(12) الشعلة، س: 1، ع: 18، 25 جمادي الآخر 1369هـ — 13 أفريل 1950م.

(13) الصحف العربية الجزائرية من: 1847 الى 1939م، د. محمد ناصر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر 1980.

(14) الشيخ الشريف وانتفاضه وادي سوف سنة 1918م، حمزة بوكوشة، مخطوط.

(15) من أقطاب السلفية في المغرب العربي: عبدالحميد بن باديس في العصر الحديث، حمزة بوكوشة، مطبعة وزارة الشؤون الدينية، الجزائر.

(16) من خواطر الشباب والمشيب، ديوان شعر، حمزة بوكوشة، مخطوط، لدى صاحبه.

(17) حديث لي مع الكاتب في 1989/12/23 ومع الأستاذ الشيخ (محمد الصالح رمضان) يوم 1989/12/21م.

محمد الصالح رمضان

(1914 —)

محمد الصالح رمضان

الأستاذ الشيخ (محمد الصالح رمضان) متواضع شديد الشغف بالخوض في رياض الأدب والشعر، بمجرد أن يلمس فيك الرغبة الصادقة في البحث لا يتردد في أن يكون في عونك، يغمره شعور فياض بالسعادة وهو يسهم بوقته وجهده لتوفير مصدر أو مرجع أو البحث في قضية أو الاجابة عن استفسار، هي روح الأديب الفنان الذي يفتح قلبه لكل ذي نية صافية وقصد صادق.

أفني عمره في ربوع الكلمة العربية أستاذا وأديبا، تنّوع نشاطه في الأستاذية، وتعدّدت اهتماماته الأدبية: قصة ومقالا وشعرا ومسرحا ودراسة أدبية.

ولد (محمد الصالح رمضان) في (القنطرة) بولاية (باتنة) في الشرق من الوطن في 14 أكتوبر 1914(*) حيث تلقى تعليمه الابتدائي في المدرسة الفرنسية كما تتلمذ على الشيخ (الأمين سلطاني) في مبادىء العربية والفقه الاسلامي، وتابع ذلك في قسنطينة على يد الشيخ (عبدالحميد بن باديس) وبعض مساعديه إلى أن عينّه (ابن باديس) معلّما في (مدرسة التربية والتعليم) التابعة لجمعية العلماء في قسنطينة في مطلع سنة 1937م حتى سنة 1943م.

(*) ذكر السّائحي خطأ أن ذلك كان سنة 1916، والصحيح هو 1914 رغم أن بطاقة تعريف الكاتب تحدّد سنة 1913، وهذه الحالة الأخيرة نتجت عن خطإ في مصالح الحالة المدنية حيث كان للمؤلف أخ حمل اسم (محمد) وتوفي فسمي المؤلف بنفس الاسم المكمل بصفة (الصالح) التي لا تتسع لها الخانة في المطبوعات البلدية.

(اتصال هاتفي بالمؤلف في 14 جانفي 1990)

(وبلقاءات تالية شاهدت في يوم 1991/11/11 منها بطاقة تعريفه).

من هنا انطلق (محمد الصالح رمضان) عضوا نشيطا في حركة جمعية العلماء حيث عمل في مواقع مختلفة لنشر العربية في صفوف الناشئة، فعمل مديرا لمدرسة (الجمعية) في (غليزان) ومعلما بها سنة 1943م، انتقل بعدها الى (تلمسان) أستاذا ومديرا سنة 1946م(*) لمدرسة (دار الحديث) ومدرسة (عائشة أم المؤمنين) للبنات في 1952م. في موقعه هذا في (تلمسان) كان يستقبل رجال الجمعية وفي مقدمتهم (محمد البشير الابراهيمي) ويشارك في أعمال اللجنة العليا للتعليم ذات الاشراف على مدارس جمعية العلماء، حتى اندلعت الثورة، فالتحق بعض زملائه بالثورة ودعي آخرون لمهام سياسية كممثلين للثورة لدى بعض الدول، وشدته هو على أرض الوطن مسؤوليات عائلية كثيرة جعلت اسهامه في الثورة ضمن (جبهة التحرير) داخل الوطن حتى الاستقلال، حيث استأنف نضاله التعليمي مديرا للتّعليم الديني بوزارة الشؤون الدينية، وأستاذا في التعلم الثانوي.

وقد كان للكاتب خلال هذه الرحلة نشاط سياسي وفكري وأدبي جيد، ربما بدأت بذرة نشاطه السياسي منذ تولّيه التعليم في مدرسة (التربية والتعليم) حين بدأ مرشدا لفوج (الرجاء) من الكشافة الجزائرية، لايمانه بأن «الحركة الكشفية جديرة بأن تخلق لنا جيلا وطنيا جديدا نقي العقل قويّ الجسم، يعتمد على نفسه ولا يتّكل على أحد ولو لم يكن لها من فضل سوى تقوية روح التضامن والألفة بين أفراد الشعب وتعويدهم الطاعة والامتثال لرؤسائهم لكفاها شرفا وفضلا، مع أنها تعوّد أصحابها أيضا على حبّ النظام واتقان العمل والاستعداد لتحمّل المسؤوليات»[1].

(*) يذكر مرتاض سنة 1944 خطأ، والصحيح هو سنة 1946. (صححت هذا في اتصال هاتفي بالمؤلف يوم 14 جانفي 1990).

(1) من مقدمة ديوان (ألحان الفتوّة) محمد الصالح رمضان، ص: 25، ط : 3، دار الكتب، الجزائر، 1305هـ — 1985م.

ولم يكن المعلم الجزائري والأديب الوطني ــ في واقع الحال ــ يفصل السياسة عن فكره ولا عمله في المدرسة أو في ابداعه الأدبي والفكري، وقد كانت جهود رجال التربية والتعليم خاصة في مدارس (جمعية العلماء) وأقلام الكتاب والشعراء السماد الفعّال لتنتج الأرض الجزائرية وعيا وطنيا أسفرت عنه ثورة نوفمبر 1954م التي كان من جنودها أيضا المعلمون والأدباء في الداخل وفي الخارج، وقد عمل الشيخ (محمد الصالح رمضان) بين جنودها في الداخل، في جناحها المدني (جبهة التحرير).

أمانشاطه الفكري والأدبي فقد كان في الصحافة الوطنية قبل الاستقلال وبعده، وعلى شكل أعمال أدبية ومؤلفات فكرية علمية ثقافية. من بين الصحف التي عرفت انتاجه قبل الاستقلال جريدة (البصائر) ومجلة «العبقرية»(٥) التي نشرت له في أول عدد لها قصيدة بعنوان: «شحوب أديب» يقول فيها:

تحيّر قومي في شحوبي وعزلتي ... عن الوسط المملوء بالترهات
وما بي حزن، لا ولا حبّ كاعب ... ولا أيّ ضرّ ظاهر في حياتي

بل ان حاله تعكس حال قومه:

بل القوم شخص والفتى كسجنجل ... صقيل يريك الحق في القسمات
فان شئت فهم القوم فانظر لحالتي ... تجد صورة طبق الحقيقة ذاتي

* * *

أعمال الكتاب منها المطبوع ومنها المخطوط، والمطبوع يمكن تقسيمه الى قسمين:

أولا ــ انتاج خاص بالأطفال والشباب، من نوع (أدب الطفل) منه:

---

(٥) رئيس تحريرها زميله في مدرسة (دار الحديث) بتلمسان عبدالوهاب بن منصور، وكانت القصيدة باقتراح من هذا الأخير.

1 ــ الناشئة المهاجرة، مطبعة ابن خلدون بتلمسان، سنة 1949، وهي مسرحية.

2 ــ ألحان الفتوة، عبارة عن أناشيد كشفية وطنية تربوية، أول طبعة له في (تلمسان) بمطبعة (ابن خلدون) سنة 1953م أما الطبعة الثالثة فهي التي صدرت عن دار الكتب، الجزائر، سنة 1985م.

3 ــ مغامرات كليب، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر.

ثانيا ــ أعمال علمية وفكرية:

1 ــ العقائد الاسلامية لابن باديس، وهو تحقيق وتعليق، دار الكتاب الجزائري، 1964م.
2 ــ الذكرى الأدبية لزيارة الفرقة المصرية، ليوسف وهبي، مطبعة ابن خلدون، تلمسان (الجزائر) 1950م.
3 ــ مبادىء الجغرافية العامة وموجز جغرافية الجزائر، الشركة الجزائرية: مرازقة وبودواو، الجزائر، 1965م.

4 ــ جغرافية الجزائر والعالم العربي، دار الكتاب الجزائري، الجزائر 1964م.

5 ــ تفسير ابن باديس تحقيق (بالاشتراك) دار الكتاب الجزائري، 1964م.

6 ــ من هدي النبوة لابن باديس ــ تحقيق وتعليق (بالاشتراك) دار الكتاب الجزائري، الجزائر، 1965م.

7 ــ النصوص الأدبية (4 ج) (بالاشتراك) الجزائر 1960 ــ 1964.

الأعمال المخطوطة:

للأديب (محمد الصالح رمضان) مشاريع كثيرة بعضها متوقف وبعضها مخطوط، ومنها ما هو جاهز للطبع. من أعماله المخطوطة:

1 ـــ ديوانه الشعري، الذي أطلعني عليه قيد التنقيح الجزئي.
2 ـــ من فصيح العربية في العامية الجزائرية.
3 ـــ سوانح وارتساماتا عابر سبيل، أو الرحلة الى مهرجان الشباب والطلاب بفارصوفيا، سنة 1955م، وهي رحلة قد تصدر قريبا، وقد نشر جزء كبير منها في جريدة «الشعب» في 28 حلقة ابتداء من: 1 أوت 1987 ع: 7396 حتى 7 سبتمبر 1987، ع: 7423.

هذا بالاضافة الى أعماله المتفرقة في الصحف من مقالات أدبية وأعمال مسرحية قصيرة[1] وغيرها، مما كان له دور متعدد الجوانب منها خدمة العربية والاسلام في مواجهة المسخ الأوروبي، حتى قال فيه أحد زملائه: «الانصاف يفرض علي... أن أقول: ان أفراد هذه المجموعة المجاهدة وهو كإخوانه الذين أبلوا البلاء الحسن في معركة كفاح الجهل والأمية ونشر التعليم والتربية طوال أعوام قد استهلّ حياته العلمية والعملية في مدينة قسنطينة مركز الاشعاع الثقافي ومنبع النهضة العلمية بقطرنا: اذ قضى مدة دراسته على الامام المرحوم الشيخ (عبدالحميد بن باديس) كما كان واحد من تلامذته الذين آثروا الحفاظ على عهده والتشبث بمبادئه في خدمة الاسلام ولغته والوطن وبنيه مهما لحقهم في سبيل ذلك من التضحيات وأصابهم من الويلات والنكبات»[2].

---

(1) هناك مثلا مسرحية قصيرة تستمد السيرة النبوية، بعنوان (تضحية صبي) تحت عنوان آخر هو (من صميم الهجرة النبوية) أنظر: (البصائر) سلسلة: 2، ع: 16، الصادر في: 8 صفر 1367هـ ـــ 22 ديسمبر 1947م. انظر أيضا البصائر، سلسلة: 2، ع: 24 الصادر في 12 ربيع الثاني 1367 هـ ـــ 23 فيفري 1947 مسرحية: حليمة مرضع النبي ﷺ.

(2) مقدمة (الشيخ علي مرحوم) لألحان الفتوة في طبعته الثانية سنة 1964، ص: 5.

من انتاج (محمد الصالح رمضان) الأدبي

1 ـ قصيدة قالها يخاطب فيها «عالما شابا كان يريد الزواج من فتاة مثقفة» سمعت منه هذا في جلسة ببيته في القبة مساء يوم 1989/12/21م.

يا خلّ اتئد!

رام يرجــــو كوكبـــا مـــن سما هــذا الفـــلك
طـــاف مـــا أمكنـــه باحثـــا أنـــى سلك
عـــن مصابيـــح الهدى في دجـــى هـــذا الحلك
طال ما قد نـال مـــن نصب هـــــــذا الملك
لـــيت شعـــري مالـــه جاهـــدا فيمـــا سلك

* *

هيـــه يـــا خـــل اتئـــد واصطبر مـــا أعجـــلك
وانتظـــر حتـــى تـــرى كوكبـــا يديـــه لك
فالـــق الاصبـــاح مـــن قـــد تولّـــى مأمـــلك
حيرة وقتيــــــــــــة تنـــجلي بعـــد الحلك
سنـــــة الـــــرحمن ذي فتـــــرقب أجـــــلك
كل آت حـــــــاضر لا تبـــدّد أمـــــلك

تلمسان ـ محمد الصالح رمضان

(البصائر، سلسلة 2، ع: 20، 7 ربيع الأول 1367هـ ـ 19 جانفي 1948م)

ملاحظة: البيت الأخير لم يرد في البصائر، قرأه عليّ الشاعر من ديوانه المخطوط.

2 ــ نشيد

الجوالة الاسلامية

(له لحن خاص طبع معه بالنوطة في مجلة السبيل التونسية)( ).

(1)

هيه يا جوّال يا فخر الرجال
يا ربيبا للمعالي والكمال
أنت من ينشده، هذا (الشمال)
فاستمت في نصره حتى ينال
خير ما يرجوه في عهد الظّلم
أيها الجوال جل في ربوع المغرب
أيد الحق وقل: ذي بلاد العرب

(2)

أيها الجوال يا ذخر الوطن
عرّف السكان ذكرى من سكن
هذه الأوطان في فجر الزمن
أوضحي التاريخ، أو ظهر المحن
من بني مازيغ أصحاب الشّمم
أو أعاريت يداة غيّروا مجرى الزّمن
همّهم في ذي الحياة لبس تاج أو كفن

(3)

ايه يا جوّالة العرب الكرام
في بلاد حرّها دوما يضام
ناصروا الحق وسيروا للأمام
نحو أسمى مبدأ عند الأنام
وهو تحرير الحمى ممّا ألم

( ) السنة الأولى، ع: 4، في جمادي الثانية 1366هـ ــ 1 مارس 1947م.

— أنتم رمز (العمال)(٠) حاربوا فينا الكسل
واعملوا في من عمل حقّقوا ذاك الأمل

(4)

أيقظوا الأفكار واشدوا بالنّغم
من مزايا جنسكم بين الأمم
انهم — والله — في أعلى القمم
بين أهل الأرض من أوفى الذّمم
ليس خيرا منهم قوم عجم
ذكّرونا ان غفت عيننا بين الأمم
واغنموا إذا ما أتت فرصة تحيي الرمم

(5)

(واعدوا ما استطعتم من قوى)
واستعدّوا للنّوى أو للطوى
ثم سيروا كلّكم تحت اللّوا
ربّ هذا الكون أو شخص ظلم
فأعدّوا للنّضال كلّ مال ورجال
سارعوا حتى ننال كلّ عزّ وكمال

(6)

(لن تنالوا البّر حتى تنفقوا)
للحمى والدين مالا ينفق
من نفوس أو نفيس يعشق
هيّنا من غير من ينحق
انما الانفاق يـ خير الأمم

في مشاريع الحياة واجب في كل حين
كصلاة أو زكاة عند خير المسلمين

( ) رمز الجوّالة.

(7)

(لـــــــيس لـــــــلانسان الاّ مـــــــا سعـــــــى)
في حيـــــــاة حبّهـــــــا لـــــــن ينفعـــــــا
أحـــــــد الاّ إذا مـــــــا استمعـــــــا
لنـــــــداء آللّه. أو ذاع دعـــــــا
هـــــــذه أركانها منـــــــذ القـــــــدم
فاعبـــــــدوا ربّ السمـــــــا واخدمـــــــوا هـــــــذا الوطـــــــن
ذاك خير مـــــــغنما وبـــــــه نوجـــــــو المنـــــــن.

° ° °

3 ــ من الرحلة الى (فرصوفيا)

جبال الألب الشرقية:

تركنا (ترياستا) على اليمين، وواصلنا الطريق نحو الشمال حتى انتهينا الى مدينة ترويس Tarwis آخر نقطة من الأراضي الايطالية على مقربة من الحدود اليوغسلافية، في جبال الألب الشرقية... قطارنا الآن يدبّ في الأراضي المتساوية على سكته الحديدية وسط جبال وعرة وأراض صعبة لا عهد لنا بها...

كل همنا رصد المناظر الطبيعية المختلفة في آخر النهار قبل أن يدهمنا الليل، وتصيّد ما توحي به تلك المناظر من الهام أو من حقائق وأوهام، أو ما تذكّرنا به من حوادث جسام، يعرفها الخاص والعام، مما تجود به الذاكرة الكليلة وتنفحنا به الحافظة البخيلة مما ترسب فيهما من بقايا الحوادث والأحداث...

ها هو ذا القطار يتلوّى في طريقه بين الغابات والأدغال، يخترق الجبال في أنفاق طويلة وقصيرة، ويقطع الأنهار والوديان عبر الجسور والقناطر، أو يسير حذوها في أخاديد طويلة وعميقة ونحن نرى الجبال الشمّ الشوامخ فيهو لنا علوّها ونستعظم أمرها، لأننا نراها من تحت، ولو كنّا نراها من فوق على متن طائرة أو منضاد لكان نظرنا اليها يختلف حيث يرى القطار من الأعالي أشبه ما يكون بيرقة صغيرة أو دودة أمّ الأربعة والأربعين بالنسبة لعظمة هذاه الجبال.

فالرؤية من فوق ترينا قمم الجبال العالية نقطا تافهة منحطة مستوية مع الأرض، بينما هي وأنت تنظر اليها من تحت عظيمة عاتية، يرتد طرفك اليك حسيرا من فرط علوّها فسبحان العالم بكلّ شيء، وما أوتينا من العلم الا قليلا.

هذه جبال الألب الشرقية المعقدة التركيب ما تزال قممها مجلّلة ببياض الثلج في عزّ الصيف فكيف تكون في الشتاء يا ترى؟! نرى شلالات المياه نازلة من أعالي الجبال، ولعلّها من ذوب تلك الثلوج، ونرى البحيرات والغدران تجمّعت مياهها في أحواض ووهدات من الأرض انحبست فيها لاتجد منفذا تفلت منه، وفي المنحدرات والسهول الضيقة نرى الرعاة وقطعان مواشيهم المختلفة سارحة في تلك المراعي الخصبة الخضراء. وشاهدنا بعض القرى ومساكن الفلاحين منبثة هنا وهناك في تلك الجبال المغطاة بالغابات الكثيفة التي تتضاءل أمامها غاباتنا التلية والساحلية، أما الزراعة فجدّ محدودة بهذه المناطق، اللهم الا رقعا ضيقة من مزارع الكروم في ضفاف الأنهار الواسعة المشمسة، فشتّان بين هذه المزارع ومزارع سهولنا الشاسعة الواسعة المتنوعة، فنحن في الزراعة أحسن حالا والحمد لله.

وفي احدى المحطات النمساوية وزّعت علينا وجبة عشاء خفيفة ونحن بأماكننا لنأكلها في القطار.

أسدل الليل ستاره وغطّى العالم بردائه الأسود، فلم نعد نرى شيئا خارج القطار، أما في الداخل فقد اشعلت الأنوار في المعابر ومقصورات العربات، وبعض الرفاق في مقصورتنا يدندن، والبعض واجم أو نائم بعدما كانوا يثرثرون طول النهار، ونسمع أصوات (الترنز ستور) من المقصورات المجاورة، وأصوات الغناء والرقص في بعضها، والبعض لا يفتر من حركات الذهاب والاياب والوقوف في المعابر ممّن لا يصبرون على طول الجلوس، وهكذا تختلف تصرّفات الناس وسلوكاتهم كما تتباين أذواقهم ومشاعرهم، ويظهر ذلك جليّا في السفر الطويل.

أما أنا فشديد التأثر برؤية المناظر الطبيعية الى حدّ محاكاتها — ان صح التعبير — فإذا تجهمت السماء مثلا تجهمت اساريري، وإذا

أشرقت الشمس أشرقت ملامحي، وكلما رأيت منظرا منها ارتسمت له صورة في ذهني وتأثر لها مزاجي وقد يظهر ذلك على سحنة وجهي. فالمضائق في الجبال توحي لي بالضيق، والدكنة في الجو تشعرني بالانقباض، والصحو في السماء يجلو لي مرآة ذهني، وهكذا.

(سوانح وارتسامات عابر سبيل أو الرحلة الى مهرجان الشباب والطلاب بفرصوفيا 1955) القسم الأول، ص: 25، مخطوط. أنظر أيضا (الشعب) ع: 7400 الصادر يوم 11 أوت 1987.

مصادر ومراجع

(1) ديوان محمد الصالح رمضان، مخطوط.
(2) سوانح وارتسامات عابر سبيل، أو الرحلة الى مهرجات الشباب والطلاب بفرصوفيا 1955م، مخطوط ، جزء كبير من هذا العمل نشر في جريدة (الشعب بين 1 أوت و 7 سبتمبر سنة 1987م.
(3) ألحان الفتوة، دار الكتب، الجزائر، 1985.
(4) البصائر، س: 2، ع: 16، الصادر في 8 صفر 1367هـ — 22 ديسمبر 1947م.
(5) البصائر، س: 2، ع: 24، الصادر في 12 ربيع الثاني 1367هـ — 23 فيفري 1948م.
(6) البصائر، س: 2، ع: 20، الصادر في 7 ربيع الأول 1367هـ — 19 جانفي 1948م.
(7) جريدة (الشعب) من عدد: 1396 الصادر في 1 أوت 1987 الى عدد 1408 الصادر في 7 سبتمبر 1987.
(8) فنون النثر الأدبي في الجزائر، عبدالملك مرتاض، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1983م.
(9) روحي لكم، محمد الأخضر عبدالقادر السائحي، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1986.
(10) اضافة الى هذا وغيره ممّا لم يشمله البحث هناك ثلاث جلسات مع الكاتب في بيته، الأولى في 22 نوفمبر 1989م، والثانية يوم 21 ديسمبر 1989، والثالثة في 1991/10/10 تداولنا فيها بعض المخطوطات والأعمال المطبوعة، كما ناقشنا عدة مسائل ذات علاقة بالموضوع.
وغيرها كلقاء يوم: 1990/1/14
ويوم 11 11 1991.

الفهرس

أنجز طبعه على مطابع

ديوان المطبوعات الجامعية

الساحة المركزية - بن عكنون

الجزائر